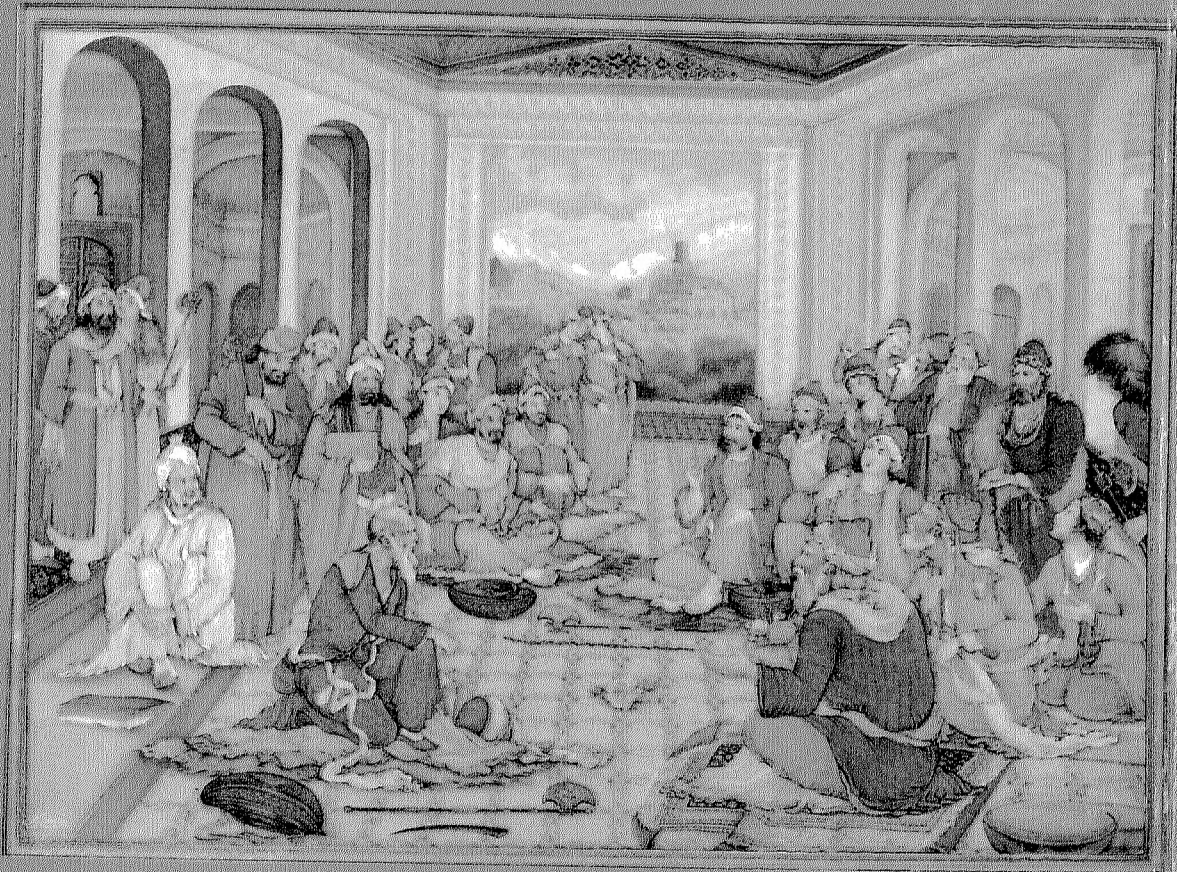


من وحى الشرق



دكتور / بديع محمد جمعة



المكتب المصرى لتوزيع المطبوعات

من وحى الشرق

د. بديع محمد جمعة

١٩٩٨

الناشر

المكتب المصرى لتوزيع المطبوعات

٥ ش مصطفى طموم - المنيل - القاهرة

ت : ٣٦٥٥٤٨٧

حقوق الطبع محفوظة للناسخ

١٩٩٨

الناشر

المكتب المصري لتوزيع المطبوعات

٥ ش مصطفى طوموم - المنيل - القاهرة

ت : ٣٦٥٥٤٨٧

رقم الإيداع ٩٨/٥٠٨٨

الترقيم الدولي 977-5841-097

الفهرس

تقديم

- ١ - العلاقات الثقافية بين العرب وإيران فى العصر الحديث.
- ٢ - حركة الترجمة بين اللغتين العربية والفارسية عبر القرون.
- ٣ - صورة مصر فى الأدب الفارسى الحديث.
- ٤ - الأثر الفارسى فى مسرح شوقى.
- ٥ - العلاقات المصرية الإيرانية فى عصر داريوش الكبير.
- ٦ - جمال الدين الأفغانى وأطماع الروس فى أفغانستان.
- ٧ - جمال الدين الأفغانى والثورة الدستورية فى إيران.
- ٨ - فضل بخارى على الشعر الفارسى إبداعا وتأريخا.
- ٩ - البيرونى مؤرخا.
- ١٠ - كاف الكفر أفضل من فاء الفلسفة: ذم الفلسفة عند فريد الدين العطار وجلال الدين الرومى.

تقديم

منذ فجر التاريخ والعلاقات العربية الإيرانية وطيدة ومستمرة، ثم توثقت هذه العلاقات أكثر وأكثر بعد ظهور الإسلام ودخول إيران في بوتقة العالم الإسلامي. فزادت هذه العلاقات على جميع المستويات والأصعدة، وأصبحت أرض الإسلام من المحيط الأطلسي في المغرب والأندلس حتى مشارف المحيط الهادي في كل من أندونيسيا ودول شرق آسيا مجالا رحبا يستطيع المسلم أيا كان موطنه أن يتنقل بحرية بين ربوع هذه البلاد إما بغرض التجارة أو تحصيل العلم أو حتى السياحة ولاشك أن هذا الأمر قد جعل المسلمين في كل البلاد وثيقى الصلة موحدى الفكر في الأعم والأشمل. وهذا ما جعلنى أركز على دراسة العلاقات الوطيدة بين العرب وإيران عبر العصور المختلفة في مجال الفكر والثقافة، وبخاصة في العصر الحديث بعد أن ظن البعض أن الحدود السياسية وموانع الانتقال إلا بجوازات السفر وتأشيرات الدخول قد حالت بين هذه الدول وسرعة الالتقاء.

كما أنه من الأمور التي ساعدت ومازالت تساعد على تقريب وجهات النظر بين شعوب الأمم الإسلامية حركة الترجمة المتبادلة بين لغات الأمم الإسلامية وبخاصة بين اللغتين العربية والفارسية حيث تخصصت أسر كاملة في هذا المضمار، وكذلك تفرد أشخاص لهم أهميتهم في إثراء هذه الحركة وكان على رأسهم ابن المقفع. وهذه الحركة لم تتوقف حتى اليوم. فما أكثر الكتب العربية المترجمة إلى الفارسية والمنشورة في إيران، وما أكثر أيضا الكتب الفارسية التي تترجم إلى اللغة العربية وبخاصة في مجال الرسائل العلمية، بجميع الجامعات المصرية، وهذا ما حدا بى لأن أخص حركة الترجمة هذه بمقالة خاصة.

وإذا كانت العلاقات العربية الإيرانية قد حظيت بالكثير من الاهتمام، فإن العلاقات الإيرانية المصرية قد فاقت غيرها من العلاقات العربية الإيرانية وذلك للتقارب الفكرى بين أبناء إيران ومصر عبر العصور المختلفة، لدرجة أنه ما أن يصدر الكتاب فى مصر حتى يسارع الإيرانيون بترجمته إلى الفارسية فى نفس عام صدوره أو بعد ذلك بقليل كما حدث فى مؤلفات قاسم أمين وطه حسين والعقاد وهيكى وغيرهم كثيرون.

وإذا تركنا العلاقات العربية الإيرانية وانتقلنا إلى داخل إيران وأفغانستان فسنجد أننا كمصريين نولى أهمية كبرى برجات هذه البلاد وعلى رأسهم الثائر الإسلامى الكبير جمال الدين الأفغانى، أو الأسد أبادى كما يسميه الإيرانيون وينسبونه إلى بلادهم، وكذلك نولى اهتمامنا بمدن إيران القديمة والحديثة مثل بخارى وسمرقند وأصفهان وشيراز، ونحن لا ننظر إليها فى مصر على أن بعض هذه المدن يدخل فى حوزة إيران الآن أو غيرها من بلاد التركستان، وإنما ننظر إليها على أنها مدن إسلامية لعبت دورا هاما فى بناء الحضارة الإسلامية التى لاتعترف بحدود جغرافية أو إقليمية.

إلى جانب كل ذلك، فقد حاولت أن أقدم تعريفا موجزا بعالم كبير من أعلام الفكر الإسلامى ألا وهو أبو الريحان البيرونى صاحب العلوم والمعارف التى تفوق الحصر، والذى يعتبر من كبار المؤرخين والفلكيين والرياضيين فى العالم أجمع.

وأخيرا قدمت رأيا صوفيا قاله زعيما التصوف فى إيران وهما فريد الدين العطار وجلال الدين الرومى حول ماهية الفلسفة ورفضهم لها. وهما يرددان بذلك ما سبقهما إليه حجة الإسلام أبو حامد الغزالى،

وكان غرضي من ذلك معاودة البحث عن العلاقة بين المتصوفة والفلاسفة في الفكر الإسلامي، لعل أحد الدارسين المتخصصين يحاول تقريب وجهات النظر بين المجموعتين في الفكر والعمل.



أرجو بهذه المقالات التي طوفت من خلالها بالعديد من الموضوعات المستوحاة من الشرق؛ أن أكون قد قدمت صورة توضح أن العالم الإسلامي مهما تعددت مسميات بلدانه وأقطاره فهو في النهاية قطر واحد وثقافة واحدة وحضارة إسلامية واحدة وإن اختلفت في بعض تفاصيلها هنا أو هناك.

وفق الله العالم الإسلامي لكي يعود وحدة واحدة قوية تستطيع مجابهة التكتلات الفكرية والسياسية والاقتصادية العالمية، ويستطع أن يرفع راية الفكر الإسلامي خفاقة، حتى تعود له الريادة كما كانت عبر عصور عديدة.

والله الموفق ، ، ،

بديع محمد جمعة

العلاقات الثقافية بين العرب وايران في العصر الحديث

العلاقات الثقافية بين العرب وإيران

فى

العصر الحديث^(١)

تمهيد:

نظرا للجوار الجغرافى بين بلدان العالم العربى والهضبة الإيرانية فإن العلاقات بكل أشكالها وأطوارها لم تنقطع بين العرب والإيرانيين منذ فجر التاريخ وحتى الآن. ومن يقرأ تاريخ البابليين والآشوريين من جانب وتاريخ قمبيز ودارا من جانب آخر، يدرك بعد هذه العلاقات، ومن يقرأ أيضا تاريخ المناذرة والغساسنة وتاريخ آل ساسان يدرك كذلك وجود هذه العلاقات قبل الفتح الإسلامى لإيران.

وما أن جاء الإسلام ودخلت إيران تحت مظلته ونعمت بفضله حتى أصبحت جزءاً لا يتجزأ من هذا العالم الممتد من أندونيسيا والهند شرقا إلى بلاد الأندلس والمغرب العربى غربا، وقد أدى هذا إلى انصهار جميع ثقافات هذه الشعوب فى بوتقة الفكر الإسلامى. وأصبح الأديب والمفكر المسلم لا ينسب إلى بلده بل ينسب إلى الإسلام، وأصبح إنتاجه ملكا للمسلمين جميعا. وما أكثر الأعلام الذين أثروا الثقافة الإسلامية وكانوا من أصل إيراني أمثال: ابن المقفع، وسيبويه والطبرى والبخارى ومسلم وابن سينا والغزالي، وغيرهم كثيرون ممن كتبوا بالعربية لغة الإسلام الأولى والذين يقرأ لهم العامة والخاصة دون أن يدرك بعضهم أنهم من أصل

(١) هذه الدراسة تمتد عبر خمسة قرون تقريبا، وهى فترة طويلة، لذا سأكتفى بالخطوط العريضة لهذه العلاقات دون الدخول فى تفاصيل كثيرة.

إيراني، وكفى أى واحد منهم أن نقول إنه المفكر الإسلامى أو الفيلسوف المسلم. وقد كان هؤلاء وغيرهم حريصين على الكتابة بالعربية حرصهم على أن تصل آراؤهم إلى القاعدة العريضة من المثقفين فى ربوع العالم الإسلامى كله، ولم يكن أحدهم يستشعر الإقليمية فيما يكتب إلا فى تلك الفترة التى ظهرت فيها حركة الشعوبية، تلك الحركة التى أثرت على الثقافة فترة من الزمن ولكن سرعان ما اندثرت، وعادت إلى الحركة الثقافية الإسلامية وحدتها وصلابتها، حيث كان الأديب المسلم أو المفكر المسلم حريصا على الترحال من بلد إسلامى إلى بلد آخر بحثا عن العلم والمعرفة الإسلامية التى لا تحدها حدود جغرافية وهمية تفصل بين هند وإيران وعراق وحجاز وشام ومصر ومغرب عربى.

وحتى عندما بدأت اللغات الإسلامية الأخرى فى الظهور والكتابة بها وبخاصة الفارسية والتركية، فإن المضمون مازال واحدا، وما زالت الآراء والأفكار التى يتناولها الباحثون والأدباء فى مؤلفاتهم الفارسية أو التركية هى نفس الأفكار والآراء التى يتناولها الباحثون والأدباء فى مؤلفاتهم العربية، بل إن كثيرا من هؤلاء الأدباء والكتاب من غير العرب قد كتبوا معظم مؤلفاتهم بالعربية إلى جانب كتاباتهم بلغاتهم المحلية من فارسية أو تركية، وخير مثال على ذلك الغزالي وابن سينا وغيرهما كثيرون.

ظلت الوحدة الثقافية الإسلامية ممتدة من شرقى آسيا إلى غربى العالم الإسلامى حتى ظهرت دولة جديدة فى إيران، هى الدولة الصفوية التى أسسها الشاه اسماعيل الصفوى عام ٩٠٦ هـ (١٥٠٠م) وأعلن فى عام ٩٠٧ هـ المذهب الشيعى الإثنى عشرى مذهبا رسميا لهذه الدولة الجديدة. وكان هدفه من ذلك التخلص من التبعية للعثمانيين حماة المذهب السنى والتى تقوم دولتهم على أساسه، ولعل الخلاف العرقى بين

الجنس الآرى فى إيران والجنس التوارنى (الأترك) عبر التاريخ، ذلك الخلاف الذى تزخر بآثاره الأساطير الإيرانية هو الذى دفع الإيرانيين للتفكير فى اتخاذ المذهب الشيعى مذهباً رسمياً لدولتهم الصفوية، وبذلك يجدون المخرج من الانضواء تحت العلم التركى العثمانى حامى المذهب السنى.

(١) الصراع المذهبى وأثره على الساحة الثقافية:

مما لاشك فيه أن إقدام الصفويين على إعلان دولتهم واتخاذهم المذهب الشيعى مذهباً لهم قد فرق الوحدة الإسلامية بين دول سنية تقع شرقى إيران ومنها الهند وأفغانستان وأوزبكستان ودول سنية أخرى تقع غربى إيران ومنها الدول العربية كلها وتركيا، وتتوسط هاتين المجموعتين إيران بمذهبها الشيعى. وقد أدى هذا إلى صدام مسلح بين الخلافة العثمانية وبين الصفويين، حيث كان الصفويون بمثابة شوكة فى ظهر الخلافة العثمانية. فكلما تقدمت الجيوش العثمانية لنشر الإسلام فى أوروبا سارعت إيران بمهاجمة تركيا من الشرق وذلك بعد أن أغرى الأوروبيون إيران بذلك حتى تخف الحملات العثمانية عن أوروبا. نما يضطر معه الخليفة العثمانى لسحب بعض جيوشه من أوروبا لتأديب إيران ثم العودة مرة أخرى لمواصلة الحرب فى أوروبا، بعد أن تكون الجيوش الأوروبية قد التقطت أنفاسها وأعادت تنظيم جيوشها وتسليحها. كل هذا التواطؤ الإيرانى مع أوروبا تم بناء على وعود من أوروبا بتسليح إيران ومساعدتها دون أن يتم أى شىء من هذه الوعود^(١).

(١) لمعرفة المزيد عن هذه الأحداث يرجع إلى: بديع جمعه: الشاه عباس الكبير بيروت ١٩٨٠ وبخاصة البابين الرابع والخامس.

وقد أدى هذا الصراع إلى وجود فجوة في العلاقات بين إيران والعالم العربي الذي كان خاضعاً برمته تحت حكم الخلافة العثمانية. وقد أثرت هذه الفجوة على المجال الثقافي، حيث كان التعصب المذهبي في إيران عنيفاً. واصطبغت الحركة الثقافية هناك قسراً بهذا التعصب. فلم يعد يسمح لأى مفكر إسلامى معتدل أو سنى بالكتابة والتأليف.. بل أصبح التأليف والتشجيع لأولئك الذين سايروا التعصب وجعلوا كل مؤلفاتهم فى خدمته وخدمة الحكام الصفويين. فكثرت الكتب التى تمجد زعماء الشعية وتسب الخلفاء الراشدين أباً بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم. بل إن الكتب الفارسية والدواوين التى كانت تشمل فى مقدمتها على مدح لهؤلاء الخلفاء كان يعاد طبعها بعد نزاع هذه المقدمات منها^(١)، إلى غير ذلك من الادعاءات والافتراءات على زعماء السنة مما أدى إلى أن عدداً لا بأس به من علماء السنة فى تركيا والعالم العربى قد ردوا على هذا الهجوم بهجوم مثله ووصلوا إلى حد تكفير الشيعة وإباحة دماءهم.

وعملت إيران الشيعية - وما زالت حتى الآن - على تشجيع الأقليات الشيعية فى العالم العربى على الارتباط بإيران وجعلها المرجع الأساسى لها. وخير مثال على ذلك ما حدث مع أحد زعماء الشيعة بجبل عامل بلبنان وهو الشيخ عبدالصمد العاملى حيث رحل إلى إيران بدعوة منها فى عهد الشاه طهماسب الأول. وقد حظى باحترام الشاه واهتمامه. وقد رقاها الشاه إلى أن أعطاه لقب شيخ الإسلام فى إيران. ثم خرج الشيخ

(١) بديع جمعه: مقدمة ترجمة منطق الطير لفريد الدين العطار ص ٣٥، الطبعة الثانية. بيروت ١٩٨٧.

عبدالصمد إلى الحجاز قاصدا الحج وزيارة قبر الرسول عليه السلام، وبعد فترة قضاها بالحجاز رحل إلى البحرين حيث توفي هناك.

وما فعله طهماسب مع الشيخ عبدالصمد فعله الشاه عباس الأول مع ابنه بهاء الدين العاملى الذى وفد إلى إيران مع والده. وتلمذ هناك على أيدي علماء الشيعة ودرس جميع العلوم المعقولة والمنقولة والرياضيات والطب، وقد عينه الشاه عباس فى منصب شيخ الإسلام كذلك. ولكن سرعان ما اعتزل الشيخ بهاء الدين هذا المنصب وخرج من إيران سائحا فى كل من العراق والشام ومصر والحجاز وبيت المقدس، ثم عاد إلى إيران مرة أخرى ولكنه رفض تقلد أى منصب رسمى مكتفيا بالتدريس والتأليف كما خلف وراءه أشعارا بالفارسية والعربية كذلك. وأخيرا توفي فى الثانى عشر من شهر شوال عام ١٠٣١ هـ عن ثمانية وسبعين عاما حيث دفن فى مشهد بجوار ضريح الإمام الثامن لأئمة الشيعة؛ وذلك بأمر من الشاه عباس^(١).

وعلى الرغم من ذلك العلماء الذين بدأه الشيعة الصفويون ضد الدولة العثمانية والبلدان السنية الداخلة تحت إمرتها، فإن هذا الشيخ الشيعى قد ساح فى عدد كبير من الأقطار العربية. ولعل كونه عربيا لبنانيا قد شجعه على تلك السياحة. بل إنه مكث فترة طويلة فى مصر حيث كتب فيها وطبع كتابيه الكشكول والمخلاة وهما باللغة العربية^(٢). كما طبعت له المطبعة الأميرية بالقاهرة بعد ذلك بعض كتبه الفارسية، ومنها: كتاب «نان وحلوا» وكتاب «نان وپنیر» وكتاب «شیر وشکر»^(٣).

(١) نصر الله فلسفى: زندگانی شاه عباس اول ج ٣ طهران ١٣٤٥ هـ . ش.

(٢) الصلات الثقافية بين إيران ومصر ص ٦١. القاهرة ١٩٧٨.

(٣) المرجع السابق ص ١٤١.

هذا العداء السننى الشىعى الذى افتعله الصفويون بدأت تخف حدته بعد أن تولى نادر شاه الأفشارى العرش فى إيران ١١٤٨ هـ (١٧٣٥م) وذلك بتأسيسه دولة الأفشاريين على أنقاض الدولة الصفوية. ولم يكن نادر شاه هذا متعصبا كسابقه فأمر بعدم سب الخلفاء الراشدين أبى بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم من فوق المنابر فى إيران، وأخذ يفروض العثمانيين فى الاعتراف بالمذهب الشىعى الإمامى مذهباً ختامساً من المذاهب الإسلامية يضاف إلى المذاهب الأربعة المعترف بها بين أهل السنة.. وأن تسوى الخلافات المذهبية بين أهل السنة والشيعة بالحسنى حرصاً على وحدة الصف الإسلامى فى وجه القوى الأوربية الصليبية الاستعمارية^(١).

وهذا المسلك التفاوضى والدعوة إلى المصالحة لا يمكن أن يرضى عنها مشايخ الشيعة فى إيران، وذلك لأنهم قد أحرزوا الكثير من المكاسب أثناء حكم الدولة الصفوية، مما جعلهم يؤلبون الناس ضد نادر شاه متهمين إياه بمحاولة القضاء على المذهب الشىعى والتآمر مع العثمانيين فى هذا الصدد، لدرجة أنهم اتهموه بالجنون، ودبروا مؤامرة لاغتياله، ونجحت المؤامرة فى قتله عام ١١٦٠ هـ (١٧٤٧م) وبذلك خفت بمقتله كل صوت يدعو إلى تخفيف حدة التعصب المذهبى بين الشيعة والسنة^(٢).

ومع هذا فقد ظهرت الدعوة إلى التقريب بين المذاهب الإسلامية مرة أخرى فى منتصف القرن العشرين قادها من إيران الشيخ محمد تقى القمى ويد الله البروجردى ومن مصر الشيخ عبدالمجيد سليم والشيخ

(١) عبدالنعم حسنين: إيران فى ظل الإسلام ص ٨٥ الطبعة الثانية: المنصورة ١٩٨٩.

(٢) المرجع السابق: ص ٨٦.

محمد المدنى والشيخ محمود شلتوت الإمام الأكبر فى ذلك الوقت
والذى أصدر فتواه الشهيرة بجواز التعبد على المذهب الجعفرى.

وقد أسس هؤلاء المشايخ من شيعة وسنة «دار التقريب بين المذاهب
الإسلامية» وتولت هذه الدار إصدار صحيفة بعنوان «رسالة الإسلام»
يتحدث فيها أصحابها عن فكرة التقريب هذه والترويج لها بين المسلمين
جميعا دون تفرقة بين سنة وشيعة.

ثم أصدر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية كتاباً فى عام ١٩٦٦ م
بالقاهرة عنوانه: «دعوة التقريب من خلال رسالة الإسلام» وقد جاء فى
تقديم هذا الكتاب للشيخ محمد المدنى قوله: «لم يبق شك فى أن أمر
الأمة الإسلامية لا يصلح الآن على الاحتفاظ بالعصبية والاحتفال
بالخلافت، وإحياء ما مضى فى أعماق التاريخ من ضغائن وعداوات.

لقد نشط أعداؤنا فى العصر الحديث نشاطا جديدا قوامه الإدعاء بأن
الثقافة الإسلامية لا تصلح غذاء للعقول فى هذه العهود، عهود المدنية
والحضارة والصواريخ والفضاء والكواكب، ووجد هذا النشاط فى الصد
عنها إقبالا من الشباب، وتراضيا من الكهول، فانصرفت عنها العقول أو
كادت..

فهل يمكننا مع هذا أن نحتفظ بخلافائنا، وأن نقضى الحقب
الطوال، والجهود المضنية فى تحقيق مشكلة الصفات وهل هى عين
الموصوف أو غير الموصوف، بين السنة وغير السنة، أو مشكلة التجسيم
بين المجسمة والمنزهة، أو مشكلة الخلافة ومن هو أحق بها، بين الشيعة
والسنة؟..»

لذا قامت دعوة التقريب منذ عشرين عاما أو تزيد، وكان شعارها قول

الله عز وجل: «إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون».. وقد أثمرت هذه الدعوة الطيبة، التي غرست بذورها في أرض مصر الطيبة، ثمارا حسنة دانية القطف، ونفذت أنباؤها وأفكارها وأضواؤها إلى كل شعب من شعوب الإسلام^(١).

وقد شارك في كتابة مقالات هذا الكتاب نخبة كبيرة من كبار العلماء السنة منهم على سبيل المثال لا الحصر: الشيخ محمد محمد المدني، الشيخ محمود شلتوت، الشيخ عبدالمجيد سليم، الشيخ محمد عبدالله دراز، الأستاذ أحمد أمين، الأستاذ محمد فريد وجدي، الشيخ عبدالعزيز عيسى، ومن علماء الشيعة شارك بالكتابة الشيخ محمد تقى القمى، والشيخ محمد جواد مغنية، والشيخ صدر الدين شرف الدين، والشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء.

وهكذا التقى عدد كبير من علماء السنة العرب مع عدد كبير من علماء الشيعة في إيران في الدعوة إلى فكرة التقريب وروجوا لها سواء في رسالتهم «رسالة الإسلام» أو في ذلك الكتاب الذى أقدم المجلس الأعلى للشئون الإسلامية على طبعه على نفقته الخاصة.

وهكذا كانت الدعوة للتقريب بمثابة منبر تلتقى فيها الثقافة الإسلامية بجناحيها العربى والإيراني، بجناحيها السنى والشيعى.

والحق يقال: إن هذه الدعوة السمحاء قد وجدت أرضا خصبا لدى علماء السنة في مصر وغيرها من الدول العربية، لأن السنة بطبيعتهم ليسوا دعاة تعصب ممقوت، أما نظراؤهم من علماء الشيعة في إيران فأرجو

(١) المجلس الأعلى للشئون الإسلامية: دعوة التقريب من خلال رسالة الإسلام ص ٤ - ٦. القاهرة ١٩٦٦.

أن يكون تقبلهم لهذه الدعوة عن نية صادقة ورغبة أكيدة في خير الإسلام والمسلمين، لا كما يقول البعض بأنهم يلجئون لمثل هذه الدعوة وغيرها في فترات ضعفهم، وعند انحسار سلطانهم السياسى والمذهبى، أما فى حالة عنفوانهم، فإنهم يرفضون مثل هذه الدعوة، ويصرون على عدائهم لكل ما هو سنى!!

(٢) المعلم الثائر وتلاميذه:

لقد حفل تاريخ العالم الإسلامى الحديث بالعديد من الثائرين ودعاة الإصلاح السياسى والاجتماعى والدينى، ولكن لا يوجد من بينهم من بلغ فى هذا المجال ما بلغه الثائر جمال الدين الأفغانى الذى قضى حياته كلها داعياً إلى توحيد العالم الإسلامى، وتحرير شعوبه من الاستعمار والاستغلال، وفى سبيل تحقيق هذه الدعوة الإصلاحية عاش وزار العديد من بلدان العالم الإسلامى منها على سبيل المثال لا الحصر؛ إيران وأفغانستان والهند ومصر وتركيا، بل إنه تعدى فى سبيل هذه الدعوة العالم الإسلامى كله وزار العديد من مدن أوروبا ومنها باريس ولندن وموسكو وميونخ، زارها لكى يواصل دعواته الإصلاحية ومطالبته الدول الاستعمارية بالرحيل عن العالم الإسلامى.

ولاشك أن شخصية جمال الدين الأسد آبادى والمعروف بالأفغانى تتجسد فيها روح الشرق وثقافته وآماله وآلامه. وإذا كان جمال الدين قد اختلفوا فى جنسيته وهل كان إيرانياً أم أفغانياً، فإن هذا لا يعيننا بقدر ما يعيننا أنه عاش فى إيران واتصل بحكامها وأجداد الفارسية واطلع على

آدابها وشارك في الحركة الثقافية هناك^(١)، ثم رحل إلى ربوع العالم الإسلامي وساعده في ذلك إجادته - كبقية أدباء عصره - اللغة العربية وآدابها، إذا تخطينا دور جمال الدين الأفغاني في إذكاء الشعور بالحرية والمطالبة بالاستقلال، وانتقلنا إلى آثار دعوته الإصلاحية على الحياة الثقافية، فإننا نجد أن جمال الدين قد خطت الكتابة والخطابة بفضلها خطوات واسعة سواء في مصر أو غيرها من بلدان العالم الإسلامي والعربي التي زارها، كما تقدمت الصحافة بفضلها تقدما ملموسا، فقد كانت الصحافة قبله تتحدث بالسنة الحكام وتتغذى بأفكارهم، فأخذ جمال الدين يغرس في تلاميذه البحث عن الحقيقة والتعبير عن الرأي الصادق مهما كانت عواقبه، بل وشجع الفقهاء على سعة الأفق وعدم التردد في إصدار الأحكام.

ويروي الشيخ محمد عبده أنه بعد حضوره في الأزهر سنين مل الدروس المعتادة، وثاقت نفسه إلى الجديد، وبدأت تميل إلى العلوم العقلية، وكان الشيخ «حسن الطويل» مشهورا في الأزهر بعلم المنطق فحضره عليه، ولكنه لم يكن يشفى ما في نفسه.. فلما جاء «جمال الدين» وجد عنده أمنيته فلم يكن «جمال الدين» يتردد في الحكم تردد الشيخ «حسن الطويل» وإنما كان يصدر أحكامه عن ثقة وينظر إلى الأشياء نظرة عميقة.. وكانت طريقته في التدريس أن يشرح الموضوع ويعلق عليه من جميع نواحيه ويبين رأيه فيه، ثم يقرأ النص بعد ذلك فإذا هو واضح كل الوضوح، وبهذه الطريقة استطاع أن يعود الطلبة حرية البحث، ويوجد شخصيات تبحث وتنقد وتحكم، ولا تقف عند حد النص

(١) راجع المقدمة التي كتبها الدكتور عبدالنعم حسن في ترجمته لكتاب حقيقة جمال الدين الأفغاني لميرزا لطف الله خان: الطبعة الأولى. المنصورة ١٩٨٦.

كأنه تنزيل من الله^(١).

ولاننسى دور جمال الدين فى مشاركتة للشيخ محمد عبده فى إصدار جريدة العروة الوثقى، فكانت مجالا لتلاميذها للتعبير عن آرائهم بحرية، وبعد أن كانت المقالات الصحفية قبل ذلك قاصرة على النواحي العلمية والأدبية، فقد اتسع نطاقها على أيدي رجال المدرسة الحديثة فى الصحافة حيث تناولوا فى كتاباتهم الموضوعات السياسية والاجتماعية والدينية، كما تخلصوا من السجع والجناس وغيرها من ألوان المحسنات البديعية^(٢).

ونظرا لما قام به جمال الدين من إحياء وبعث للحركة الإسلامية فى شتى أرجاء العالم الإسلامى، فليس عجيبا أن نرى جميع الشعوب الإسلامية تقدر جمال الدين وتعتز به وتعهده من مفاخرها، وملكا لها جميعا، فتعنى بدراسته وتسعى إلى تسجيل أفكاره وآرائه، وتحاول نشرها وإخراجها إلى حيز الوجود وتعمل على تمجيد ذكراه، وترى فى هذا دليلا على يقظتها، وبرهاناً على حيويتها واستعدادها للسير فى طريق الرقى والازدهار.

وهكذا كان جمال الدين مدرسة ثقافية راقية لمعاصريه، كما ظل مدرسة ثقافية تضيء جوانب الفكر فى ربوع العالمين العربى والإسلامى حتى الآن.

ولاشك أن لكل مدرسة تلاميذ ورواد، وتلاميذ جمال الدين الأفغانى أكثر من أن يحصى عددهم، ومع هذا فله تلاميذ مباشرون حضروا الدرس على يديه، وحملوا المشعل الثقافى التنويرى من بعده، وأول هؤلاء التلاميذ وأهمهم الشيخ محمد عبده الذى قال عنه جمال الدين الأفغانى يوم أبعد عن مصر: إننى خرجت من الديار وما ألفت كتابا، ولكن

(١) عبدالباسط محمد حسن: جمال الدين الأفغانى وأثره فى العالم الإسلامى الحديث ص

١٨٨ - ١٨٩ الطبعة الأولى . القاهرة فى ١٩٨٢.

(٢) عبداللطيف حمزة: المقالة الصحفية ج٢، ص ٢١٩ - ٢٢٢.

تركت لكم أثرا يغنى عن جميع الكتب وهو «محمد عبده» وكفى به لمصر عالماً^(١).

ولم يأخذ محمد عبده عن معلمه جمال الدين الأفغانى فكره فقط، بل تعلم لغته الفارسية حتى أنه ترجم إلى العربية كتاب جمال الدين الأفغانى «الرد على الدهريين» فقد جاء بصفحة العنوان مايلي:

«رسالة ترجمها من اللغة الفارسية إلى اللغة العربية محمد عبده بمساعدة عارف أفندى أبى تراب الأفغانى»^(٢).

وإذا كانت دعوة الشيخ محمد عبده الإصلاحية تمثلت فى أهداف ثلاثة هى: التجديد فى الدين، والإصلاح اللغوى، والإصلاح السياسى، فإن هذا الدعوة قد تأثرت فى أبعادها الثلاثة بتعاليم جمال الدين وأفكاره، وإن كان الشيخ محمد عبده قد وجه اهتمامه إلى الناحيتين الدينية واللغوية أكثر من جمال الدين الذى اهتم بالناحية السياسية أكثر وأكثر.

ومن تلامذة الشيخ جمال الدين الشاعر الناصر أديب اسحق الذى كان من أكبر الذين تأثروا بتعاليم شيخه، وقد ولد أديب اسحق فى دمشق ونشأ فى لبنان حيث تعلم العربية والفرنسية، وظهرت موهبته الأدبية فى صغره فتعلق بالشعر ونظم القصائد قبل أن يتجاوز العاشرة من عمره. وقد نزع — بعد أن ترك المدرسة — للاشتغال بفن الكتابة، حيث اشتغل بالصحافة وترجمة المسرحيات عن اللغة الفرنسية.

وسافر أديب سنة ١٨٧١م إلى الاسكندرية واشترك مع سليم النقاش فى التمثيل، وكان نشاطه فى هذا الفن ملحوظاً إذ أمد المسرح بالعديد

(١) عبدالباست محمد حسن: جمال الدين الأفغانى وأثره فى العالم الإسلامى الحديث ص ١٩٨.
(٢) مقال للدكتور محمد السعيد جمال الدين بعنوان: الشيخ محمد عبده والثقافة الفارسية. انظر: جوانب من الصلات الثقافية بين إيران ومصر ص: ٢٨٧.

من الروايات تأليفاً وتعريفاً. ثم سمع بالنشاط الذى ملأ به جمال الدين جو القاهرة، فاتصل به أديب اسحق وحضر كثيراً من دروسه وتلمذ عليه حتى أصبح من خاصة تلامذته، وقد ظهر تأثير جمال الدين الأفغانى على شخصية أديب اسحق فى توجيهه لإصدار صحيفة عربية حيث أصدر جريدة مصر وذلك فى ٣٠ من يوليو ١٨٧٧م ثم جريدة «التجارة» التى كتب فيها كل من الشيخ محمد عبده وإبراهيم اللقانى بتوجيه من الشيخ جمال الدين. كما تأثر أديب اسحق بآراء جمال الدين فى مقاومة الحكم المطلق، ولذلك كانت جريدته من أقوى صحف المعارضة فى عهد اسماعيل. وقد مات فى ريعان الشباب وله من العمر تسعة وعشرون عاماً فبكاه المثقفون جميعاً.

ومن تلاميذ جمال الدين الذين تأثروا بآرائه وأسلوبه السيد عبدالله النديم خطيب الثورة العربية (١٨٤٥-١٨٩٦م) وصاحب جريدة التنكيت والتبكيت التى مزج فيها الجد بالهزل، وكان يرمى من وراء كتابته فيها تأنيب المصريين على ما وصلوا إليه من تخلف وذلك فى أسلوب لاذع ساخر، وقد تأثر فى موقفه الوطنى هذا وكذلك الأدبى بأفكار جمال الدين الأفغانى بعد لقائه به واستماعه إليه، وبعد أن أوجد جمال الدين حركة فكرية ثورية جمعت حوله كل أصحاب اللسان والقلم، فنادوا بأفكاره وسلوكوا مسلكه فى مقاومة الفساد والطغيان ومحاولة تنبيه الأمة إلى الأخطار المحدقة بهم، وضرورة التخلّى عن السلبية التى تودى باستقلال بلادهم، وبالأمن والأمان فى أوطانهم، ومما قيل فى حقه: «إن الله قيض للخاصة أمثال جمال الدين والشيخ محمد عبده القدرة على التعبير عن معانى الحرية والديمقراطية؛ وكان العامة فى مصر

فى حاجة إلى من ىشرح لهم هذه المعانى الجديدة عليهم كل الجدة فقام السيد عبدالله النديم بهذا العمل»^(١).

ولم يكن كل تلاميذ جمال الدين الأفغانى من مصر أو المغرب الذين وفدوا إلى مصر واستقروا بها، بل هناك تلاميذ تأثروا بأرائه الإصلاحية دون أن يلتقوا به ومنهم على سبيل المثال السيد عبدالرحمن الكواكبى الذى نشأ وتعلم فى حلب، والسيد محمد رشيد رضا الذى نشأ بطرابلس الشام والسيد يعقوب بن صنوع المعروف باسم «أبو نظارة» والذى تقلب بين التمثيل والصحافة متأثراً بفكر جمال الدين وتشجيعه له، وعلى الرغم من انتسابه لأبوين يهوديين إلا أنه أسلم وكان متحمساً لإسلامه، ومدافعاً عن مبادئه، وقد أفاد فى ثقافته من حفظه للكتب السماوية الثلاثة التوراة والإنجيل والقرآن، ومما قاله فى ذلك:

«كان مكتوباً على أن أعيش لأودى رسالة مقدسة ألا وهى مكافحة الأباطيل التى تفرق بين المسلمين والمسيحيين، بإظهار سماحة القرآن وحكمة الإنجيل، وهكذا تتسنى لى الملاءمة بين قلوب الفريقين»^(٢).

هؤلاء وغيرهم كثيرون تأثروا بفكر جمال الدين وآرائه الثورية، وكانوا تلاميذ نجباء لدعواته الإصلاحية. وواصلوا المسيرة من بعده، وعلموا غيرهم بمبادئه، فكانت حركة ثقافية ممتدة فى ربوع العالمين العربى والإسلامى فجرها جمال الدين الأفغانى، وتابعه فيها تلميذه الأول والأعجب الشيخ محمد عبده. ومازال أثرها فى الثقافة العربية والإسلامية مشهوداً، ولو أحصينا عدد الكتب التى كتبت عنهما فى جميع الأقطار العربية والإسلامية لوجدنا أنها تكون مكتبة ثقافية ضخمة بعد أن كونت تياراً عماده الحرية وأساسه الحجة السليمة والفكر المستنير، ومازال هذا

(١) عبداللطيف حمزة: أدب المقالة الصحفية، جـ ٢، ص ١٢٢.

(٢) نقلاً عن: عبدالباسط محمدحسن: جمال الدين الأفغانى، ص ٢١٢.

التيار الثقافي يحدث أثره في بناء الثقافة العربية حتى الآن بل تخطاها إلى الثقافات الإسلامية الأخرى وبخاصة الفارسية والتركية والأردية.

وهكذا أوجد جمال الدين الأفغاني المعلم الثائر وتلاميذه النجباء تيارا فكريا وثقافيا لا يمكن تجاهله ونحن نتحدث عن العلاقات الثقافية بين العرب وإيران. وكم نحن في حاجة لأمثال جمال الدين الأفغاني لكي يرتقوا مرة أخرى بثقافة العرب والفرس إلى المكان اللائق بهما في تاريخ البشرية. ومادونا نتحدث عن جمال الدين وتلاميذه الذين دعوا إلى التحديث والتنوير والتجديد، فلننتقل إلى التجديد في الثقافتين العربية والفارسية.

(٣) التجديد في الثقافتين العربية والفارسية:

بدأت رياح الدعوة إلى التجديد تهب على الشرق الأوسط مع الحملة الفرنسية على مصر، وما أحاط بها من شعور بالتخلف في السلاح والنظم العسكرية، وما تبع مجيء الفرنسيين من وجود طباعة حديثة وإصدار مجلة ودراسة للآثار وغير ذلك من الأمور الجديدة على المنطقة مما دعا العديد من أصحاب الفكر والرأي لرفع أصواتهم بضرورة الأخذ بأسباب التقدم والمدنية الحديثة ومحاولة السير على خطى فرنسا والغرب في هذا المضمار مع الحفاظ على الهوية الشرقية والتقاليد الإسلامية، ثم جاء محمد علي وابنه إبراهيم وأحدثا نوعا من التجديد وبخاصة في مجال التعليم كإنشاء مدرسة الألسن وبعض المدارس الحديثة عسكرية أو مدنية، وإصدار أول جريدة مصرية وهي الوقائع المصرية التي تعد أول جريدة رسمية في الشرق كله، وما تبع ذلك من محاولات

للسير قدما فى مجال التجديد والتطوير تمثلت فى دعوة كل من جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده للتطوير والتحديث والبعد عن الجمود فى القوالب والمضامين. وقد ساعد على نجاح هذه الدعوات سفر العديد من أبناء الأسر الكبيرة إلى أوروبا وبخاصة إلى فرنسا، حيث اطلعوا على أسلوب حياة جديدة متغير عما ألفوه فى شرقهم العربى الإسلامى، كما اطلعوا على أنماط جديدة من الثقافة الأوربية وبخاصة الفرنسية منها. وبعد عودتهم إلى أوطانهم بدأوا الدعوة للتغيير والتجديد. ومن العوامل التى ساعدت على ذلك بدء انتشار الصحافة السياسية والأدبية. وكيف كانت هذه الصحافة وسيلة لنشر الأفكار فى أوسع نطاق، حيث كان الأديب شاعراً كان أو كاتباً يكتب من قبل للبلاط والقصور، ومع وجود الصحافة بدأ الكاتب يكتب لعامة القراء، ومادام المتلقى قد تغير فلا بد وأن يتغير المضمون، وعلى هذا فبدأ الشاعر أو الكاتب يعنى بهموم الشعب وآلامه، ويعبر عن أحاسيس الطبقات الكادحة والظلم الاجتماعى والفرقة الطبقيّة.

نتيجة للقرب الجغرافى بين مصر والشام من جهة وأوروبا من جهة أخرى، فإن أثر هذا التحديث والتجديد قد وصل إليهما قبل أن يواصل مسيرته إلى غيرهما من بلدان الشرق الإسلامى مثل العراق وإيران. بل إن هذه الحركة التمهيدية التى قادتها مصر بعلمائها وبالنابهين من البلدان العربية الذين وفدوا إليها، وبخاصة من الشام ولبنان. وجعلت من مصر منارة للشرق كله وبدأ دعاة التجديد والتحديث فى العالم الإسلامى يفقدون إليها للاطلاع على صحافتها ودور الطباعة فيها وبخاصة مطبعة بولاق، وما أكثر الذين وفدوا إلى مصر من إيران ليطلعوا على الحركة الثقافية بها وما أصابها من تجديد وتحديث، وأذكر على سبيل المثال لا الحصر حاجى زين العابدين المراغى صاحب سياحت نامه، واعتصام الملك والد الشاعرة الشهيرة پروين اعتصامى الذى ترجم البؤساء عن

الفرنسية وترجم كتابي قاسم أمين تحرير المرأة والمرأة الجديدة إلى الفارسية بمجرد صدورهما بالقاهرة^(١). ولعل جو الحرية النسبية التي كانت تتمتع به مصر في ذلك الوقت مقارنة بما كانت عليه الأحوال في إيران قد شجعت هؤلاء وغيرهم على السفر إلى مصر والكتابة فيها، بل وإصدار الصحف الفارسية في القاهرة، كما سأذكر فيما بعد.

وإذا كنا قد ذكرنا إنشاء محمد علي لمدرسة الألسن بعد اقتناعه بمطالب رفاعة الطهطاوى في هذا الشأن، وما قامت به هذه المدرسة الحديثة من الاهتمام بتدريس العلوم الحديثة كالطب والنظم العسكرية والرياضيات، وكذلك الاهتمام بتعليم اللغات الأجنبية واستقدام الأساتذة الأجانب للمشاركة في التدريس بها، فإن هذه المدرسة قد أحدثت ثورة تعليمية ونهضة ثقافية لا في مصر وحدها بل في الشرق العربى كله، وقد ذاع صيتها، حتى ظهر في إيران أحد دعاة الإصلاح وهو أمير كبير الذى تولى الوزارة لناصر الدين شاه. وأخذ يحثه على إنشاء معهد علمى يقوم بنفس المهمة التى تقوم بها مدرسة الألسن، وتحت الإلحاح والضغط وافق ناصر الدين شاه على إنشاء «دار الفنون» ووضع حجر الأساس لإنشائها عام ١٨٥١م، ولكن لم يحضر أمير كبير هذه المناسبة حيث سبق عزله ثم قتل بعد وضع حجر الأساس بأسبوع واحد، لأن ناصر الدين شاه خاف على سلطانه من التفاف الناس حول هذا الوزير المصلح. وقد قامت دار الفنون بنفس المهام التى قامت بها مدرسة الألسن فى مصر من تعليم

(١) أشير إلى هذه الترجمة بعد قليل.

حديث ولغات جديدة وترجمة لأمهمات الكتب الأوربية، وإنشاء جيل من المترجمين^(١).

ولاشك أن مدرسة الألسن في مصر ونظيرتها دار الفنون في إيران قد قدمت خدمات جليلة للثقافة هنا وهناك، وتركنا بصماتهما واضحة على مسار الثقافتين العربية والفارسية طوال النصف الثاني من القرن التاسع عشر وما بعده.

ونتيجة لدعوة التجديد هنا وهناك، فإن الأنماط الأدبية الجديدة قد بدأت تظهر على سطح المسرح الثقافي في فترات متقاربة، ومن هذه الألوان التأليف المسرحي على النمط الأوربي، فقد بدأ المسرح العربي معتمدا على الترجمة وبخاصة عن الفرنسية وأهم هذه الأعمال المترجمة كانت مسرحيات موليير، كما أن المسرح الإيراني الحديث قد بدأ معتمدا على هذه الترجمات من الفرنسية أيضا، ثم تقدم المسرح العربي والإيراني وبدأ كل منهما موجة من التأليف تحت تأثير المسرح الفرنسي أسلوبا، حتى ولو بدت وأنها تعرض مشكلات محلية في المسرحيات المؤلفة. ولاننسى في هذا الدور مجهودات محمد عثمان جلال، ثم الدور العظيم الذي قام به أمير الشعراء أحمد شوقي بعد ذلك، وفي إيران قام بنفس الدور محمود وحسن مقدم ثم تبعهما العديد من كتاب المسرح الذين وظفوا بعض القصص الإيرانية التاريخية في بناء مسرحياتهم الحديثة.

وعلى نفس النمط الذي سارت عليه الكتابة للمسرح في العالم العربي وإيران، سارت الرواية العربية تقليدا وترجمة ثم تأليفا، وسواء أكانت روايات تاريخية أو اجتماعية، وقد قام عثمان جلال بدور رائد في

(١) لمعرفة المزيد عن «دار الفنون» ومكانتها في تجديد الفكر والثقافة في إيران يرجى الرجوع إلى: يحيى آرين پور: از صبا تا نايما ج ١ ص ٢٥٢ - ٢٨٦. تهران ١٣٥١ هـ ش.

هذا المجال، وقد سبقه إلى ذلك كل من رفاة الطهطاوى وعلى مبارك، ثم جاء دور جورجى زيدان الذى استلهم من التاريخ فيما كتب من روايات أحدثت تأثيرا كبيرا فى تقدم فن الرواية التاريخية فى العالم العربى. وقد ترجمت معظم هذه الروايات التى كتبها جورجى زيدان إلى اللغة الفارسية وأدت إلى أن عددا كبيرا من كتابهم قد استلهم التاريخ فى كتابة الرواية فى إيران، لانسى فى هذا المجال كلا من خسروى وصنعنى زاده ودولت آبادى وغيرهم، ثم تطور فن الرواية فى العالم العربى وإيران وكثر الكتاب وتنوع الأغراض والأنماط هنا وهناك بعد ذلك.

وما يقال عن القصة والرواية يقال عن القصة القصيرة، وما أحدثه محمود تيمور فى هذا المضمار ومن جاءوا بعده حتى جيل يوسف إدريس، كل هذا واكب ظهور القصة القصيرة فى إيران وظهور أعلام فى هذا المجال أمثال جمال زاده وصادق هدايت وغيرهما.

وإذا كانت دعوة التجديد والتحديث قد وصلت إلى النشر وانتجت لنا أنماطا أدبية جديدة فى كل من العالم العربى وإيران سواء فى عالم القصة أو المسرح أو المقال الصحفى وغير ذلك، فإن دعوة التجديد قد وصلت إلى عالم الشعر. وبدأ جيل جديد هنا وهناك فى وقت متزامن تقريبا يدعو إلى الخروج من قوالب القصائد إلى ما يعرف باسم الشعر الحر أو الشعر الحديث وإذا كنا نعد صلاح عبدالصبور من زعماء هذه المدرسة الجديدة، فيقابله فى الأدب الفارسى الشاعر نيمى يوشيج الذى نظم العديد من المسرحيات والدواوين وأصبح شعره مثالا يحتذى بعد ذلك.

هذا التزامن فى التجديد والتطوير، لا يمكن أن يحدث إلا إذا كان المسرح الثقافى هنا وهناك على صلة، وما يحدث هنا نجد صداه هناك، ربما يكون السبق أحيانا لمصر والشام، ولكن لايمضى وقت طويل إلا ونجد صدئ هذا التغيير موجودا فى إيران. ولعل البعض يعجب أن قلنا بأن الصلات الثقافية بين الكتاب والمثقفين العرب والإيرانيين كانت

خلال القرن الماضي وأوائل القرن الحالي أقوى بكثير مما هي عليه الآن. فلم يكن يصدر كتاب في مصر أو الشام أو العراق، إلا وتجده في نفس العام متداولاً في إيران، كما كان المثقفون في مصر وأصحاب القصور حريصين على أن تضم مكتباتهم الخاصة نسخاً من الدواوين الفارسية وبخاصة ديوانى حافظ الشيرازى وسعدى وكذلك شاهنامه الفردوسى. ومن يزور دار الكتب المصرية ويطلع على المكتبة الشرقية بها يدرك أنه اقد جمعت من قصور الأمراء والأثرياء فى ذلك الوقت.

(٤) حركة الترجمة والتأليف:

إذا كانت حركة الترجمة قد نشطت منذ القرون الإسلامية الأولى بين الكتب العربية والفارسية؛ فإن هذه الحركة لم تتوقف فى العصر الحديث. فمن يسافر إلى إيران ويتفقد مكتباتها العامة والخاصة يجد كما هائلاً من الكتب العربية معروضة للبيع أو للقراءة، كما ستجد كما هائلاً آخر من الكتب العربية قد ترجم إلى اللغة الفارسية فى جميع المجالات العلمية الأدبية، ولا تنحصر تلك الكتب - كما يقول أحد الإيرانيين وهو الدكتور مرتضى آيت الله زاده الشيرازى بجامعة طهران - فى مجال واحد، بل تشمل الأدب والتاريخ والحضارة والعلوم الإسلامية والتربوية ومعاجم اللغة وكذلك الكتب التى ألفها المستشرقون وترجمها الأساندة المصريون والعرب، ولا يقتصر المعروض من الكتب العربية على الكتب وحدها بل تعداها إلى المجالات والصحف مثل مجلة الأزهر، ورسالة الإسلام ومنبر الإسلام وآخر ساعة والمصور وصباح الخير وروز اليوسف والأهرام والأخبار^(١).

(١) راجع مقالة: د. مرتضى آيت الله زاده الشيرازى: جولة حول الروابط المعنوية بين إيران ومصر والكتاب المصرى فى إيران، ضمن كتاب جوانب من الصلات الثقافية بين إيران ومصر: ص ١٦٩-١٧٩. القاهرة ١٩٧٨م.

ويواصل الحديث فيقول:

وعن تلك الصحف تترجم المقالات المختلفة في المجالات المتعددة وتصدر بها أحيانا ملاحق لصحيفتى اطلاعات وكيهان وهما من أكبر الصحف الإيرانية. كما تروج في ايران اسطوانات وشرائط للقرآن الكريم بأصوات كبار المقرئين المصريين وهى تذاع بالإذاعة، وأحيانا تذاع فى المحلات الخاصة تراتيل للشيخ عبدالباسط والشيخ مصطفى اسماعيل والمنشأوى وغيرهم.. ويهتم الشعب الإيرانى بالاستماع إلى الموسيقى والأغاني المصرية ويشاهد ذلك فى كثير من البيوت الإيرانية^(١).

ومصادقا لما قال، فقد لاحظت كل ذلك أثناء زيارتى لإيران عامى ١٩٧٣، ١٩٧٥م، وكثير من بيوت الأصدقاء الإيرانيين الذين استضافونا، كانت زاخرة بتسجيلات أم كلثوم وعبد الوهاب وفريد الأطرش. كما كانت بعض دور السينما فى طهران تعرض أفلاما مصرية.

أما عن الكتب العربية التى ترجمت إلى الفارسية، فهى أكثر من أن تعد أو تحصى، لذا سأكتفى بذكر النثر اليسير منها على سبيل المثال فقط؛ وسأذكر الكتب مرتبة حسب أبجدية أسماء مؤلفيها:

اسم المؤلف العربى	اسم الكتاب	اسم المترجم الإيرانى
أحمد أمين	فجر الإسلام، ضحى الإسلام	عباس خليلى
أحمد زكى	مع الله فى السماء	ذبيح الله منصورى
توفيق الحكيم	أهل الكهف	أبو الفضل طباطبائى
توفيق الطويل	قصة النزاع بين الدين والفلسفة	محمد على خليلى

(١) المرجع السابق ونفس الصفحات.

خالد محمد خالد	أبناء الرسول في كربلاء	حسين فرامرزی
زكى محمد حسن	التصوير فى الإسلام عند الفرس	أبو القاسم نفرشى
زكى محمد حسن	الفنون الإيرانية	محمد على خليل
زكى محمد حسن	الفن الإسلامى وأثره فى أوروبا	شريعتى
زكى عبدالمتعال	أصول علم المالية والتشريع المالى المصرى	فرامرزی
سيد قطب	مختارات ملتقطه من تأليفات السيد	محمد شيرازى
سيد قطب	مشاهد القيامة فى القرآن	غلا مرضا حسینی
سيد قطب	مشكلات الحضارة	چمنى كرماني
سيد قطب	فى ظلال القرآن	احمد آدم
سيد قطب	العدالة الاجتماعية فى الإسلام	خسرو شامى
طه حسين	الأيام	ابو الفضل طباطبائى
طه حسين	الأيام (ترجمة ثانية)	حسين خديو جم
طه حسين	أحلام شهر زاد	محمد على خليلى
طه حسين	على هامش السيرة	بدر الدين كتابى
طه حسين	الوعد الحق	احمد آوام
عائشة عبدالرحمن	آمنة بنت وهب أم الرسول	حسينى آزاد
عائشة عبدالرحمن	نساء النبى	محمد على خليلى
عباس محمود العقاد	عبقريه محمد	محمد على خليلى
عباس محمود العقاد	عبقريه الامام	جعفر غصنان
عباس محمود العقاد	أبو الشهداء	كاظم صبرى
عباس محمود العقاد	الإنسان فى القرآن	خليليان
قاسم أمين	تحرير المرأة	يوسف اعتصام الملك
قاسم أمين	المرأة الجديدة	يوسف اعتصام الملك
محمد حسين هيكل	حياة محمد	ابو القاسم بانيده
محمد رشيد رضا	تفسير الفاتحة	عباس راسخى

محمد رشيد رضا	الوحي المحمدي	محمد علي خليلي
محمد الغزالي	الإسلام وحقوق الإنسان	مصطفى زماني
محمد الغزالي	الاستعمار أحقاد وأطماع	باقر موسى
محمود شلتوت	من توجهات الإسلام	عابدي
محمود شلتوت	الإسلام عقيدة وجهاد	خليلان
مصطفى صادق الرافعي	اعجاز القرآن	ابن الدين
مصطفى لطفى المنفلوطي	النظرات	محمد باقر سنكلجي
مصطفى لطفى المنفلوطي	العبرات	ميرزا باقر منطقي

هذه قائمة مختصرة لما ترجم من كتب عربية إلى اللغة الفارسية^(١)، ولاشك أن ما ترجم خلال الفترة التي نتناولها بالحديث في هذا المقال تتعدى المئات بل الآلاف من الكتب. وقد كانت بعض هذه الكتب تترجم فور صدورها أو في العام التالي مباشرة، وخير دليل على ذلك ما قام به الأديب الإيراني الكبير يوسف اعتصام الملك والد شاعرة إيران الشهيرة پروين اعتصامي، حيث أقدم على ترجمة كتابي قاسم أمين في العام التالي لصدور كل منهما؛ فقد نشر قاسم أمين كتابه الأول تحرير المرأة بالقاهرة عام ١٨٩٩م، فأقدم اعتصام الملك على ترجمته ونشره في تبريز عام ١٩٠٠م بعنوان «تربيت نسوان» ثم نشر قاسم أمين كتابه الثاني «المرأة الجديدة» عام ١٩٠٠م بالقاهرة، فترجمه اعتصام الملك ونشره في إيران عام ١٩٠١م^(٢).

وفي الجانب الآخر نجد كثرة هائلة من دواوين الشعراء الفرس والكتب الفارسية قد ترجمت إلى اللغة العربية سواء في مصر أو العراق أو

(١) لمعرفة المزيد من الكتب العربية المترجمة يرجع للمرجع السابق.

(٢) بدیع محمد جمعه: دراسات في الأدب المقارن ص ٣٥٧ وما بعدها، الطبعة الثانية بيروت: ١٩٨٠.

الشام حتى أن مؤلفا واحدا وهو رباعيات الخيام قد ترجم عدة ترجمات عربية في العراق ولبنان ومصر ترجمها الزهاوى والبستاني وأحمد رامى وغيرهم كثيرون. وكما أوردنا قائمة بأهم الكتب العربية المترجمة إلى الفارسية، فسنورد قائمة أخرى بأهم الكتب الفارسية التي ترجمت إلى اللغة العربية مرتبة بأبجدية أسماء المؤلفين:

اسم المؤلف الإيراني	اسم الكتاب	اسم المترجم العربى
احسان يار شاطر	الأساطير الإيرانية القديمة	محمد صادق نشأت
البهقى	تاريخ البهقى	يحيى الخشاب/ صادق نشأت
پرویز نائل خانلری	أوزان الشعر الفارسى	محمد نورالدين عبدالمنعم
جلال الدين الرومى	المثنوى ج ١، ٢	محمد عبدالسلام كفافى (١)
حافظ الشيرازى	الغزليات	إبراهيم أمين الشواربى
حميد الدين الملىخى	مقدمات حميدى	طلعت أبو فرحة
خسرو الدهلوى	خسرو وشيرين	عبدالعزیز بقوش
خواند مير	دستور الوزراء	محمد حربى أمين
الراوندى	راحة الصدور وآية السرور	ابراهيم أمين الشواربى وآخرون
رشيد الدين فضل الله	جامع التواريخ	يحيى الخشاب/ فؤاد الصياد
رشيد الدين الوطواط	حدائق السحر فى دقائق الشعر	إبراهيم أمين الشواربى
سعدى الشيرازى	كلستان	جبايل بن يوسف
سعدى الشيرازى	كلستان	محمد موسى هنداوى
سعدى الشيرازى	بوستان	محمد موسى هنداوى
سنائى الغزنوى	حديقة الحقيقة وشريعة الطريقة	إبراهيم الدسوقى شتا
شرفخان البدلىسى	شرفنامه	محمد على عونى
عارف القزوينى	الديوان	عباس عبدالحى
عبدالرحمن الجامى	ليلى ومجنون	محمد غنيمى هلال
عبدالرحمن الجامى	نفحات الأنس	أحمد كمال الدين حلمى

(١) قام الدكتور ابراهيم شتا بترجمة الأجزاء الستة ونشرت عن طريق المجلس الأعلى للثقافة عام ١٩٩٨.

اسم المؤلف الإيراني	اسم الكتاب	اسم المترجم العربى
عبدالله الأنصارى	مناجات نامہ	سعید الباجورى
فرخى السیستانی	الديوان	عفاف زیدان
فرخى الیزدى	الديوان	أحمد الخولى
الفردوسى الطوسى	الشاهنامه	الفتح بن على البندارى، تصحیح وتعلیق وتقديم عبدالوهاب عزام
فريد الدين العطار	پندنامہ	أحمد راشد الأنصارى
فريد الدين العطار	الهي نامہ	ملكة على التركى
فريد الدين العطار	مصیبت نامہ	محمد یونس
فريد الدين العطار	منطق الطير	بدیع محمد جمعة
محمد اقبال	جاوید نامہ	محمد السعيد جمال الدين
محمد بن جعفر النرشحى	تاریخ بخارى	أمين عبد المجيد/نصر الله الطرزى
محمد بن المنور	اسرار التوحيد فى مقامات الشيخ أبى سعيد	اسعاد قنديل
ناصر خسرو	جامع الحكميتين	إبراهيم شتا
ناصر خسرو	زاد المسافرين	السباعى محمد السباعى
نظام الملك	سياست نامہ	السيد محمد العزاوى
نظامى عروضى	چهار مقاله	عبدالوهاب عزام وآخرون
نصير الدين الطوسى	أخلاق ناصرى	شعبان طرطور
الهجورى	كشف المحجوب	اسعاد قنديل
وحشى البافقى	الديوان	أحمد الخولى

لا شك أن ترجمة هذا الكم الهائل من الكتب، فيما بين اللغتين لخير دليل على اهتمام أهل اللغتين، كل طرف منهما بثقافة الطرف الآخر، وأن حركة الترجمة التى كانت رائجة فى القرون الهجرية الأولى لم تتوقف وإنما تواصل مسيرتها وستظل تحتل مكانتها كوسيلة من وسائل الاتصال والتواصل بين الشعبين العربى والإيرانى، وأنه مهما كانت أنظار الكثيرين هنا وهناك قد اتجهت إلى الآداب الأوربية والثقافة الغربية،

فمازال هناك من هم حريصون على صلات الشرق بالشرق، حريصون على عمق العلاقات الثقافية بين أقطار العالم الإسلامى الناطقة بالعربية أو بغيرها من اللغات الإسلامية وعلى رأسها الفارسية والتركية والأوردية.

ونتيجة لإيمان الجامعات المصرية بأهمية الترجمة فى التقارب الثقافى بين العالم العربى وإيران، فقد دأبت على أن تكون جميع الرسائل العلمية لنيل درجة الماجستير فى اللغة الفارسية معنية فى المقام الأول بترجمة متن فارسى إلى اللغة العربية، ثم يعقب الترجمة دراسة لهذا المتن، مع التعريف بصاحب المتن وبمكانته فى مضمار الثقافة الفارسية وحدها، أو مضمار الثقافتين العربية والفارسية إن كان من أصحاب اللسانين، وذلك عملاً على تدعيم الأواصر الثقافية بين العرب وإيران. وقد أجزى بقسم اللغة الفارسية بكلية الآداب جامعة عين شمس وحدها ما يزيد على المائة رسالة للماجستير، كلها تتضمن ترجمات لمتون فارسية أصيلة سواء أكانت هذه المتون تراثية أم أدبية حديثة ومعاصرة، وعلى نفس المنوال درجت أقسام اللغة الفارسية بجامعة القاهرة والأزهر والاسكندرية. وقد طبعت بعض هذه الترجمات ولاقت شهرة كبيرة وبعضها الآخر مازال يبحث عن فرصة للنشر.

وإذا كنا نتحدث عن الطباعة والنشر، فلا بد وأن نذكر أن مطبعة بولاق العربية قد اهتمت بنشر الكتاب الفارسى قبل أن تعرف إيران الطباعة الحديثة لذا كان بعض المؤلفين الإيرانيين يقصدون مصر لطبع مؤلفاتهم وذلك خلال القرن الماضى، وأول كتاب فارسى محفوظ بدار الكتب ومطبوع فى مصر هو كتاب تحفة وهبى - فى تعليم اللغة الفارسية - وقد تم طبعة سنة ١٢٤٣ هـ، ثم تلاه طبع العديد من الكتب، أذكر منها على سبيل المثال تلك الكتب:

- ١ - پند عطار وقد طبع عدة مرات خلال الأعوام ١٢٥٣هـ، ١٢٦٢هـ، ١٢٨٠هـ، ١٢٩١هـ، مع ترجمة عربية لأحمد راشد المصري .
- ٢ - كلستان سعدى : ١٢٦١هـ .
- ٣ - تعليم فارسي لمحمد راشد ١٢٦٦هـ .
- ٤ - ديوان حافظ الشيرازي ١٢٨١هـ .
- ٥ - تاريخ عبد الكريم بخاري ١٢٩٠هـ .
- ٦ - زبدة الحقائق لعبد العزيز محمد النسيفي ١٢٩١هـ .
- ٧ - سفار تنامه خوارزم لميرزا رضا قلي لالاباشي ١٢٩٢ هـ .
- ٨ - سفر نامه مازندران واسترabad ١٢٩٤ هـ^(١) .

ولم تقتصر حركة طبع الكتاب الفارسي في مصر على الكتاب وحده، بل طبعت بعض الصحف الفارسية في مصر ونشرت فيها، وكانت ترسل أعدادها الى ايران وغيرها من البلدان التي بها قراء للفرسية. ومن هذه الصحف الإيرانية المطبوعة في مصر أذكر على سبيل المثال أيضاً:

- ١ - حكمت: صدر العدد الأول منها عام ١٣١٠هـ وكانت تصدر مرة كل عشر أيام، وقد أشرف على إصدارها «مهدى تبريزي» وقد ظلت تصدر لمدة خمس عشرة سنة أو يزيد، وذلك في ثمانى صفحات تشمل أحاديث في السياسة والعلوم والطب والاختراعات والصناعة والأدب^(٢) .

(١) لمعرفة المزيد عن الكتب الفارسية المطبوعة في مصر، نرجو الرجوع إلى: نصر الله مبشر الطرازي: الكتاب الإيراني في مصر، مقال بكتاب: جوانب من الصلات الثقافية بين ايران ومصر ص ١٣٩ - ١٤١ .

(٢) جهانكير صلح جو: تاريخ مطبوعات ايران وجهان، ص ١٨٣ - ١٨٥ الطبعة الأولى طهران ١٣٤٨ هـ.ش.

٢ - ثريسا: صدر العدد الأول منها يوم السبت الرابع عشر من جمادى الآخرة عام ١٣١٦ هـ الموافق ٢٩ من أكتوبر ١٨٩٨ م. وكان العدد منها يقع فى ست عشرة صفحة تشمل أخبار مصر والعالم والمقالات السياسية والعلوم والفنون والصناعة والأدب والتجارة. وقد تولى إدارتها فى البداية ميرزا محمد خان الكاشانى الذى ترك إدارتها بعد ذلك للسيد فرج الله الكاشانى حيث فقدت رونقها على يديه^(١).

٣ - پرورش: صدر عددها الأول يوم الجمعة العاشر من صفر عام ١٣١٨ هـ الموافق ٨ من يونيو ١٨٩٠ م. وقد تولى إدارتها ميرزا محمد على خان كاشانى بعد أن ترك رئاسة الصحيفة السابقة^(٢).

ولاشك أن إصدار هذه الصحف فى مصر - المركز الثقافى العربى والإسلامى الأول فى ذلك الوقت - يعكس عمق الصلات الثقافية بين العالم العربى وإيران فى أواخر القرن الماضى وأوائل القرن الحالى، ويثبت أن الفارسية كان لها قراؤها فى مصر والعالم العربى حتى قبل أن يتم إنشاء الأقسام المتخصصة لدراسة اللغة الفارسية فى الجامعات العربية.

* * *

وإذا تركنا الترجمة والكتب والصحافة الفارسية التى طبعت فى العالم العربى وانتقلنا إلى التأليف عن الموضوعات الفارسية فى عالمنا العربى، وعن الموضوعات العربية فى إيران. فإننا سنجد كما هائلا يفوق بكثير ما نرجم عن اللغتين، وقد شملت هذه المؤلفات شتى العلوم والمعارف من أداب واقتصاد وسياسة وعلوم طبية وهندسية وكيميائية وغيرها، ويكفى

(١) المرجع السابق، ص ١٧٦ - ١٧٩.

(٢) نفس المرجع، ص ١٦٨ - ١٧٠.

القول بأن جميع رجال الدين في إيران يعرفون اللغة العربية معرفة أبنائها العرب بها، وأن عدد مؤلفاتهم بالعربية قد يفوق عدد مؤلفاتهم بالفارسية نفسها، أضيف إلى هؤلاء أولئك الأساتذة الذين عاشوا فترة من حياتهم في العالم العربي. وألفوا بالعربية أمثال الدكتور محمد محمدى صاحب كتاب «الأدب الفارسي في أهم أدواره وأشهر أعلامه» وقد طبع بيروت عام ١٩٦٧م، كما أن جميع الجامعات الإيرانية تضم أقساماً للغة العربية وآدابها، ولا بد أن يعنى العاملون بهذه الأقسام بالدراسات المتعلقة بمجال تخصصاتهم من لغة وأدب ومقارنات، ويأتى على رأس هؤلاء المتخصصين الإيرانيين الأستاذ الكبير مهدى محقق الذى رأس قسم اللغة العربية بجامعة طهران وجامعة ماكجيل بكندا، والذى يحفظ عيون الشعر العربى عن ظهر قلب. وقد زار مصر مرات عديدة، وله علاقات وطيدة بعدد كبير من العلماء والمتخصصين فى الجامعات العربية الشهيرة.

ولا يقتصر الأمر على أساتذة أقسام اللغة العربية، أو أساتذة الكليات الدينية فى إيران، بل يتعداها إلى أقسام أخرى بالجامعات الإيرانية تعنى بكل ما هو عربى كأقسام الفلسفة والتاريخ والاقتصاد والعلوم السياسية، بل يصل الأمر إلى عدد كبير من الصحفيين الذى كتبوا كثيراً عن العالم العربى فى صحفهم اليومية ومجلاتهم الأسبوعية أو الشهرية أو الفصلية. ومن هذه الصحف المعنية بشئون العالم العربى أذكر الصحفيتين العريقتين اطلاعات وكيهان إلى جانب صحيفة «الاخاء» التى كانت تصدر بالعربية أيام حكم الشاه محمد رضا.

وإذا انتقلنا إلى الجانب العربى لنرى مدى الاهتمام بالتأليف عن إيران وحضارتها باللغة العربية فسنجد كما هائلاً من الكتب التى ألفها نخبة عظيمة من المؤلفين والكتاب العرب وبخاصة فى مصر والعراق

لوجود مراكز متخصصة لدراسة اللغة الفارسية وآدابها في كل منهما، ولعمق الصلات الثقافية بين هذين المركزين العربيين وإيران عبر التاريخ، ونتيجة للجوار المشترك في الحدود بين إيران والعراق. وإذا أردنا أن نحصى هذه المؤلفات العربية التي ألّفت عن إيران حضارة وشعباً، فلن نستطيع لكثرتها الهائلة ولتنوع مواضيعها، لذا سنكتفى بإشارة موجزة إلى مجهودات بعض الأساتذة الأوائل الذين شاركوا في هذا المجال تأليفاً دون الحديث عما قاموا به من ترجمات عن الفارسية سبق الإشارة إلى بعضها.

أول هؤلاء الأساتذة أستاذنا المرحوم الدكتور عبد الوهاب عزام ومن أهم مؤلفاته: مدخل الشاهنامة العربية للبنداري، وهي المقدمة التي كتبها للترجمة العربية للشاهنامة والتي قام بها البنداري، وقد سبق الإشارة إليها أكثر من مرة، ومن مؤلفاته أيضاً «اللغة الفارسية في الهند» وكتابه الشهير التصوف وفريد الدين العطار.

ومن الرواد أيضاً أستاذنا المرحوم «حامد عبد القادر» ومن أعماله «القصص الحيوانية» وكتاب «كليله ودمنه في الآداب الشرقية والعربية»، وكتاب «زرادشت الحكيم»، وكتاب «القطوف واللباب» الذي ضمنه منتخبات من النثر الفارسي وشعره، وكذلك منتخبات من كتاب «لباب الألباب» لمحمد عوفى، ومن كتبه كذلك «قصة الأدب الفارسي» وغير ذلك من الكتب والأبحاث والمقالات.

ثم يأتي دور أستاذنا الكبير المرحوم الدكتور إبراهيم أمين الشواربي مؤسس قسم اللغات الشرقية بكلية الآداب جامعة عين شمس، ومن مؤلفاته حافظ الشيرازي: شاعر الغناء والغزل في إيران، وبحث بعنوان، مصادر فارسية في التاريخ الإسلامي، وبحث آخر بعنوان: نشأة الشعر

الفارسي الإسلامي ومن أهم أعماله وإن كان مترجما عن الإنجليزية - كتابه: تاريخ الأدب في إيران الذي ألفه المستشرق الإنجليزي إدوارد جرانفيل بروان، وقد جاءت الترجمة أكمل بكثير من الأصل الإنجليزي، وأفضل وأوفى من الترجمة الفارسية المنشورة في إيران لهذا الكتاب باعتراف الإيرانيين أنفسهم، لأنه أكمل النقص الذي كان بالأصل الإنجليزي، كما صحح بعض الأخطاء التي وقع فيها المؤلف نفسه، وأخيرا كتابه السهل الممتنع القواعد الأساسية لدراسة الفارسية، وهو أول كتاب يوضع بالعربية بإسلوب علمي حديث وتبويب صحيح ونصوص شتى تناسب القواعد المدروسة فضلا عن القيمة الأدبية للنصوص وحسن اختيارها: وهو الكتاب الذي ظل الدارسون للغة الفارسية في مصر يعتمدون عليه وحده فترة طويلة من الزمن^(١).

ومن جيل الأساتذة كذلك أستاذنا المرحوم الدكتور محمد غنيمي هلال وله: «الحياة العاطفية بين العذرية والصوفية» وفيه يعالج الوشائج الأولى بين العربية والفارسية في مجال الحب العذري والعشق الصوفي، وله أيضا «ليلي والمجنون في الأدبين العربي والفارسي» وكتابه «مختارات من الشعر الفارسي».

ومن الأساتذة الذين اهتموا بالثقافة الفارسية وألفوا فيها المرحوم الدكتور محمد موسى هنداي وله كتاب عن بوستان سعدى الشيرازي كما أصدر أول معجم في اللغة الفارسية للطلاب دارسي الفارسية في مصر، وهو معجم يضم حوالي عشرين ألف كلمة ما بين فارسية وعربية استخدمت في الفارسية.

(١) طلعت أبو فرحة: أضواء على الدراسات الفارسية في مصر: مقال بكتاب: جوانب من الصلات الثقافية بين إيران ومصر، ص، ١٩٠.

من جيل الأساتذة الذين أثروا المكتبة العربية بالتأليف عن الثقافة الفارسية المرحوم الأستاذ الدكتور محمد عبدالسلام كفافى وله محاضرات فى الثقافة العربية، تناول فيه العناصر الفارسية التى دخلت فى الثقافة العربية وأثرت فيها، وكذلك كتاب فى الأدب المقارن ناقش فيه بعض الموضوعات المشتركة بين الأدبين العربى والفارسى، إلى جانب ترجمته العربية للجزئين الأول والثانى من المثنوى المعنوى لجلال الدين الرومى، وهما أهم أعماله على الإطلاق.

ثم يأتى دور أستاذنا المرحوم الدكتور يحيى الخشاب الذى وجه كل اهتمامه صوب المجال التاريخى، فشارك فى ترجمة تاريخ البيهقى وسفر نامة لناصر خسرو وتنسّر نامة مع دراسة مستفيضة عن كل كتاب ترجمه، ولم يكتف بالترجمة عن الفارسية، بل ترجم أيضاً عن الفرنسية كتاب إيران فى عهد الساسانيين تأليف المستشرق الفرنسى كريستينسن.

أما عن أستاذنا المرحوم الدكتور أحمد محمود الساداتى، فقد خلف لنا كثيراً من المؤلفات منها: رضا شاه پهلوى أو نهضة إيران الحديثة، وكتاب بابرنامه لظهير الدين محمد بابر دراسة وتعليق، وتاريخ بخارى للمستشرق فامبرى ترجمة ودراسة.

هؤلاء الأساتذة جميعاً قد أدوا أدوارهم مشكورين، ثم رحلوا إلى العالم الآخر مصحوبين بدعاء تلاميذهم بأن تكون الجنة مثواهم. أما عن أساتذتنا الكبار الذين ندعوا لهم بطول البقاء والصحة والعافية فأذكر منهم:

الأستاذ الدكتور طه ندا، وله دراسات فى الشاهنامة والأعياد الفارسية فى العالم الإسلامى، وكتاب الأدب المقارن، وأخيراً فصول فى الحضارة، هو بين الحضارتين العربية والفارسية.

أما دور أستاذنا الكبير الدكتور عبدالنعميم محمد حسنين^(١) فهو دور رائد بكل المقاييس لنشر الثقافة الفارسية في ربوع العالم العربي كله، حيث شارك في هذا المجال بجميع الجامعات المصرية منشئاً لأقسام اللغة الفارسية، ومشرفاً على العديد من أبحاث الماجستير والدكتوراه، كما شارك في التدريس في هذا المجال بجامعة ليبيا والعراق والمملكة العربية السعودية وله تلاميذ عديدون في كل هذه البلاد العربية. ومن أهم مؤلفاته: كتاب «نظامي الكنجوى: شاعر الفضيلة» وكتاب «سلاجقة إيران والعراق» وكتاب «جمال الدين الأسد آبادى» (في جزئين)، وكتاب «قواعد اللغة الفارسية» كما ترجم كتاب إيران ماضيها وحاضرها عن الإنجليزية.

وكذلك أستاذنا الكبير الدكتور فؤاد عبدالمحطى الصياد، صاحب الاهتمام الأكبر بتاريخ المغول وأثرهم في العالم الإسلامى، ومن مؤلفاته كتاب «المغول فى التاريخ» وذلك فى أربعة أجزاء وكتاب مؤرخ المغول الكبير: رشيد الدين فضل الله: وكتاب النوروز وأثره فى الأدب العربى وأخيراً كتاب «القواعد والنصوص الفارسية».

ومن جيل الأساتذة الدكتور حسين مجيب المصرى،^(٢) وله مؤلفات عديدة مقارنة بين اللغات العربية والفارسية والتركية، ومن بينها: «صلوات بين العرب والفرس والترك»، وكتاب رمضان فى شعر العربى والفارسى والتركى وكتاب الصحابى الجليل سلمان الفارسى عند العرب والفرس والترك إلى جانب عدة دواوين من الشعر العربى تلمس فيها الروح الفارسية فى كثير من معانيها وأخيلتها.

(١) توفى أستاذنا الدكتور عبدالنعميم حسنين إلى رحمة الله تعالى بعد كتابة هذا المقال بشهور قليلة. تغمده الله برحمته وأدخله فسيح جناته.

ومن جيل الأساتذة كذلك الأستاذ الدكتور أمين عبدالمجيد^(١) الذى ركز معظم اهتماماته العلمية على القصة فى الأدب الفارسى قديما وبخاصة ما ورد منها فى الشاهنامه وقد كتب إلى جانب التراجم التى قام بها كتاب: «القصة فى الأدب الفارسى» وكتاب «قابوس نامه: تقديم وتحقيق»، كما كتب بالفارسية كتابا عنوانه: بحث درباره قابوس نامه ونشره بالفارسية فى طهران عام ١٩٥٦ م. إلى جانب ترجمته لكتايب سعدى الكلستان والبستان الى اللغة العربية.

هذا هو جيل الأساتذة الرواد الذين فتحوا الطريق أمام أعيننا حتى ننهل من علمهم ومن إرشاداتهم، وقد أوجدوا مدرسة نشطة للغات الشرقية فى العالم العربى، لاتقل مؤلفات تلاميذهم أهمية وتقديرا عن مؤلفات أقرانهم فى إيران نفسها، بل إن بعضهم قد تفوق وبخاصة فى مجال الكتابة عن الأدب الحديث والمعاصر، وذلك بشهادة الإيرانيين أنفسهم فى أكثر من مناسبة، هذا الجيل من الأساتذة الذين يشرفون على هذه الدراسات فى الجامعات المصرية والعربية أكثر من أن يحصى إنتاجهم، وأن تذكر مؤلفاتهم، لأننا نعرف أن عضو هيئة التدريس كى يصل إلى درجة الأستاذية فى جامعته عليه أن يقدم للمكتبة على الأقل سبعة أو ثمانية مؤلفات خلال الترقية إلى أستاذ مساعد (أستاذ مشارك) ثم إلى أستاذ. فإذا كان عدد هؤلاء يصل إلى المائة تقريبا، فعلى الأقل قد ألفوا ما يزيد عن الألف كتاب. إلى جانب ما ألفه المهتمون بهذه الدراسات المتعلقة بالثقافة الفارسية من العاملين بمجالات الأدب واللغة والتاريخ والاقتصاد والصحافة، حيث قدم هؤلاء جميعا العديد من المؤلفات التى يعتد بها، والتى جسدت عمق الصلات الثقافية والفكرية بين الشعبين العربى والإيرانى، ويستطيع أى قارئ أن يراجع دار الكتب المصرية، ويبحث تحت مادة إيران أو مادة فارس أو غيرها من المواد التى

(١) وافته المنية بعد هذا المقال بعدة شهور، نسأل الله له الرحمة والمغفرة.

تشير إلى المنطقة الإيرانية، وهنا سيدرك الكم الهائل من المؤلفات العربية التي ألقت في العالم العربي من مشرقه إلى مغربه عن إيران وحضارتها ورجالها، ونفس الشيء يستطيع أى قارئ إيراني أن يتصفح فهارس مكتبة جامعة طهران وهي الكبرى الآن في إيران ليدرك كم من المؤلفات التي سطرها الإيرانيون عن العالم العربي من الخليج إلى المحيط. وليست هذه الكثرة من المؤلفات هنا وهناك إلا دليلا على شدة الاهتمام المتبادل وعمق الصلات الثقافية بين شعوب المنطقة العربية وشعب إيران.

* * *

(٥) المراكز العلمية والثقافية:

منذ دخل الإسلام أرض إيران، وأقبل الإيرانيون على الإسلام، وأقدموا على قراءة كتاب الله المنزل بالعربية وهو القرآن، أصبح لزاما على الإيرانيين تعلم اللغة العربية ومعرفة أسرارها، حتى يستطيعوا فهم القرآن والسباحة في معانيه وأخيلته ولغته، لدرجة أنهم هجروا لغتهم القديمة طوال قرنين من الزمان، وعندما حاولوا إعادتها من جديد لم يجدوا منها إلا ينهلون منه العوض عما اندثر من الألفاظ والمفردات بفعل الزمن إلا القاموس العربى الذى أدخلوه برمته فى لغتهم الفارسية الإسلامية والتي كتبت كذلك بالخط العربى، بعد أن كانت تكتب بالخط البهلوى قبل الإسلام. كل هذا جعل الصلة بين الإيرانيين والثقافة العربية صلة وثيقة عبر تاريخهم الإسلامى كله، لدرجة أن النابه منهم إن أراد أن يبرز نجمه فى عالم الفكر، وجب عليه أن يجيد العربية، بل ويؤلف بها حتى ينتشر اسمه، ويعلو قدره، وهذا ما فعله ابن سينا والغزالي والبيروني وغيرهم كثيرون.

ظل الحال كذلك حتى العصر الحديث، وظلت اللغة العربية لغة القرآن الكريم أول ما يدرس التلميذ في الكتائب حتى يستطيع حفظ آيات القرآن الكريم، وحتى بعد أن اتصلت إيران بأوروبا، وبدأ البعض يطالب بالأخذ بالعلوم الحديثة وتعلم اللغات الأجنبية، لدرجة أن البعض من صغار المتفريجين دعا - كما حدث في تركيا على يد كمال أتاتورك - إلى هجر الخط العربي ونبد الكلمة العربية واستبدالها بكلمة أوربية، إلا أن كبار علماء إيران ومنهم العلامة محمد بن عبد الوهاب القزويني اتهم هؤلاء المتفريجين بالجهالة ومحاربة الذات؛ لأن الكلمة العربية التي استقرت في القاموس الفارسي قد أصبحت فارسية الجنسية بطول الإقامة بين الإيرانيين، ولم يعد الناس يسألون بعد استعمال دام أكثر من عشرة قرون، هل هذه الكلمة فارسية أم عربية، كما أن هجر الخط العربي سيجعل من الصعب على الأجيال الإيرانية الجديدة قراءة روائع الأدب الفارسي المكتوبة بالخط العربي كالشاهنامه وأشعار سعدى وروائع نظامي ومنظومات العطار وغزليات حافظ ومثنويات جلال الدين الرومي. واحتدم الخلاف بين الجانبين حتى عقد مؤتمر في عام ١٩٣٦ م لإنهاء هذا الخلاف، وقد دعى إليه عدد من المستشرقين، وانتهى المؤتمر إلى ضرورة بقاء الخط العربي، وبقاء الكلمة العربية في المعجم الفارسي، وأنه ليس في مقدور اللغة الفارسية العيش بدونهما^(١).

ومادامت العربية بخطها ولغتها ومعجمها ومؤلفاتها لها هذه الأهمية بالنسبة للإيراني ولغته الفارسية، فإن المدارس الإيرانية بجميع مستوياتها تعنى بتدريس اللغة العربية لجميع التلاميذ والطلاب، كما أن جميع

(١) راجع هذه القضية الهامة في مبحث: كلمة أوربية أم كلمة عربية، في كتابي: من قضايا الشعر الفارسي، ص: ٢٨٥ - ٣٢٠ الطبعة الأولى، بيروت: ١٩٨٠.

الجامعات الدينية والمدنية تضم أقساما خاصة باللغة العربية، وقد تخرج في هذه الأقسام أعداد كبيرة من الإيرانيين، حمل كثير منهم مهمة توثيق العلاقات الثقافية بين العرب وإيران.

وإذا إنتقلنا إلى العالم العربى ونتيجة لعمق العلاقات بين العرب وإيران فسنجد العديد من الجامعات والمراكز العلمية والثقافية المعنية بدراسة اللغة الفارسية، سواء أكانت هذه الدراسة خدمة للثقافة العربية، أو لدراسة اللغة الفارسية كهدف فى حد ذاته وقد بدأ هذا الاهتمام الأكاديمى بعد عودة المرحوم الأستاذ الدكتور عبدالوهاب عزام من بعثته، وطالب بضرورة تدريس الفارسية فى الجامعة المصرية، وقد نجح فى تأسيس معهد عال لدراسة اللغات الشرقية التابع لجامعة فؤاد الأول (القاهرة حاليا) وذلك عام ١٩٢٥م، ثم نجحت جامعة إبراهيم باشا (جامعة عين شمس حاليا) فى إنشاء أول قسم على مستوى درجة الليسانس وذلك منذ إنشائها فى عام ١٩٥٠م. ثم توالى الأقسام الخاصة بتعليم الفارسية فى مصر، فأنشئ قسم خاص بجامعة القاهرة بدلا من المعهد السابق الإشارة إليه، ثم تبعتهما جامعة الأزهر، فجامعة الإسكندرية وجامعة جنوب الوادى (فرع سوهاج).

كل هذه الجامعات ممثلة فى كليات الآداب بها حظيت بأقسام، متخصصة لدراسة اللغة الفارسية وآدابها. إلى جانب دراسة اللغة الفارسية كلغة مساعدة فى أقسام اللغة العربية والتاريخ، وذلك لأهمية اللغة الفارسية لدارسى الأدب العربى وبخاصة فى العصر العباسى، ولدارسى التاريخ الإسلامى كله.

وقد وجدت هذه الأقسام اهتماما وإقبالا شديدا وبخاصة فى فترات

الانفراج السياسى بين إيران والعالم العربى، لدرجة أنه خلال فترة الانتعاش فى هذه العلاقة أثناء حكم المرحومين الرئيس السادات والشاه محمد رضا، كان عدد الطلاب بقسم اللغة الفارسية بجامعة عين شمس على سبيل المثال يفوق عدد زملائهم دارسى اللغة الفارسية بجامعة طهران نفسها^(١).

والى جانب مصر فقد أولت العراق أهمية قصوى بدراسة الفارسية وآدابها لدرجة أن جميع كليات الآداب بالعراق تدرس الفارسية بين برامجها فى أقسام اللغة العربية، إلى جانب وجود قسم خاص باللغة الفارسية بكلية الآداب جامعة بغداد.

وإذا تخطينا مصر والعراق وجدنا اللغة الفارسية تدرس أيضا فى معظم الجامعات العربية ومنها على سبيل المثال لا الحصر: جامعة بيروت العربية، جامعة لبنان الحكومية. جامعة دمشق، جامعة الكويت، وجامعة قطر، جامعة الملك سعود بالرياض، جامعة الجزائر، وغيرها كثير.

ولاشك أن هذا الاهتمام باللغة الفارسية وآدابها فى ربوع العالم العربى من الخليج إلى المحيط، ليدعم عمق الصلة بين الشعبين العربى والإيراني، حتى وإن خيم على هذه العلاقة جو من التوتر أحيانا.

والى جانب هذه المراكز العلمية والأكاديمية، فقد أنشئت بعض المراكز الثقافية، ومنها على سبيل المثال المركز الثقافى الإيرانى فى القاهرة، والذى افتتح عام ١٩٧٧م، وقد أقام المركز فصولا لتعليم اللغة الفارسية للأطفال الإيرانيين المقيمين بمصر، وكذلك أنشأ فصولا للتقوية

(١) يقول مدير المركز الثقافى الإيرانى فى مصر عن هذا القسم ما يلى: يعد هذا القسم من أنشط المراكز العلمية فى مصر على الإطلاق وذلك فى مجال التدريس والبحث فى اللغة والأدب الفارسى؛ انظر: جوانب من الصلات الثقافية بين إيران ومصر. ص: ظ.

فى اللغة الفارسية لطلاب أقسام اللغة الفارسية بالجامعات المصرية، كما قدم العديد من المحاضرات العامة وعرض الأفلام التاريخية والثقافية والفنية، كما أنشأ مكتبة لخدمة الباحثين فى مجال الدراسات الإيرانية، وأخيراً ساهم المركز فى نشر بعض مؤلفات وأبحاث المحققين المصريين، وقد أصدر بضعة أعداد من مجلة المنتدى^(١).

وكان من المفترض أن تنشئ مصر مركزاً ثقافياً مماثلاً فى طهران، ولكن توتر العلاقات التى صاحبت تنازل الشاه عن العرش أودى بالمركز الإيراني فى القاهرة، كما حال دون إنشاء المركز المصرى فى طهران.

* * *

وهكذا تعددت قنوات الاتصال الثقافى بين العرب وإيران عبر تاريخهم المشترك، وما زالت هذه العلاقات الثقافية حجرة الزاوية فى هذه العلاقات مهماً اعتبرت هذه العلاقات أحياناً من توتر نتيجة لبعض المشاكل الحدودية أو العرقية التى تثور من حين إلى حين. ولكن الأمل قائم دائماً بانفراج الأمور وعودة العلاقات إلى حالتها الطبيعية من حسن جوار وتعاون مثمر بناء. أو هذا ما نرجوه على الدوام.

(١) المرجع السابق: ص: م م وما بعدها.

حركة الترجمة بين اللغتين العربية والفارسية عبر القرون

حركة الترجمة بين اللغتين العربية والفارسية عبر القرون

يقول عميد الأدب العربى الدكتور طه حسين فى تقديمه «لأغانى شيراز» وهى الترجمة العربية لغزليات الشاعر الفارسى المعروف حافظ الشيرازى والتى قام بها أستاذنا المرحوم الدكتور إبراهيم أمين الشواربى والمنشورة عام ١٩٤٤م، ما يلى :

لست فى حاجة إلى أن أتحدث عما ينبغى من العناية بالصلة بين الأدبين العربى والفارسى، أو بعبارة أصح، باستئناف الصلة بين الأدبين العربى والفارسى، فهذا موضوع قد أكثر القول فيه، ووفقت بعد طول إلحاح فى القول والعمل إلى بعض ما كنت أرجو من الفوز به وإنه لعظيم، ففى أقل من ربع قرن ظهر فى حياتنا الأدبية رجال ممتازون يعنون بهذه الصلة عناية ممتازة، ويظهرون فى أدبنا الحديث أثارا فارسىة بارعة، يسلكون فى ذلك سبيل القدماء من أدباء المسلمين فى القرون الأولى^(١).

لقد فرض الجوار الجغرافى بين البلاد العربية وإيران ضرورة الاتصال والتعامل المشترك، وقد نتج عن هذا الاتصال الكثير من مظاهر الأخذ والعطاء، ومن بين المجالات التى نتجت عن هذه العلاقات الضاربة فى القدم، مجال الترجمة بين اللغتين العربية والفارسية البهلوية قبل الإسلام...لقد قيل إنه نتيجة للعلاقات المتنامية بين البلاط الساسانى وإمارة الحيرة من جهة وسيف بن يزن وأبنائه فى اليمن من جهة أخرى، أن حرص كسرى على أن يضم بلاطه عددا من المترجمين العرب الذين يجيدون اللغة العربية إلى جانب إجادتهم اللغة البهلوية حتى يستطيعوا

(١) أغانى شيراز ترجمة الدكتور إبراهيم أمين الشواربى ص : ز الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٤٧.

ترجمة ما يصل إليه من رسائل من الحيرة أو اليمن، وكذلك ترجمة رسائله إلى الحكام العرب الذين تربطه بهم صلات ودية، ومن هؤلاء المترجمين الذين عاشوا في بلاط كسرى : بن يعمر الأيادي، وكان أول مترجم ورد اسمه في كتب التاريخ^(١)، وكذلك عدى بن زيد الذي عين في بلاط كسرى كاتباً ومترجماً وذلك لإتقانه اللغتين العربية والفارسية، وقد علت مكانته نتيجة تفانيه في العمل حتى أوفده كسرى سفيراً إلى قيصر الروم ، وقد قال الطبري في حقه : كان عدى وأخوته الآخرون من كتاب كسرى بن هرمز ، وكان آل عدى مشهورين بالمهارة في الكتابة والترجمة^(٢). إلى جانب ذلك كان عدى شاعراً له ديوان شعر حافل بالقصص التاريخي وقد تبعه في ذلك ابنه زيد بن عدى حيث عين كوالده كاتباً ومترجماً في بلاط كسرى وحاز مكانة عالية لديه ، ولكنه فقد هذه المكانة في عهد خلفه خسرو برويز حيث أمر بسجنه ثم قتله بعد ذلك^(٣).

أما في العصر الإسلامي فقد كانت الصلات أوثق وأعمق، وكانت رغبة الخلفاء في نقل علوم البلاد الأخرى إلى العربية دافعا قويا على ازدهار حركة الترجمة من اللغات المختلفة إلى اللغة العربية ، وقيل إن حركة الترجمة بدأت منذ عصر بنى أمية، ولكنها نشطت منذ أوائل العصر العباسي، وشارك في هذه الحركة العديد من المترجمين من غير العرب وخاصة الفرس والسراني، حيث نقلوا العديد من الكتب الفارسية واليونانية وغيرها إلى اللغة العربية . ومع هذا فأول كتاب نقل من البهلوية إلى العربية كان عام ١١٣ هـ في عهد هشام بن الملك، كما حدثنا المسعودي^(٤).

(١) انظر الأغاني جـ ٢، ص: ١٠١. (٢) الطبري جـ ٣، ص: ١١٢.

(٣) د. نور الدين آل علي: التعريب وأثره في الثقافتين العربية والفارسية ص ٦١، القاهرة.

(٤) المسعودي: التنبيه والإشراف، ص: ١٠٦.

وإذا كان عصر أبي العباس السفاح مؤسس الدولة العباسية قد شغل بتثبيت دعائم الدولة واستقرارها، فإن عهود خلفائه قد حفلت بالاهتمام بالعلوم والمعارف، ففي عهد المنصور عني بترجمة كتب النجوم والطب والفلسفة عن اليونانية والرومية والبهلوية والسريانية، وقد شجع الرشيد حركة الترجمة أيضاً، واستمر هذا التشجيع والازدهار إلى أن بلغت الترجمة ذروة نهضتها في عصر المأمون وزحرت المكتبة العربية بالعديد من الكتب المترجمة، ويقال إن المأمون قد أوفد الرسل إلى ملوك الروم لاستخراج علوم اليونانيين ونسخها بالخط العربي، وهكذا فعل مع البلاد الأخرى التي أدرك أن لدى أهلها علوماً يمكن أن تنقل إلى العربية. ونتيجة لهذا الاهتمام الكبير بحركة الترجمة فقد أنشأ في بغداد مدرسة لتخريج المترجمين^(١).

ونتيجة لهذا الاهتمام الكبير نقل المترجمون الكثير من الفنون إلى اللغة العربية، وبخاصة كتب العلم والحكمة، وكانت هذه الكتب المنقولة من خمس لغات هي:

الفارسية (البهلوية)، الهندية (السنسكريتية)، اليونانية، السريانية والعبرانية^(٢).

وما يهمننا في هذا المجال ما تم نقله من اللغة الفارسية إلى اللغة العربية، وكذلك أولئك المترجمون الذين أجادوا هاتين اللغتين ونقلوا من إحداهما إلى الأخرى وساعدوا على إثراء المكتبة الإسلامية بشقيها العربي والفارسي.

(١) عبد المنعم خفاجي: الحياة الأدبية في العصر العباسي، ص: ٢٣٠.
(٢) محمد غفراني الخراساني: عبدالله بن المقفع، ص: ٣٧، القاهرة ١٩٦٥.

وقد أورد النديم قائمة بأهم المترجمين من اللغة الفارسية إلى اللغة العربية، وهؤلاء هم :

- | | |
|-----------------------------------|--|
| ١ - عبدالله بن المقفع | ١١ - محمد بن بهرام بن مطيار |
| ٢ - نويخت المنجم وأبناؤه | الأصفهاني. |
| ٣ - موسى بن خالد | ١٢ - عمر بن الفرخان الطبري |
| ٤ - يوسف بن خالد | ١٣ - بهرام الهروي |
| ٥ - أبو الحسن علي بن زياد التميمي | ١٤ - هشام بن هشام بن قاسم الأصفهاني |
| ٦ - الحسن بن سهل المنجم | ١٥ - زاوية بن ماثوية الأصفهاني |
| ٧ - أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري | ١٦ - بهرام بن مراد شاه |
| ٨ - اسحق بن علي بن سليمان | ١٧ - علي بن عبيدة الريحاني |
| ٩ - اسحق بن زيد | ١٨ - بهرام بن مهران الأصفهاني ^(١) |
| ١٠ - محمد بن جهم البرمكي | |

والى جانب هذه الأسماء فقد قدم ابن النديم قائمة بأسماء الكتب التى نقلت من الفارسية إلى العربية حتى القرن الرابع الهجرى وتبلغ سبعين كتاباً أورد منها جرجى زيدان فى كتابه «تاريخ التمدن الإسلامى» عشرين كتاباً.

ومن أهم هذه الكتب البهلوية التى عريت كتاب رستم واسفنديار، وكتاب بهرام شوش. وقد عريبها جبلة بن سالم، أما الكتب التى عريبها ابن المقفع فهى عديدة، أهمها : كليلة ودمنة، وخداينامه أى كتاب سير ملوك الفرس، وكتاب آئين نامه، وكتاب التاج فى سيرة أنوشيروان وكتاب مزدك وكتاب نامه تنسر، وكتاب اليتيمة، وهناك كتب أخرى عديدة

(١) راجع الفهرست لابن النديم، ص: ١١٤-٢٤١-٤٣٩ وغيرها.

ترجمها مجهولون مثل: هزار افسانه، وکارنامه أنوشروان وهزار داستان وغيرها..^(١).

كما تُرجم أيضا عن الفارسية قدر كبير من الخطب والحكم والنصائح والكلمات الماثورة عن الأكاسرة وحكيمهم الشهير بزرجمهر، وقد روى الكثير منها فى الطبرى ومروج الذهب، وما أورده المسعودى منسوباً إلى أردشير بن بابك مؤسس الأسرة الساسانية، تلك الخطبة التى قالها يوم أن استتب له الملك، قال فيها:

«ما من شىء أضر على نفس ملك أورئیس أو ذى معرفة من معاشره سخيّف أو مخالطة وضيع، لأنه كما أن النفس تصلح بمخالطة الشريف الأريب الحسى، فإنها كذلك تفسد بمعاشره الخسيس حتى يقدح فيها ويزيلها عن فضيلتها، ويثنيها عن محمود شريف أخلاقها...»^(٢).

وما قاله أردشير وتُرجم إلى العربية كذلك ما كان ينصح به ابنه، حيث قال: يا بنى إن الدين والملك أخوان، لاغنى لواحد منهما عن صاحبه، فالدين أساس الملك وحارسه، وما لم يكن له أساس فمهدوم، وما لم يكن له حارس فضائع^(٣).

والجدير بالذكر أن اهتمام أكثر المترجمين كان متجهاً إلى العلم أكثر من الأدب، ولعل ذلك يرجع إلى أن الآداب الأجنبية الموجودة فى هذه الفترات كانت حافلة بكثير من المعتقدات الدينية التى تخالف

(١) سبك شناسى لبهار جـ ١، ص ١٥٥، ١٥٦ وغيرها.

(٢) نقلاً عن: التعريب، لنور الدين آل على، ص: ٨٨.

(٣) المرجع السابق: نفس الصفحة.

الإسلام وتعاليمه، إلى جانب أن أدب اليونان كان مفعما بذكر الآلهة والأرباب ونحو ذلك من الموضوعات المتنافية مع العقيدة الإسلامية وكانت هذه الظاهرة موجودة أيضا في بعض آداب الفرس^(١).

هنا يظهر نبوغ ابن المقفع عندما قام بترجمة الكثير من الكتب البهلوية، حيث واءم بينها وبين البيئة العربية الإسلامية، وبالتالي حظى بمرتبة الصدارة بين المترجمين في العصر العباسي. كما يقول ابن النديم، ولعل كتابه القيم كليلة ودمنة خير شاهد على ذلك، لم نجد فيه ما يجافى العقيدة الإسلامية، ولذا حظى بالقبول والانتشار والخلود في مضمار الثقافة الإسلامية، وقد طبع العديد من الطبعات عبر القرون الهجرية ونشر في جميع البلاد العربية والإسلامية تقريبا، كانت من أهم طبعاته تلك الطبعة التي أخرجتها دار المعارف عام ١٩٤١م بإشراف العلامة الدكتور عبد الوهاب عزام، وتفضل بتصديرها عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين، ومما جاء في تصديره:

يروقنى أن أرى فى هذه الطبعة الجديدة من كتاب « كليلة ودمنة » رموزا سامية صادقة لمعان سامية نحبها أشد الحب ونطمح إليها أشد الطموح. ففي هذا الكتاب حكمة الهند، وجهد الفرس ولغة العرب، وهو من هذه الناحية رمز صادق لمعنى سام جليل، هو هذه الوحدة العقلية الشرقية التى تنشأ عن التعاون والتضامن وتظاهر الأجيال والقرون بين أم الشرق على اختلافها، والتى حققتها الحضارة الإسلامية على أحسن وجه وأكملها، أيام أن كانت هذه الحضارة قوية مؤثرة فى حياة الأمم والشعوب أو التى نريد الآن أن يرد إليها قوتها الأولى وجمالها القديم..

(١) ابن المقفع: غفرانى، ص: ٣٨.

هذه الحكمة الخالدة الساذجة التى أفاضها روح الهند، ونقلها عنهم جهد الفرس، وصاغها فى هذه الصورة العربية الرائعة ذوق العرب وتوارثتها الأجيال بعد ذلك فنقلتها من بيئة إلى بيئة ومن شعب إلى شعب، حتى جعلتها جزءاً من التراث الإنسانى الخالد، هذه الحكمة فى صورتها العربية رمز لما نحب أن يكون من تعاون الأمم الشرقية على إشاعة البر والتقوى، وإذاعة الخير والمعروف، ومقاومة الإثم والعدوان...^(١).

وإشارة إلى ما قاله عميدنا الدكتور طه حسين بخصوص ما لكليلة ودمنه من فضل بعد أن صاغها ذوق العرب، نقول:

لولا هذه الترجمة العربية التى قدمها ابن المقفع لما بقى هذا الكتاب الذى أصبح جزءاً من التراث الإنسانى الخالد، وذلك لأن الأصل الهندى قد فقد، وكذلك فقدت الترجمة البهلوية التى نقل عنها ابن المقفع ولم يحفظ لنا التاريخ إلا هذه الترجمة العربية التى أصبحت الأساس والمصدر الذى أخذت عنه كل الترجمات العالمية، حتى يمكننا القول بأن هذا الكتاب قد ترجم إلى جميع لغات العالم القديم والحديث، واعترف جميع مترجميه أياً كانت جنسياتهم أو لغاتهم بأنهم اعتمدوا على ترجمة ابن المقفع العربية، بل يمكننا القول أن هذه الترجمة كانت صاحبة الفضل فى انتشار الكتب التى عنت بالكتابة الرمزية على ألسنة الحيوان فى العالم كله. وهكذا كانت ترجمة ابن المقفع العربية لكليلة ودمنة مدرسة نهج على طريقته القدماء والمحدثين فى الشرق والغرب على السواء، ومنهم الفرس والهنود كذلك، فقد قاموا بترجمة الكتاب إلى لغاتهم مرة أخرى بعد أن ضاع منهم الأصل السنسكريتى والترجمة البهلوية.

(١) كليلة ودمنة، طبع دار المعارف، القاهرة ١٩٤١، ص: ٩٨.

وهكذا ساعدت حركة الترجمة التي قادها ابن المقفع على حفظ جزء هام من التراث الإنساني من الضياع كما ضاع غيره من قبل ومن بعد^(١).

ولاشك أن حركة الترجمة إلى اللغة العربية قد أثرت الأدب العربي العباسي، فكان — بما تتضمن من مظاهر التطور وصنوفه في جميع الميادين من كتابة وشعر — حصيلة اتصال الفكر العربي اتصالاً مباشراً أو غير مباشر بثقافات أمم أخرى وشعوب ذات سوابق في الأدب والفن والفكر وسواها من ظواهر الحضارة، ولاشك أنه الأدب العربي الذي جاء نتاجاً لهذا التلاقح كان أدباً متعدد المنازع كثير الأوجه مختلف القوالب والأغراض والأساليب، بل إن هذا الأدب كان في الواقع آداباً عدة أفرغت بقالب واحد، هو قالب اللغة العربية.. وبهذا اعترف ابن النديم في مقدمة كتابه العظيم الفهرس، حيث قال: ... هذا فهرست كتب جميع الأمم من العرب والعجم الموجود منها بلغة العرب وقلمهم في أصناف العلوم وأخبار مصنفيها^(٢).

ويقول الجاحظ في كتابه الحيوان معلقاً على حركة الترجمة من اللغات المختلفة إلى اللغة العربية ما يلي: وقد نُقلت إلى اللغة العربية كتب الهند وترجمت حكم اليونان وحُولت آداب الفهرس، فبعضها ازداد

(١) انظر: بديع جمعه: دراسة في الأدب المقارن، ص ١٦٦ - ٢١٩، الطبعة الثانية، بيروت ١٩٨٠.

(٢) محمد محمدى: الترجمة والنقل عن الفارسية في القرون الإسلامية الأولى، الجزء الأول: كتاب التاج والآبين: ص: ٣.

حسنا، وبعضها ما انتقص شيئا .. وقد نُقلت هذه الكتب من أمة إلى أمة، ومن قرن إلى قرن، ومن لسان إلى لسان حتى انتهت إلينا وكنا آخر من ورثها^(١).

ومادام علوم الأولين والسابقين قد أصبحت إرثا للعرب، فلا بد وأن يحافظوا على هذا الإرث وينموه ويقدموه للبشرية أفضل مما أخذوه، وهذا ما حدث وأصبح العلم على اختلاف أنماطه وأغراضه ملكا للعرب، مما حدا بالشعوب الأخرى السعى وراء الأخذ عنهم، والاجتهاد في ترجمة علوم العرب إلى سائر لغاتهم بعد ذلك، ومنها الفارسية الحديثة، وهي الفارسية الإسلامية، فبعد أن نجح الفرس في بعث لغتهم من جديد حرصوا كل الحرص على أن تكون مؤلفاتهم الأولى ترجمة لكتب عربية، ونذكر منها على سبيل المثال ترجمة تاريخ الطبري الذي يعد أول كتاب يترجم ويكتب باللغة الفارسية الإسلامية ثم تبعه تفسير الطبري وبعد ذلك شاهنامه ثعالبي وهي الترجمة الفارسية لكتاب غرر أخبار ملوك الفرس وسيهرهم^(٢)، ثم توالى بعد ذلك الترجمات من العربية إلى الفارسية منذ العودة إلى اللغة الفارسية في أوائل القرن الثالث الهجري حتى يومنا هذا، ومن يزور إيران ويشاهد مكتباتها العامة والخاصة سيجد أنها تحفل بالعديد من الترجمات الفارسية لمؤلفات كل الأدباء العرب حتى أدباء القرن العشرين وعلى رأسهم طه حسين والعقاد والحكيم وهيكل والسنهوري وغيرهم.

(١) نفس المرجع ونفس الصفحة.

(٢) راجع الجزء الأول من سبك شناسي الملك الشعراء محمد بهار.

وإذا كانت اللغة الفارسية قد حظيت بالعديد من الترجمات عن العربية في العصر الحديث وبخاصة خلال القرن الحالى، فإن اللغة العربية قد حظيت هى الأخرى بالعديد من الترجمات عن اللغة الفارسية مصداقا لما قاله عميد الأدب العربى فى تقديمه لكتاب أغانى شيراز، حيث قال:

«فقد انقضى الوقت الذى كان الناس يؤمنون فيه بأن الأدب العربى غنى بنفسه لا يحتاج إلى أن تمده الآداب الأخرى بما فيها من قوة وروعة وجمال، وأظننا بفضل الحياة الجامعية عصر جديد آمن فيه المثقفون بأن الحياة العقلية أخذ وعطاء، وبأن الأدب العربى لم يعرف العزلة والاستغناء بالنفس إلا فى أوقات الضعف والانحطاط، أما فى أوقات القوة والرقى فقد كان يأخذ ويعطى، وهو الآن فى وقت من أوقات قوته ورقه، وهو الآن يأخذ ويعطى كما كان يفعل أيام العباسيين^(١).

وقد تفضل الأستاذ الدكتور مبشر الطرازى الخبير بدار الكتب المصرية بتقديم قائمة مختصرة عن الكتب الفارسية التى ترجمت إلى اللغة العربية فى العصر الحديث، سأذكر بعضا منها على سبيل المثال فقط. وهذه الكتب المترجمة تتناول العديد من الموضوعات الأدبية أو اللغوية أو التاريخية:

١ - كلستان: تأليف سعدى الشيرازى وترجمة جبرائيل بن يوسف الشهير بالخلع وطبع فى بولاق عام ١٢٦٣ هـ، كما ترجم مرتين بعد ذلك قام بإحدهما الدكتور محمد موسى هنداوى وبالثانية الدكتور أمين عبدالحجيد بدوى باسم «جنة الورد».

(١) أغانى شيراز ص: ح.

٢ - پند نامه: أو النصيحة لفريد الدين العطار، وترجمه أحمد راشد الأنصارى المعروف بالمصرى، وهو من علماء القرن الثالث عشر الهجرى، وطبع فى الإسكندرية عام ١٢٨٩هـ.

٣ - الشاهنامه: تأليف الفردوسى وترجمة الفتح بن على البندارى. وتصحيح وتعليق الدكتور عبد الوهاب عزام، وطبعت بالقاهرة عام ١٩٣٢م، ويقول الدكتور عزام فى مقدمته:

«كنت أسمع عن الشاهنامه كما أسمع عن القصص الكبيرة الأخرى، وكنت أمنى نفسى قراءة الكتاب وأشتط فى التأمل أحيانا، فأمنيتها ترجمته حين يتاح لى علم اللغة الفارسية، وكنت أتمنى درس الفارسية فى حداثتى، أمنية نشأت فى نفسى بعد أن أمضيت سنين فى درس التركية أو محاولة درسها.. ثم عرفت بعد أعوام طوال، ولا أدرى كيف ومتى، أن الشاهنامه ترجمت إلى العربية، وكنت أحسب ترجمتها من الآثار التى ندب بها الزمان وطوتها ظلمات القرون.. وبينما أقرأ فى كتاب الأستاذ براون «تاريخ الآداب الفارسية».. عرفت أن نسخة من الترجمة العربية موجودة فى مكتبة كمبريدج فسرت فى نفسى هزة الفرح والظفر وقلت: «لقد كُفيت ترجمة الشاهنامه وإنها لعبء فادح، وصح العزم حينئذ أن أحصل الكتاب ثم أنشره»^(١).

وقد كان له ما أراد بعد أن جمع عدة نسخ من كمبريدج ودار الكتب المصرية، وقد أصدر الترجمة العربية فى جزئين عام ١٩٣٢م.

(١) انظر مقدمة الترجمة العربية للشاهنامه، طبع دار الكتب المصرية عام ١٩٣٢ الجزء الأول، ص: ٣.

ثم أعادت كل من الهيئة المصرية العامة للكتاب ودار سعاد الصباح نشر هذه الترجمة فى القاهرة عام ١٩٩٣ م.

٤ - أغانى شيراز أو غزليات حافظ الشيرازى، ترجمة الدكتور إبراهيم أمين الشواربى، وقد صدرت فى جزئين بالقاهرة عام ١٩٤٤ م. وقد كتب الدكتور طه حسين فى تقديمه لها:

وهذه طرفة أخرى نفيسه رائعة يسعدنى أن أطرف بها قراء العربية لأنها ستمتعهم من جهة، ولأنها ستزيد ثروة الأدب العربى من جهة أخرى، ولأنها بعد ذلك ستثير فى نفوس كثير منهم ألوانا من التفكير المنتج وفنونا من الشعور الخصب، ولعلها تفتح لبعض الشباب أبوابا فى الحس والشعور والتفكير لم تفتح لهم من قبل...^(١).

٥ - حدائق السحر فى دقائق الشعر: تأليف رشيد الدين الوطواط: وترجمة الدكتور إبراهيم أمين الشواربى، وطبع فى القاهرة عام ١٩٤٥ م.

٦ - چهار مقالة: للعروضى السمرقندى وترجمة الدكتور عبدالوهاب عزام والدكتور يحيى الخشاب.

٧ - رباعيات الخيام: وقد ترجمت هذه الرباعيات حتى عام ١٩٨٧ م ستا وخمسين ترجمة موزعة على النحو التالى^(٢):

أ - عدد الترجمات الشعرية ٣٣ ترجمة.

ب - عدد الترجمات النثرية ١٦ ترجمة.

ج - عدد الترجمات الشعبية ٧ ترجمات (منها ثلاث عراقية، وثلاث مصرية، وواحدة لبنانية).

(١) أغانى شيراز، ص: ز.

(٢) راجع: محمد السعيد جمال الدين (دكتور): الأدب المقارن، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٩٩٦.

وكان عدد المترجمين لهذه الترجمات اثنين وخمسين مترجما، حيث ترجم بعضهم الرباعيات أكثر من مرة كما فعل الزهاوى حيث ترجمها مرة شعرية وأخرى نثرية. كما أن بعض هؤلاء المترجمين قد ترجمها عن غير الفارسية، كما فعل البستاني حيث ترجمها عن ترجمة فيتزجيرالد الإنجليزية، وصرح بأنه اضطر إلى ذلك لأنه لا يكاد يعرف من الفارسية حرفا واحدا. وهكذا فعل محمد السباعي في ترجمته للرباعيات عام ١٩٢٢م وقد قال المازني مادحا ترجمة السباعي «حتى لكأن ما ترجم كان قد كتب بالعربية أصلاً..» على أن قدرة محمد السباعي الحقيقية في الترجمة تتجلى في الدقة والأصالة، فهو أكثر المترجمين محافظة على الأصل وأقدرهم أيضا على جزالة اللغة العربية وجمالها. أما ترجمة أحمد رامى شاعر الشباب وهى أشهر الترجمات، فقد ترجمت مباشرة من الفارسية عام ١٩٦٣ وذلك بعد أن تعلم الفارسية فى مدرسة اللغات الشرقية بباريس، بل إن رامى حرص على أن ينقلها فى نفس قالبها الرباعى، وقد ضمت ترجمته ١٦٨ رباعية، حيث ترجم فيها رباعيات المناجاة التى أحجم فيتزجيرالد عن ترجمتها الى الإنجليزية. وهكذا كانت ترجمة رامى أكثر دقة وأصالة من ترجمة فيتزجيرالد على الرغم من عظيم شهوتها. ثم توالى الترجمات بعد ذلك إلى أن وصل عددها إلى ما يزيد عن الخمسين ترجمة. وهكذا لعبت الترجمة العربية لرباعيات الخيام نشاطا أدبيا ملحوظا فى الأدب العربى سواء بترجماتها أو بالنظم على منوالها، إما فى قالبها الشعرى وإما فى فكر صاحبها عمر الخيام.

٨ - تاريخ البيهقى: تأليف محمد به حسين البيهقى، قام بالترجمة الدكتور يحيى الخشاب والأستاذ الإيراني الجنسية محمد صادق نشأت^(١). ونشرت بالقاهرة عام ١٩٥٧م.

(١) الأستاذ / محمد صادق نشأت إيراني الجنسية عمل بتدريس الفارسية فى جامعتى عين شمس والقاهرة خلال الخمسينيات والستينيات من هذا القرن وقد شارك الأساتذة المصريين فى ترجمة أكثر من عشرة كتب من أمهات الكتب الفارسية إلى اللغة العربية.

٩ - شرفنامه: تأليف الأمير شرفخان البدليسي، وقد قام بالترجمة الأستاذ محمد على عوني، وراجعها يحيى الخشاب ونشرت بالقاهرة عام ١٩٥٨م.

١٠ - تاريخ المغول الإيلخانيين: تأليف رشيد الدين الهمداني وقد صدر في جزئين شارك في ترجمتها كل من الأستاذ محمد صادق نشأت والدكتور فؤاد عبدالمعطي الصياد بينما شاركهما في ترجمة الجزء الأول فقط الدكتور محمد موسى هندأوى.

١١ - ليلي والمجنون (أو الحب الصوفي): تأليف عبدالرحمن الجامي، وترجمة الدكتور محمد غنيمي هلال، طبعت بالقاهرة عام ١٩٦٢م.

١٢ - قابوس نامه: تأليف كيكاوس بن اسكندر بن قابوس بن وشمكير بن زيار وقد قام بترجمته الأستاذ محمد صادق نشأت والدكتور أمين عبدالمجيد بدوى وطبع بالقاهرة عام ١٩٥٨م.

إلى غير ذلك من الترجمات العديدة التي تزخر بها المكتبة العربية، تلك الترجمات التي قام بها أساتذتنا الكرام الذين رحل معظمهم، سائلين الله أن يتغمدهم برحمته، وأن يمد في عمر من بقى منهم على قيد الحياة، ليواصلوا ما بدأوه من نشاط ملحوظ في مد جسور الوصل بين اللغتين العربية والفارسية.

ولاشك أن هناك تلامذة لهؤلاء الأساتذة قد واصلوا المسيرة ونشروا بعض ترجماتهم، على حسابهم الخاص في الأعم والأشمل. أما الجزء الأعظم من هذه الترجمات مازال يبحث عن فرصة للنشر، لذا أعيد في هذا المضمار ما قاله عميد الأدب العربي منذ أكثر من خمسين عاماً:

«وليس طبع الكتب في هذه الأيام بالشىء السهل، فالورق نادر مرتفع الثمن - وأى شىء لم يرتفع ثمنه في هذه الأيام - والعلماء في جميع أقطار الأرض وفي مصر خاصة لا يملكون من المال ما يمكنهم من نشر ما ينتجون في مثل هذه الأوقات العصيبة»^(١).

وإننى أوجه ما قاله الدكتور طه حسين كرسالة إلى المشرفين على الهيئة العامة للكتاب وإلى المجلس الأعلى للثقافة وهم جميعاً من تلاميذ طه حسين، لعلهم يهتمون أكثر وأكثر بنشر الترجمات عن الكتب الشرقية بعامة وليس عن الفارسية وحدها، فمصر بالشرق وللشرق!

(١) أغاني شيراز، ص: ط.

صورة مصر في الأدب الفارسي الحديث

صورة مصر في الأدب الفارسي الحديث

كانت مصر، وماتزال، محط أنظار العالم شرقه وغربه، فمن وافد إليها بقصد العلم والمعرفة، ومن زائر بهدف السياحة، ومن تاجر يشد الرحال إليها لما فيها من سوق رائجة.. إلى غير ذلك من الأهداف التي دفعت الكثيرين من أهل الشرق والغرب كي يحجوا إلى مصرنا العزيزة كلما واثتهم الفرصة.

وكثير ممن زاروا مصر كانوا من الأدباء الذين سجلوا خواطرهم نظماً أو نثراً وإذا أردنا أن نسجل كل ما كتب عن مصر في الآداب العالمية، فسنحتاج إلى فريق عمل، وإلى سنوات عديدة حتى ننجز هذه المهمة.

كما أننا إذا حاولنا أن نسجل هذه الخواطر في أدب أمة واحدة، فسنحتاج إلى عدة مجلدات، ولهذا فسنقصر حديثنا على فترة زمنية واحدة، وأعني بها العصر الحديث في الأدب الفارسي دون سواه من عصور سابقة، ودون الإدعاء بأننا سنحصى كل ما كتب عن مصر في هذا العصر، إذ ما أكثر الشعراء الإيرانيين والكتاب الذين زاروا مصر في العصر الحديث وسجلوا خواطرهم نظماً ونثراً.

ونجتنب للإطالة؛ فسنكتفى بالإشارة الموجزة إلى بعض النماذج الأدبية التي سجل فيها شعراء إيران وكتابها انطباعاتهم وأحاسيسهم تجاه مصرنا الحبيبة.

والآن لنبدأ بذكر بعض ما قاله الشعراء الإيرانيون في وصف مصر:
تحدث أحد الشعراء عن احتفاء المصريين بالنيل، فقال قصيدة بعنوان
[سلام عليك يا نيل مصر]^(١) نختزى هذه الأبيات؛ وترجمتها:

(١) رستاخيز: عدد: ٩٤٢ «الأحد ٢٨ خرداد ماه عام ٢٥٣٧ شاهنشاهی».

أيها النيل
سلام عليك
تنساب كى نحيما مصر
وإن تتأخر
فالحياة منساقة إلى الهاوية
وإن تغضب
فعلى الوطن تحقيق العاقبة
وإن تهدر
فالأرض ومن عليها
يتهللون بشراً، ويصخبون فرحاً
أنت المانح للخير الوفير
وأنت الخالق لكل جميل
شبابك وأطفالك
يهللون لك ويتغنون بك
وهاهم يعظمونك.
تعظيمهم الملوك!!

ومصر الإسلامية كانت ومازالت ركناً أساسياً فى اتحاد العالم
الإسلامى، وإلى هذا المعنى أشار ملك الشعراء بهار فى قطعة بعنوان
الاتحاد الإسلامى: (١)

(١) ملك الشعراء بهار: الديوان ج١، ص: ١٥١.

الهند وتركيا ومصر وإيران
 تونس وفارس والقوقاز والأفغان
 هوياتهم متباينة، ودينهم واحد
 أجسادهم شتى، وأرواحهم متفقة
 جميعهم أتباع دين محمد
 وكلهم حملة القرآن المجيد
 إن بكى مسلم فى طنجة
 توجع من أجله مؤمن فى بدخشان
 وهكذا يكون طريق العباد
 طريق الوحدة والإتحاد!!

ومن الذين زاروا مصر وأخذوا بجمالها الشاعر سيد محمود فرخ، وقد
 عبر عن إعجابه فى قصيدة بعنوان جمال مصر، اجتزىء منها بضعة
 أبيات، وهذه ترجمتها:

جمال مصر^(١)

كم أصبحت بعشق مصر مفتونا
 وكم قضيت على هذا الحال عمراً مديداً
 سلكت هذا الطريق لا تأثراً بالأساطير والتاريخ وحدهما
 بل لما لها من مكانة كذلك فى كلام الله

(١) سيد محمود فرخ، نقلا عن تذكرة شعراء معاصر ايران: السيد عبدالحميد خلدخالى جـ ١،
 چاپ أول ١٣٣٣ هـ. ش ص ٣١٩-٣٢٠.

لقد ذكر سعدى مصر بالخير
 كما أكثر حافظ من الحديث عن جمال مصر
 مصر فى خاطرى، إذ هى موطن الصفاء والجمال
 وهذه الساحة لها فى قلبى كل إعزاز وإجلال
 كل مكان زرتة بالحسن مقسم
 وكل شىء فيها يأسر الألباب والأفهام
 اكتظت المدينة والأسواق بالمشتريين والبضاعة المنتقاة
 وكل من امتلك الدرهم والدينار، اشترى ما تمناه
 ولكن لم يستطع أحد أن يشتري قلب يوسف بلفافة من خيط
 فيا رب! كم هذه المدينة الخالدة جميلة جمال زليخا!!

إذا حاولنا أن نتتبع ما جاء عن مصر فى الشعر الحديث، فسيطول بنا
 الحديث، لذا أكتفى بذكر هذه الأمثلة على سبيل المثال لا الحصر،
 ولننتقل الآن إلى مجال النشر، ولاشك أن ما كتب فيه يفوق ما كتب
 فى مجال النظم، حيث الغلبة فى الأدب الحديث أصبحت منعقدة للنشر
 بعد أن ظلت هذه الغلبة للشعر طوال العصور الأدبية السابقة.

ونظرا لكثرة ما كتب عن مصر نثرا فسأكتفى بذكر مثالين فقط، بل
 سأكتفى بذكر مقتطفات من هذين المثالين، وقد أثرت اختيارهما لأنه
 كلا منهما يمثل حقبة زمنية مختلفة، حيث يمثل المثال الأول مصر
 خلال النصف الأول من القرن العشرين، بينما يصور الثانى مصر فى
 النصف الثانى من هذا القرن. اخترتهما لأن الأول يمثل نظرة الإعزاز
 والإكبار التى كان الإيرانيون وغيرهم ينظرون بها الى مصر فى النصف

الأول من هذا القرن كما سبق أن ذكرت، بينما يصور الثاني نظرة إيران النفطية إلى مصر ما بعد حرب الثالث والسبعين، تلك الحرب التي خاضتها مصر لتجنى البلاد النفطية، ثمارها، وتنعكس هذه الثمار تطاولا على مصر وشعبها.

والآن لننتقل إلى العمل الأول منهما وهو؛ صورة مصر في كتاب:

سياحت نامه ابراهيم بيك، تأليف: حاجي زين العابدين المراغي

وهو كتاب يقع في ثلاثة مجلدات كبيرة يحكى فيها المؤلف رحلات ابراهيم بيك الذى وصفه بأنه ابن تاجر كبير بأذربيجان، وقد وفد والده إلى مصر فى أواخر القرن الماضى بغرض التجارة، ونتيجة لاتساع تجارته اتخذ من مدينة القاهرة تلك المدينة المغبوبة من البلاد الإسلامية مقرا له، وجعلها دار إقامة بعد أن كانت دار رحيل.

وابراهيم بيك هذا - وهو فى الحقيقة المؤلف نفسه - رغم إقامته فى مصر، كان شديد التعلق بوطنه الأم إيران، بل كان شديد التعصب لكل ما هو إيرانى، وعلى سبيل المثال لم ينس ما فعله الإسكندر بإيران عندما غزاها وضرب مدنها وأطفأ نارها، ولهذا فإنه لم يقبل فى مجلداته الثلاثة أن ينطق باسم «الإسكندرية» وذلك لنسبتها إلى الإسكندر، وإذا اضطر لذكرها، أشار إليها بقوله: ميناء البر المصرى!

ولكن نتيجة لتعلقه الشديد بإيران وتعصبه لها، فقد كان حريصا فى كتابه سياحته الذى وصف فيه إيران وتركيا والقوقاز، كان حريصا على عقد مقارنات بين ما رآه من إيجابيات فى مصر، وبين ما فى إيران من سلبيات راجيا من مواطنيه العمل على تلافى هذ السلبيات والتشبه بالمصريين فى تطوير بلادهم وتجميلها.

وعلى الرغم من أن الكتاب جاء فى أجزاء ثلاثة، فإننى سأكتفى
بذكر أمثلة محدودة من الجزء الأول وحده، وما قاله فى هذا الشأن:

وصف الكاتب حمامات إيران وما تتسم به من عفونة ومياه آسنة، ثم
انتقل إلى وصف حمامات مصر، حيث قال: أما حمامات مصر فالمياه
محفوظة وبعيدة عن كل تلوث حيث تنساب من الصنابير، وهكذا تتدفق
المياه الباردة وكذلك الساخنة من الصنابير غاية فى الصفاء والنقاء،
تنساب من جانب حيث يستحم المصرى، بينما تندفع المياه المستخدمة من
جانب آخر.

وفى مقارنة بين ما يتعلمه المصرى فى المدرسة وما يتعلمه الإيراني
فى الكتاتيب، يقول الكاتب:

لقد زار إبراهيم بيك أحد الكتاتيب فى مدينة قزوین الإيرانية، وسأل
الشيخ عما يتم تدريسه للتلاميذ، فأخبره الشيخ بأنهم يتعلمون الألف باء
وحزء عم وأجزاء أخرى من القرآن الكريم. أما الكبار فيدرسون الكلستان
والبوستان وأشعار حافظ وما شابه ذلك من أشعار.. ثم سأله الشيخ عما
يدرسه الطلاب فى مصر، فقال له إبراهيم بيك: إنهم يدرسون إلى جانب
ما ذكرت علوماً حديثة كالجغرافيا والهندسة والحساب وغيرها من العلوم
الحديثة.

وإذا انتقلنا إلى وسائل المواصلات، نجد الكاتب يتحسر على انعدام
السكك الحديدية فى إيران تقريباً، حيث لم تكن بها فى ذلك الوقت إلا
مسافة سبعة أميال فقط وهى المسافة التى تربط بين مدينة طهران ومزار
الشاه عبدالعظيم بضاحية الرى القديمة جنوبى طهران، وقد تحسر لأنه
قطع المسافة من مشهد إلى طهران على حد قوله فى ستة وثلاثين يوماً.

فقال: لو أن هذه المسافة قطعت بالسكك الحديدية كما هو الحال في مصر لما استغرقت الرحلة أكثر من ثلاثة أيام، كما أنها ستكون رحلة غاية في الراحة، ولكن واحسرتاه فإن الإيرانيين قد حرّموا من هذه النعمة الكبرى التي ينعم بها المصريون!!

أما إذا انتقلنا إلى المساجد، فإن إبراهيم بيك قدهاله تلك الحالة الرثة التي وجد عليها المساجد في إيران، وتمنى أن تحظى تلك الأماكن المقدسة بالاحترام والنظافة، كما هو الحال في مصر، ومما قاله:

أما ما رأيناه من مساجد في مصر فقد فرشت بالبسط الغالية، كما تفوح منها الروائح العطرة، وبها عدد كبير من المؤذنين والخدم، وفي أوقات الصلوات الخمس ترتفع أصوات المؤذنين من جميع المساجد بأذان الإسلام. أما هنا في إيران فكيف نستطيع لأنفسنا أن نسمي هذه الأماكن مساجد ودور عبادة؟ إنني لا أعرف لماذا أصاب سوء الحظ هذه الأمة الإيرانية حيث أصيب جميع المواطنين بالعمى والصمم؟ وإذا افترضنا أن معظم أفراد الأمة من العوام والجهلاء، أفلم ير علماءنا وساداتنا هذا الوضع المزرى؟ ألا يعرفون معنى المسجد في الإسلام؟ ثم ما أقل صلاة الجماعة في مساجدنا، بينما تكثر صلاة الجماعة في مساجد مصر كلها. أما هنا فقد وقف كل فرد يصلي بمفرده، وقد وضع بعضهم مناديلهم كي يسجدوا عليها عوضا عن الفرش الممزق!!

وأخيرا يقارن الكاتب بما ينعم به المصري والأجنبي على أرض مصر من حرية في القول والفعل، حرية لا ينعم بها الإيراني في وطنه، فقد سافر إبراهيم بيك إلى إيران وطالت رحلته، مما جعل أقرانه من الإيرانيين في مصر يجزعون لتغييبه خوفا أن يكون قد اعتقل أو أصابه مكروه، ومما جاء في خطابهم الذي أرسلوه إليه يطالبونه فيه بالعودة، مايلي:

«... كم نحن فى لهفة عليكم.. لقد بدأ جميع أصدقائكم بمصر
يشعرون بالضيق والخوف من طول سياحتكم.. لقد كنتم بمصر تنعمون
بالمكانة العظمى بما تتمتعون به من حرية فى القول والحركة، ولكن هذا
الأمر لا يتفق والأوضاع فى إيران، لذا فإن الأصدقاء يخشون أن تتعرضوا
لأزمات جسام بسبب ما عهد عنكم من صراحة وجرأة فى الكلمة...»
وبعد أن يتحدث الكاتب عن الحرية والعدل فى مصر، نراه يوجه
نصحه إلى حكام إيران المتسمين بالظلم والجبروت، وذلك فى قصيدة
أذكر ترجمة لبضعة أبيات منها:

لقد أنعم ملك السماء على الملك بالعدل
حتى يعمر المملكة بالإنصاف والحق
وإن لم ينعم ملك الأرض على شعبه بالعدل
فسرعان ما يقتص منه ملك السماء
فأحسن - أيها الملك - الإصغاء إلى صبيحة العدل
حتى لا تجد نفسك الغداة فى حاجة إلى صبيحة الاستغاثة
إن كل ما شيده الأنبياء وأقاموا صروحه
قد شيده على أسس من العدل وأعمدة من الإنصاف

هذه هى الصورة النثرية الأولى التى تنبض بالإشراق، والتى كانت
مصرنا العزيزة فيها على حد قول الكاتب مغبوبة من البلاد الإسلامية.
فهل كانت الصورة الثانية على غرارها وبخاصة أنها كتبت فى فترة
كانت العلاقات الإيرانية المصرية فى أوج ازدهارها وذلك عام ١٩٧٨م،

أيام أن كانت الوفود رائحة غادية بين البلدين قبل سقوط الشاه محمد رضا بهلوى. كما نحب أن ننوه بأن كاتب الصورة الثانية قد زار مصر مرات ومرات، والتقى فيها بالمستولين عن جميع المراكز الثقافية وبخاصة فى الجامعات، فقد كان الكاتب يشغل منصب نائب رئيس مؤسسة بنياد فرهنگ ايران، إنه السيد سعيد سرحانى الذى يعرفه جميع العاملين بحقل الدراسات الفارسية فى مصر، والذين أحسنوا وفادته، فكان رده على هذا الكرم مقالة يختلط فيها السم بالشهد كما يقولون؛ فماذا قال فى وصف مصر؟^(١)

بدأ الكاتب مقاله بقوله:

إن الكلمات فى كل زمان لاتكون ذات دلالة واحدة من حيث قيمتها المعنوية، وبعدها العاطفى، كما لا يكون لها مفهوم واحد وعبير بذاته فى نظر جميع الناس.. وكلمة مصر لها كذلك فى أذهان ثلاثة وأربعين مليون إيرانى مفاهيم عديدة، وغالبا ما تكون متفاوتة. فهى فى رأى عامة الناس وطن يقع فى شمال إفريقيا، وفى ذهن السياسيين أرض فاروق وناصر والسادات، وفى خاطر المؤرخين ديار الفراعنة والفاطميين والمماليك، وفى مذاق رجال الدين أرض وادى النيل ومهد موسى. أما فى نظر من لهم معرفة ولو محدودة بالأدب الفارسى وحضارته، فإنها تعنى شيئا أكبر من كل ذلك وأعظم بكثير!

بعد هذه المقدمة الوردية، يقول الكاتب:

«وبعد هذه المقدمة أرجو ألا تعجب أيها القارئ إن كانت

(١) سعيد سرحانى: أرض مصر الباعثة للطرب والبهجة، مجلة ينما العدد رقم ٣٥٨ رجب ١٣٩٨، (تيرماه ٢٥٣٧) السنة الحادية والثلاثون (العدد الرابع) ص ٢٣١ وما بعدها.

ملاحظاتي ستبدأ بشرح السوانح غير السارة»، ولكنه قبل أن يبدأ في ذكر هذه السوانح يستدرك قائلاً... ولكنني في النهاية لست غريباً عن مصر، إن علاقتي بهذه الديار وبشعبها ليست وليدة اليوم، بل إنها قديمة قديمة، حتى أنني أعتبر نفسي شريكاً لهم في أفراحهم وأحزانهم، فالإيراني ليس غريباً في مصر، وكذلك المصري في إيران.. وبناءً على ما بيني وبين المصريين من أوجه شبه عديدة أبدأ بسرد ملاحظاتي عن مصر والمصريين.

هناك مقولة عربية معروفة لدى اللغويين تقول: «هذه كلمة أجنبية فافعل بها ما شئت» أي أن العرب يحاولون نطق الكلمات الأجنبية الوافدة على قاموسهم العربي بطريقتهم الخاصة دون الالتزام بكيفية نطقها في لغتها الأصلية، وليت الأمر يقتصر على ذلك، بل تعداه إلى مقولة أخرى في مصر رفعوها شعاراً لهم، وهي: «هذا سائح أجنبي فافعل به ما شئت»، وبناءً على هذا الشعار يتعاملون مع السائح الأجنبي على المستويين الشعبي والرسمي، والأمثلة على ذلك كثيرة، أذكر منها:

إيجار «التاكسي» في مدينة القاهرة يتم نظير «تعريف» معلومة لكل مصري، أما إذا وضع مسافر أجنبي قدمه في «تاكسي» فأول شيء يفعله السائق هو ألا يشغل العداد، وعلى هذا إذا كانت المسافة تكلف المصري خمسة وعشرين قرشاً، فإنه يطالب السائح بمائة قرش على الأقل.

وبالمناسبة فإن راتب الجامعي الذي درس ستة عشر عاماً لا يزيد عن الخمسين جنيهاً في الشهر بينما يتجاوز دخل سائق التاكسي العشرين جنيهاً في اليوم الواحد، ولا شك أن هذا سيقرب الأوضاع الاجتماعية رأساً على عقب، وأدل نتيجة لذلك اندفاع السائقين وأمثالهم نحو المخدرات والعادات الذميمة مما يسبب الكوارث الاجتماعية للمجتمع والحكومة على السواء، حيث لا يوجد شيطان يدفع آدمي إلى الفساد والسرور أكثر من دخل يأتيه دون وجه حق!!

وصورة أخرى لا يتراز الأجني شاهدهتها فى محل حلالة، فقد ذهبت لأقصى شعري، فرأيت وأنا جالس على الكرسي أحد المصريين يحاسب الحلاق، حيث أعطاه مبلغ خمسة وعشرين قرشا. فقال له صاحب المحل: «مع السلامة وودعه ببسمة عريضة. ولما كنت أعرف القوانين العرفية للمصريين، فقد فكرت فى أن أكون كريما غاية الكرم، فدفعت لصاحب المحل بعد أن قص شعري مبلغ مائة قرش، وتحركت على مهل آملاً أن يودعنى كما ودع المصرى من قبل، ولكن صوته المرتفع أوقفنى حيث طالبنى بمبلغ مائة قرش أخرى؛ وهنا وقفت مندهشاً، ولكننى دفعت صاغراً!!!»

وصورة ثالثة ساقها الكاتب ليبرز سليات مصر؛ فقد قال: ذهبت إلى الإسكندرية واستأجرت «كايينة» كى أستريح فيها ساعة، وسألت صاحبها قبل استئجارها عن الثمن، ولكنه ما أن عرف أننى إيرانى حتى قال: ما قيمة للنقود فيما بيننا، إن كل شىء فداء للصديق!

ولكننى بعد أن كررت السؤال طلب منى مبلغ خمسة عشر جنيها، فقبلت وأعطيته مبلغ خمسة جنيهاً مقدماً، وأظهر الرجل غاية اللطف والحفاوة، ثم أشعل السخان وأحضر منشفة وصابونة. ومن فرط تعبى ألقى بجسدى على السرير، وبعد ساعة استيقظت من نومى، فلم أجد أثراً للماء الساخن ولا للمنشفة والصابونة. ثم نزلت أبحث عن صاحب الكايينة، فإذا برفيق سفرى يقول لى: عندما استسلمت إلى النوم طالبنى بأجرة مقدارها عشرون جنيهاً، أخذها وانصرف!! فتملكتنى الحيرة والضيق من هذا التدليس والسرقة، وعزمت على أن أشكوه إلى الشرطة حتى ولو كلفنى ذلك مائة جنيه كى أستعيد الخمسة والعشرين جنيهاً، ولكن أحد المصريين نصحنى نصيحة خالصة ألقى الماء البارد على نار

غضبى، حيث قال: إن الدولة لاتهتم بمثل هذه المسائل ولن تجنى من وراء ما تزمع عمله مع الشرطة غير إضاعة الوقت وإثارة الأعصاب!!

وعلى الجانب الرسمى نجد هذا الابتزاز كذلك، فالتحف المصرى، وهو أحد المراكز الهامة التى يؤمها الأجانب فى مصر، وتديره الدولة وجميع العاملين فيه من موظفى الحكومة، فإنك ستجد أن رسم الدخول إليه له سعران، عشرة قروش للمصرى وخمسة وثمانون قرشا للأجنبى، وقد زرتة خمس مرات أو ستاً، وفى كل مرة يثير انتباهى بائع التذاكر الذى لايرد إلى أى أجنبى المبلغ المتبقى من الجنيه وهو خمسة عشر قرشا. وإذا وقفت أمامه كى تسترد باقى نقودك، فإذا به يقول لك: إذهب واحضر «فكة»، وبعد ذلك اشتر التذكرة!!

والأغرب من هذا والأكثر إثارة للدهشة لدى السائح الأجنبى، نظام تحويل العملة فى مصر، حيث جعلت الدولة نظامين: التحويل الرسمى وهو المفروض على السياح حيث يعادل الدولار سبعين قرشا بينما هناك السعر التشجيعى للتجار والمستثمرين وفيه يعادل الدولار مائة وثلاثين قرشا؛ فكيف يكون هذا الابتزاز الحكومى للسياح؟

ثم يعرج الكاتب إلى مطار القاهرة ويصف المعاملة السيئة التى عومل بها من موظفى شركات الطيران ومن مندوبى البنوك فى ساحة المطار، تصويرا ينفر أى سائح من السفر إلى مصر، لدرجة أنه إدعى إلقاء ما معه من كتب فى سلة المهملات بعد أن تعرض لمضايقات كثيرة منعتة من أخذ الكتب معه إلى طهران^(١).

وننتقل إلى آخر المطاف فى مقاله الذى خلط فيه الشهد بالسم

(١) نفس المقالة ص: ٢٣٦.

الزعاف، فنحن جميعا نعرف أن اسم بولاق يرتبط في أذهان المثقفين في العالم الإسلامى كله بمطبعتها الشهيرة، فماذا قال عن بولاق:

عند سفرى إلى القاهرة طُلب منى أن أحمل رسالة وهدية إلى أسرة تعيش فى بولاق، وبعد أن وصلت إلى القاهرة أخذت سيارة أجرة من الفندق كى أتوجه إلى العنوان المذكور ببولاق، وبعد أن اجتزنا شارعاً أو شارعين ممهدين وواسعين نسبياً. بدأنا ندخل إلى الجزء الذى يسكنه فقراء القاهرة حيث الحارات والأزقة الخاصة بالنسوة الجالسات بلا عمل وعربات الكارو، وعربات الباعة الجائلين، وأرتال السيارات البالية المحطمة، أضف إلى ذلك انعدام النظام وتفشى القذارة التى لاتطاق.

وبعد برهة توقفت السيارة، حيث ضاقت الأزقة ولم يعد فى مقدور السائق مواصلة السير، فتوقف، وقال: هذه هى بولاق، تفضل! فنزلت وسرت على الأقدام والرسالة فى يدى ولفافة الهدية تحت إبطى. كانت الأزقة مزدحمة، والهواء عفنا وأسراب الذباب لاتطاق، وقد أتعبنى أن الأزقة لاتوجد عليها لوحات تحدد أسماءها، كما أن البيوت لاتوجد عليها أرقام تهدى السائل إلى العنوان الذى يقصده. وعلى الرغم من كل هذه الصعاب فقد ظللت تأثها بين الأزقة باحثاً عن العنوان حتى اهتديت إليه بعد ثلاث ساعات من البحث والمعاناة.

وبعد كل هذه الصور السلبية التى أوردها ختم مقاله قائلاً:

كم تأملت وسألت نفسى، أهذه القاهرة تلك التى كانت عروس الشرق منذ أربعين عاماً؟ وأهذه بولاق تلك التى كانت ذات يوم المركز الثقافى فى العالم العربى كله؟ أهذا هو وادى النيل صاحب الخير والبركة، والذى كان ذات يوم موضع حسد القريب والبعيد من حيث ازدهار زراعته وعظمة اقتصاده؟

هذه الصورة كتبها محب لمصر - كما يدعى كاتبها - كتبها اعترافا
 بجميل كل العاملين فى المؤسسات الثقافية وبخاصة فى الجامعات،
 وذلك بعد أن أكرموا وفادته، صورة تجعل كل من يقرأها يفر هاربا،
 ولا يفكر فى زيارة مصر، قد تكون بعض هذه السلبيات موجودة فى
 القاهرة ولكن هناك إيجابيات كثيرة لم تحظ منه بكلمة واحدة، ثم لكل
 وطن إيجابياته وسلبياته، والمنصف من يبرز هذا. وذاك، ولكننا نقول إن
 السيد: سعيد السرجاني يمثل بعض النفطيين الذين تناسوا ماضى بلادهم
 كما تناسوا بأن ماجنوه من ارتفاع لأسعار النفط جاء نتيجة لتضحيات
 المصريين بدمائهم فى حرب الثالث والسبعين، حرب أكتوبر المجيدة!
 وإذا تجاوزنا هذه الصورة المنفرة، فالحق يقال بأن معظم الإيرانيين قد
 أنصفوا مصر فى أشعارهم وكتاباتهم، ولهذا جاءت صورة مصر فى الأدب
 الفارسى الحديث صورة مشرقة فى معظم تفاصيلها.

الأثر الفارسي في مسرح شوقي

الأثر الفارسي في مسرح شوقي

كانت العلاقة بين الحياتين الأدبيين في كل من مصر وإيران خلال الفترة الواقعة بين أواخر القرن الماضي وأوائل القرن الحالي - وهي الفترة التي عاشها أمير الشعراء أحمد شوقي - علاقة وطيدة ، حيث كانت المطبوعات المصرية تصل إلى إيران بمجرد صدورها في مصر، وقد لعبت هذه المطبوعات المصرية دورا كبيرا في توجيه دفة الثقافة لدى أدباء إيران كما اعترف بذلك ملك الشعراء محمد تقى بهار. بل إن بعض هذه المطبوعات المصرية كانت تترجم إلى اللغة الفارسية في عام صدورها، وخير مثال لذلك كتابا قاسم أمين: تحرير المرأة، والمرأة الجديدة حيث قام يوسف اعتصامي والد الشاعرة الإيرانية الشهيرة پروين اعتصامي بترجمتها إلى اللغة الفارسية من عامي ١٩٠١ و ١٩٠٢ م.^(١)

وإلى جانب وصول الصحف والمطبوعات المصرية إلى إيران، فإن بعض الصحف الإيرانية كانت تطبع وتوزع في مصر، ومنها على سبيل المثال لا الحصر صحيفتا «ثريا»، و«حكمت»، وإلى جانب هذ الصحف وفد العديدون من أدباء إيران إلى مصر لطبع مؤلفاتهم في المطبعة الأميرية ببولاق، وذلك لتقدم الطباعة في مصر عما كانت عليه الطباعة الحجرية في كل من تبريز وطهران، حتى قيل بأن أعداد الكتب الفارسية التي طبعت في مصر خلال الحقبة الزمنية التي نتحدث عنها كانت تفوق أعداد الكتب الفارسية التي طبعت في مطابع إيران ذاتها. ولذا فإن المكتبات العامة والخاصة في مصر كانت تزخر بالعديد من هذه المطبوعات الفارسية سواء أكانت هذ المطبوعات متعلقة بكنوز الأدب الفارسي عبر العصور المزدهرة، أو كانت مطبوعات حديثة. ومن يزر دار الكتب المصرية أو مكتبة جامعة القاهرة يمكنه التأكد من صحة ما أقوله.

١ - بديع جمعة: دراسات في الأدب المقارن، ص ٣١٥ وما بعدها، بيروت: ١٩٨٠.

ولكن هل كانت هذه الصلة الوثيقة بين الأدبين العربى فى مصر
والفارسى فى إيران ذات أثر مباشر على أمير الشعراء أحمد شوقى ؟
لم يرد فى الأخبار التى رويت عن أمير الشعراء أحمد شوقى أنه كان
على معرفة باللغة الفارسية، وإنما أكدت هذه الأخبار إجادته اللغة التركية
قراءة وحديثاً، وأن مكتبته الخاصة كانت تضم الكثير من كنوز الأدب
التركى. وعلى الرغم من أن الدليل يعوزنا لإثبات إجادة شوقى أو حتى
معرفته السطحية باللغة الفارسية إلا أن مسرحيات شوقى فيها من الأثر
الفارسى ما يجعلنا نتبعه، علنا نجد بعد مزيد من الدرس هذه الصلة
المفقودة، سواء أكانت هذه الصلة مباشرة وأنه كان يقتنى بعض كنوز
الأدب الفارسى ويقرأ فيها، أو أنه قرأ الأدب الفارسى عن طريق الأدب
التركى حيث كان شوقى باعتراف الجميع يقرأ الكثير من نفائس الأدب
التركى، ومن المعروف أن الأدب التركى قد نشأ تحت رعاية الأدب
الفارسى.

وإذا انتقلنا إلى دراسة مسرحيات أمير الشعراء أحمد شوقى، فإننا
سنجد أكثر من مسرحية يظهر فيها كيف تأثر شوقى بالثقافة الفارسية.
وأول هذه المسرحيات من حيث البعد الزمنى الذى تمثله أحداثها،
مسرحية «قمبیز» حيث أن اختيار الموضوع يلفت نظرنا دون جهد كبير
إلى أن شوقى لكى يكتب هذه المسرحية لابد وأن يدرس حالة إيران
السياسية والاجتماعية فى الفترة التى عاشها قمبیز (٥٢٩ - ٥٢٢ ق.م)
وقد وضحت معرفته بتاريخ إيران من خلال حديث شوقى عن عبادة النار
وتقديس الإيرانيين لأهورامزدا، فقد قال شوقى على لسان قمبیز، وهو
يوجه حديثه إلى تيتاس:

أنا قمبيز بن كسرى
وأنا النار أصولى
أنا جبار الوجود
وينو النار جدودى
ثم قال محدثا نفسه:

رباه، نارا، ما الذى أجد

كأنما النار فى تتقد

يا نار كونى لى أورمازد كن عونى^(١)

كما ربط شوقى بين إله الشمس فى مصر وإله النار فى فارس، حيث
قال على لسان قبيز:

سلام الشمس من مصر
سلام النار من فارس
على الملكة نفريت
أو الملكة نيتاتس^(٢)

ومن الأحداث التاريخية التى أشار إليها شرقى، إصابة قمبيز بداء
الصرع مما جعله يفتك بأفراد أسرته، حتى قيل بأنه قتل أخاه «بردیس»
الوريث الشرعى لوالدهما كوروش مؤسس الأسرة الهخامنشية، بل إنه
قتل كل من شايخوا أخاه من أمراء وأميرات؛ فقال وهو يتحدث عن
الضجة والضجيج الذى يعلو فى ساحة القصر:

الملكة: أيها الحارس

الحارس: لبيك

الملكة: من يقتلون اليوم فى الساحة؟

١ - أحمد شوقى: مسرحية قمبيز ص: ٧٣ الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٢.

٢ - المرجع السابق: ص: ٦١.

الحارس: أخت الملك: أتوسيا

الملكة: أخت الملك؟

الحارس: أجل هيا

اتهمت ببرد يا

تتى: من برديا؟

الملكة: أخو الملك! يقطع فى الساحة رأس برديا

يا أسفا عاوده جنونه^(١)

كما أشار شوقى إلى أن ذهاب قمبيز إلى مصر كان ذهابا بلا عودة، حيث ثار الناس ضد قبيز بعد أن لحقت به الهزائم فى النوبة وبرقة، فنصبوا مكانه دارا الأكبر، وقد ذكر شوقى على لسان الملكة المصرية الأصل وهى توجه الحديث إلى قمبيز:

وأخشى أن يقول الناس زوجى غداة ذهابه نس الإيايا^(٢)

والى جانب هذه الأحداث التاريخية، أفاد شوقى من قصة وردت فى كتاب سياستنامه للوزير السلجوقى الشهير نظام الملك والمتوفى عام ٤٨٦هـ ومؤداها أنه كلما نطق أنوشيروان العادل بكلمة (زه) (بمعنى: حسنا) سارع الخازن بدفع ألف درهم لمن تقال له هذه الكلمة. وهذا ما أنطق به أحمد شوقى قمبيز عندما استعرض جنود النوبة، وهم يؤدون رقصة الحرب حيث قال:

زه يا جنود زه يا أسود

١- المرجع السابق: ص: ٥١.

٢- المرجع السابق: ص: ٥.

فقال كبير النوب لخازن الملك:

زه زه هات النقود

(يفدع الخازن إليهم مالا، فيأخذونه وينصرفون)^(١)

ومن أثر الثقافة الفارسية في المسرحية أيضا، تشبيه شوقي للمعشوقة بالصنم. وهذا تشبيه دارج في الأدب الفارسي وبخاصة الأدب الصوفي منه، وإذا تصفحنا غزليات حافظ وجلال الدين الرومي والعتار وغيرهم فسنجد هذا التشبيه قد ورد في أكثر من ألف غزلية لكل منهم، أما في الأدب العربي فلا وجود لهذا التشبيه، لذا فعندما يذكر شوقي هذا التشبيه، فإنه يستحق الاهتمام والبحث عن الأصل الذي استقى منه شوقي هذا التشبيه؛ وقد ورد هذا التشبيه في حديث تاسو الذي كان يدعى عشقه لنفريت في بداية المسرحية:

تاسو: نفريت؟

نفريت: تاسو هنا؟

تاسو: وهل أرى إلا هنا؟

أجول حول صنمي وحول هذى القدم^(٢)

وإذا انتقلنا إلى مسرحية «عنترة» فإننا نجد أمير الشعراء قد استخدم كذلك تشبيه المعشوقة بالصنم، وذلك في حوار ناجية مع إحدى الفتيات حول عنترة:

إحدى الفتيات: ناجية اسمعى، انظري من الفتى يا ناجية؟

١ - نظام الملك: سياستنامه، الفصل السادس والثلاثون، وكذلك الترجمة العربية ص ١٦٩.

٢ - مسرحية قمبيز: ص: ٧.

ذاك الفتى المهند الـ حلو الرقيق الحاشية

ناجية: كيف؟ ألم تربه قبـ ل هذه فى الناحية؟

الفتاة: لله أظرفه

ناجية: أحبيته يا غاوية

خلية فهو مغرم صبب بأخرى ساليه

الفتاة: من الفتى؟

ناجية: من عامر أبوه موفور النعم

يقال فى حظاره ألفان من حمر النعم

الفتاة: يحب من؟ يعبد من؟ يا ليتنى كنت الصنم

ناجية: إن التى هام بها بغير عبد لم تهـم

الفتاة: عبله؟

ناجية: لم لا؟ إنها الـ سوم حديث للأمم

صيرها عنتره ناراً على رأس علم^(١)

وجاء هذا التشبيه كذلك على لسان عنتره وهو يوجه حديثه إلى معشوقته عبله، عندما هاجمه مارد فصاحت عبله محذرة إياه منه، وبهذا استطاع عنتره القضاء عليه، وبعد ذلك قال لعبله:

قد كان لابد أن أراه لليت عينان فى قفاه

سيرى انظرى مات ورب الكعبة زمجرة الليث الهصور صعبة

١ - مسرحية عنتره، ص ١١، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٢.

بل اسمعى عبل، اسمعى كلامى لولاك لم أنج من الحمام
قد كنت أنت صنمى قد امى لك انجأهى وبك اهتمامى
رأيت فى عينيك قوس الرامى ويده فى جعبة السهام^(١)

كما تحدث أمير الشعراء أحمد شوقى عن جودة النسيج الفارسى
الموشى بالذهب ومن المعروف أن تفوق إيران فى هذه الصناعات النسجية
وبخاصة الحرير، قد أوجد طريقا تجاريا خاصا عرف باسم طريق الحرير،
حيث يحمل التجار حرير إيران ويتجهون به غربا حتى أوروبا وكانت هذه
الشهرة سببا فى محاولات الدول الاستعمارية كالبرتغال وهولندا وإنجلترا
وروسيا الاستحواز على هذه التجارة منذ عصر الدولة الصفوية وما
بعدها^(٢) فقال شوقى وهو يصف الهدايا التى جلبها صخر معه، ومن
بينها طرحة أحضرها لعبلة:

زهير: وتلك عمرو؟

عمرو: طرحة مثل ذنابى الطاوس

كمثلها ما لمست فى الوشى كف لا مس

عمرو مبتسما: هدية لعبلة؟

صخر: مجلوبة من فارس^(٣)

كما أشار أحمد شوقى كذلك إلى ما كانت تعيش فيه فارس من
بجوبة العيش كسكنى القصور والتحلّى بالجواهر والفراء، فعند ما جاء
أهل صخر يخطبون عبلة لابنهم، دار حوار بينهم وبين مالك والد عبلة:

١ - المرجع السابق، ص: ٧١.

٢ - بديع جمعة: الشاه عباس الكبير. راجع الفصل الخامس: بيروت: ١٩٨٠.

٣ - مسرحية عنتره، ص: ٥٣.

مالك: أصبحوا لي، أصحابكم غني؟ فغلبة طفلة تهوى الشراء
أحدهم: سنسكنها القصور كبرت كسرى ونلبسها الجواهر والفراء^(١)
وأشار شوقي كذلك إلى ما كان يرتديه قادة الفرس من أقراط وحلى،
فقال يصف ثياب رستم القائد الفارسي الذي تقدم للإطاحة بعنترة، فأرداه
عنترة قتيلاً:

عنتر: وثيابه؟

داحس: زرد الحديد وبرنس ضاف على أعطافه ووشاح
قد حَفَّ ساعده السوار ورف في أذنيه قرط اللؤلؤ اللماح^(٢)
(ولعل هذا يذكرنا بشعر الأعشى وهو يصف جنود فارس في معركة
ذى قار)

وحديثنا عن وصفه لثياب قواد الفرس وأقراطهم وحليهم يدفعنا
للحديث عن إسهاب شوقي في الحديث عن المعارك التي دارت بين
عنترة وروستم القائد الفارسي، ومحاولة عنترة قطع الطريق على القوافل
التي تساق كرها لكسوى حتى يكف أذاه عن القبائل العربية وما قاله
شوقي عن اعتراض عنترة لهذه القوافل، وتوزيعها على أهل البيد سكان
الخيام:

يا معشر البيد اسمعوا	بشرى لكم أهل الخيم
يظهر عبس ووراء الـ	حق إيل وغنم
ألفان أو ما نحو ذا	ك من كرائم النعم

١ - المرجع السابق، ص: ٤٣.

٢ - المرجع السابق، ص: ٨٣.

كانت إلى كسرى تساق وإلى أرض العجم^(١)

ثم أشار شوقى إلى السبب الذى كانت تساق من أجله هذه الإبل إلى كسرى، وذلك فى حديث دار بين العجوز أم سرحان وعيلة، بعد أن قتل عنتره سرحان المتعاون مع كسرى ضد قومه من العرب:

العجوز: وكنا نيمم أرض العراق لنجتازها

عيلة: نحو كسرى

العجوز: أجل

عيلة (غاضبة): لتعطوا الرُّشاً وتنالوا منى ويمنح سرحان بعض العمل

ويحكم فى البيد باسم الهمام وتحت ظبى فارس والأسل

ذليل يباب أنوشروان وعند الخيام العزيز البطل^(٢)

وينتهى الصراع بين عنتره وجيش كسرى بمقتل رستم على يد عنتره، وما قاله شوقى، وقد ظن البعض أن القتل عنتره فإذا به رستم:

واحد: من ذا الذى ذبح الغضنفر؟

الجماعة: رستم فحل العراق وكبشه النطاح

آخر: خطوه، ننظر، يا إلهى، ما أرى (ويكشف القائل الرأس)

ويل لهم أى الرؤوس أطاحوا؟

ماذاك عنتره ولكن رستم من يا ترى الجانى؟ من السفاح؟

آخر: من غير عنتره يجندل رستما قد كان بين الضيفمين كفاح

١ - المرجع السابق، ص: ٥٦، ٥٧.

٢ - المرجع السابق، ص: ٥٩.

ما تنظرون الرأس فى الدم غارقاً وعليه من كل الجهات جراح؟
لهفى على قسماته وجبينه عفت البشاشة وانطفأ المصباح
آخر (صائحا)

يا لكسرى ونواحي فارس لقتيل حول عبس دارس
فتك العبد بحرّ فارسى قائد الجحفل أسوار العراق^(١)

إذا كانت هذه الإشارات التى جاءت متفرقة بين ثنايا مسرحيتى
قمبيز وعترة ليست عند البعض كافية للحكم على أن شوقى قد قرأ عن
تاريخ الفرس وأدبهم ولو فى غير مناهله الأصلية ثم تأثر بما قرأ، فإن ما
فعله شوقى فى مسرحية مجنون ليلى لخير دليل على تأثره بالأدب
الفارسى تأثراً واضحاً جلياً.

وقبل أن نبدأ فى سرد ألوان هذا التأثير، يجب علينا أن نلقى نظرة
سريعة على ماحظيت به أخبار هذين العاشقين فى الأدب الفارسى. فإذا
كانت هذه الأخبار ظلت فى حدود الأخبار المتفرقة بين صفحات الكتب
العربية وبخاصة كتاب الأغاني لأبى فرج الإصفهاني فإن هذه الأخبار قد
تحوّلت إلى قصة ذات حبكة فنية فى الأدب الفارسى بفضل الشاعر
الكبير نظامى الكنجوى المتوفى عام ٥٩٥ هـ وقد أحدثت قصة نظامى
هذه حركة نشطة لنظم هذه الأخبار حتى وصلات عدد المنظومات
الفارسية لقصة العاشقين إلى أربعين منظومة، كان من أهمها بعد
منظومة نظامى، منظومات خسرو الدهلوى وعبدالرحمن الجامى وهاتفى
ومكتبى الشيرازى ثم انتقل هذا الاهتمام إلى الأدب التركى حيث حظى

١ - المرجع السابق، ص: ٨٧.

بأربع عشرة منظومة كانت فى معظمها واقعة تحت تأثير منظومة نظامى الكنجوى.

ومما يجدر الإشارة به أن بعض هذه المنظومات الفارسية والتركية قد وجدت فى مصر وليست من المستبعد أن يكون أمير الشعراء أحمد شوقى قد اطلع على بعضها، إما فى الأصل الفارسى وإما فى المنظومات التركية ربيبة المنظومات الفارسية، وعلى هذا يمكن القول بأن شوقى قد تأثر فى نظمه لهذه المسرحية بالمعالجة الفارسية وبخاصة فى منظومة نظامى حتى ولو جاء هذا التأثير عن طريق غير مباشر، وأعنى به المنظومات التركية.

وقبل أن أسوق الأدلة على صحة هذا الرأى يجب الاعتراف أولاً بأن أحمد شوقى كان شديد الالتصاق بالروايات العربية كما جاءت فى كتاب الأغاني، حتى أنهم أستأذنا المرحوم الدكتور محمد مندور بأنه كان يتقيد فى مسرحيته بالكثير من التفاصيل التافهة أو الخرافية التى يرويها صاحب الأغاني.^(١)

ولكن إلى جانب هذا الالتصاق الشديد بالروايات العربية، وكذلك ما أدخله من فن جديد على الأدب العربى، وأعنى به الفن المسرحى، فإن أمير الشعراء - كما سبق أن ذكرت - قد تأثر بالمنظومات الفارسية وبخاصة منظومة نظامى الكنجوى، وهذه الأدلة على صحة هذا الرأى:

أول دليل على تأثر شوقى بقصة نظامى مائل فى الاتفاق حول المغزى الحقيقى للقصة عندهما، واختلافه عما كان عليه هذا المغزى فى الروايات العربية القديمة. فإذا كان المغزى فى روايات الأغاني يتمثل فى حب عذرى شبيب صاحبه بمحبوبته، فحرمت عليه، فإن المغزى فى

١ - محمد مندور: مسرحيات شوقى، ص ٩٢، القاهرة، ١٩٥٦.

المنظومات الفارسية أصبح التعبير عن الحب العرفاني الصوفي بكل ما يمثله هذا الحب الصوفي من رسوم وتقاليد وسمات، حيث لم يعد قيس يتعلق بجمال ليلي الجسدى ويغنى وصالها، بل أصبح حبه أسمى من ذلك، إنه الحب لذات الحب، إنه الحب للمحبوب الأزلى الذى أصبحت ليلي رمزاً له، وقد قال نظامى على لسان قيس وهو يشرح لصديقه هذا الحب: «لاتظن أنى ثمل وأنى صريع الهوى، لا إئننى سيد مملكة العشق، لقد تجردت من أسباب المادة وربقة الشهوات، وتخلصت من أوشاب النفس، ورددت سوق الهوى كاسدة فالعشق الطاهر خلاصة الوجود، والعشق نار وأنا لها عوداً»^(١).

وإذا انتقلنا إلى مسرحية شوقى، وجدنا أن الحب قد انتقل بدوره من حب عذرى فى الروايات العربية الى حب صوفى فى المسرحية، حيث لم يعد قيس يرى من الوجود كله إلا المحبوب الأزلى الممثل فى ليلي، لأن كل ما عداه عدم فى عدم. وقد وضع هذا الموقف عندما ذهب قيس فى صحبة ابن عوف إلى حى ليلي، فوقف الأهل ينتظرونه وهم مدججون بالسلاح، فحاول ابن عوف تخذير قيس، إلا أن المحب لم يكن يرى من الحى غير ليلي، وهذا موقف أصحاب «وحدة الشهود» حيث لا وجود إلا للمحبوب ولا شهود إلا لصاحب الشهود ومما قاله شوقى فى هذا الموقف:

ابن عوف: قيس، انتبه، قيس!

قيس: من المنادى؟

ابن عوف: الحى فى السلاح سدّ الوادى

١ - راجع ملخص المنظومة الفارسية فى «دراسات فى الأدب المقارن: «البدیع جمعة»، ٣١٨، بيروت: ١٩٨٠.

وأنت قيس بعد حين غاد
على خصوم لدد شداد
فالق الرجال صاحى الفؤاد
لاتلقهم مضيع الرشاد
قيس:

أُبصرُ يا بن عوف حى ليلى
تدجج فى السلاح ولا تراها
فما لى أن أحقق غير ليلى
وإن كثر السواد لدى حماها
لقد ألقى هوى ليلى حجاباً
على عيني فلست أرى سواها^(١)

ودليل ثان على تأثر أحمد شوقي بالمنظومات الفارسية ماثل فى معنى المجنون الذى لقب به قيس، فالمجنون فى المنظومات الفارسية غيره فى الروايات العربية، حيث كان الجنون فى الروايات العربية يعنى الخروج عن تصرف العقلاء، لذا نعت قيس بهذا الجنون بعد أن ترك الحياة مع أسرته وآثر العيش مع الظباء فى القفار والصحارى، وما تبع ذلك من إتيان أفعال لا تتفق ومنطق العقل البشرى.

أما الجنون فى المنظومات الفارسية فهو جنون صوفى يعنى الخروج عن سلطان العقل رغبة فى الانتقال إلى سلطان القلب، وقد نعم قيس بلقب المجنون عند نظامى وهو مستقر بدار أبيه، ولكن الحب كان قد تمكن من قلبه، وقد وضح ذلك فى حديثه لأبيه عندما حاول الأب نصحه بأن يثوب إلى رشده، فإذا به يقول ما ترجمته: «.. يا من أنا وليد فضله، ومن نصيحتة حلية أذننى ومصباح روحى إننى أحاول حمل نفسى على العمل وفق نصائحك فلا أستطيع، فلا تفرض على قيود العقل بعد أن تحررت منها، ولا تسخر منى لأننى رهين العشق فالعالم عندى لا

١ - مسرحية «مجنون ليلى» ص: ٤٥ الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٢.

يساوى بدون العشق ذرة، وكل ما سوى العشق ليس له من ذاكرتى إلا النسيان..»^(١).

وهكذا كان لقب المجنون فى الأدب الفارسى أكثر تداولاً من اسم قيس نفسه وهذا ما نراه فى مسرحية شوقى حيث أثر أن يعنون المسرحية بـ «مجنون ليلى» ولم يجعل عنوانها قيس ليلى ككثير عزّة، بل إنه أسقط قيساً وأبقى لقبه.

ودليل ثالث على تأثر أحمد شوقى بالمنظومات الفارسية نجده واضحاً فى مبدأ العزوبة الذى شمل قيساً وليلى وورداً، وإن كان قد تابع الروايات العربية وكذلك الفارسية فى عزوبة قيس ورفضه الزواج بعد أن منعت عنه ليلى.

أما عن عزوبة ليلى وعذريتها فإذا كانت الروايات العربية قد أشارت إلى أن زوج ليلى قد باشر معها كل حقوقه الزوجية، فإن المنظومات الفارسية ذكرت أن ليلى رفضت أن تمكن زوجها من نفسها، حيث أثرت العزوبة، وهذا موقف صوفى معروف، ومما قالته لزوجها فى هذا الصدد: أقسم بخالقى الذى صورنى على هذا الجمال، لن تنال منى غرضاً، وإلا أرقى دمي بسيفك». وإذا انتقلنا إلى مسرحية شوقى نجده يركز على عزوبة ليلى وعذريتها، وهذا موقف لا ينجده فى أى رواية عربية قديمة، ولا شك أن أحمد شوقى قد أخذ هذه الفكرة عن المنظومات الفارسية أو التركية التى أجمعت كلها على عزوبة ليلى وقد صرح أحمد شوقى بعزوبة ليلى فى ذلك الحوار الذى دار بين ليلى وجارتها عقراء:

ليلى: لم تعذب بالحب عذراء قبلى كعذابى ولن تعذب بعدى

١ - راجع ملخص المنظومة بكتاب دراسات فى الأدب المقارن، ص ٣١٦.

عفراء: هي عذراء؟ ربي اشهد

ليلي: أجل عذراء حتى يضمني ركن لحدي

عفراء: والذي أنت تحته؟

ليلي: تحتي بعل غير ذي جفوة ولا مستبد

راعني اللوم من جميع النواحي فتواريت في مرؤة ورد^(١)

وإذا كانت العزوبة متوقعة من قيس وليلي، فلم يكن هذا متوقعا من زوجها الذي أصبح كما يقول نظامي يكتفى من ليلي بالنظر إلى جمالها ويكبر فيها الإخلاص في الحب، ولا يحاول ممارسة حقوقه الشرعية، وهذا ما عبر عنه شوقي على لسان ورد، حيث قال:

منذ حوت دارى ليلي ما خلوت من ندم

كانت إطاقتي بها كالوثني بالصنم

وربما جئت فرا شها فخانتني القدم

كأنها لى محرم وليس بيننا رحم^(٢)

ومما قاله أيضا:

إذا جئتها لأنال الحقوق نهنتى قداستها أن أنالا^(٣)

وموقف ورد هذا جديد كل الجدة على الروايات العربية، لذا من المرجح أن شوقي قد أخذه عن المنظومات الفارسية أو ربيبتها التركية، أخذه حتى تكتمل عناصر الحب الصوفي لدى الأبطال الثلاثة قيس

١ - مسرحية مجنون ليلي: ص: ١٠٠، ١٠١.

٢ - المرجع السابق، ص: ٩١.

٣ - المرجع السابق، ص: ٩٢.

وليلى وورد. وهكذا كانت النزعة الصوفية التي نلمسها فى مسرحية شوقى وافدة من الأدب الفارسى.

ودليل رابع على تأثر أحمد شوقى فى مسرحيته «مجنون ليلى» بمنظومة نظامى الفارسية مائل فى خاتمة المسرحية، فقد أشارت معظم الروايات العربية القديمة بأن نهاية القصة قد تمثلت فى ضعف شديد وهزال مضن عضال أصاب قيسا نتيجة لزهده فى الطعام، ثم مالبث أن أسلم الروح وحيدا، حتى عثر أحد شيوخ بنى مرة على جثته ميتا فى واد كثير الحجارة، فاحتمله أهله وغسلوه وكفنوه ودفنوه. وكانت جنازته أحر جنازة، إذ لم تبق فتاة فى الحى إلا وخرجت حاسرة الرأس مولولة، كما اجتمع فتيان الحى ليكون عليه أحر بكاء، ثم وفدت وفود القبائل معزية مواسية، وكان من بين الوفود وفد من حى ليلى. وقد رأس الوفد والدها، وكان أشد المعزين جزعا وبكاء، وهو يقول: «ما علمنا أن الأمر يبلغ كل هذا، ولكننى كنت امرءا عربيا أخاف من العار وقبح الأحداث ما يخافه مثلى، وهكذا زوجتها وخرجت عن يدي، ولو علمت أن أمره يجرى على هذا ما أخرجتها عن يده، ولا احتملت ما كان على فى ذلك».

أما خاتمة القصة كما جاءت فى منظومة ليلى والمجنون الفارسية لنظامى الكنجوى، فتتمثل فى وفاة زوج ليلى، ثم احتجاج ليلى طيلة مدة الحداد كما تقضى بذلك التقاليد وقد كان هذا الاحتجاج حائلا دون لقاء قيس مما عجل باعتلال صحتها، وعندما دنا موعد رحيلها طلبت من أمها أن تخبر قيسا بعد أن تلفظ أنفاسها: «بأنها أخلصت فى عشقها له وقدمت روحها قربانا لهذا العشق».. والآن وهى خلف حجب التراب تتألم حنينا إليه، لذا فإنها تقف فى الطريق ترقب مقدمه، وستظل واقفة حتى يلحق بها. وما أن علم قيس بوفاتها سارع نحو قبرها، وظل

يكيها ويلبل قبرها بغزير دموعه حتى يتخلص من ربة الجسد ويلحق
بمعشوقته، فدفن معها. وهكذا نأما بالحب إلى يوم القيامة، وبعدا عن
طريق الملامة. وبمثل هذه الخاتمة الفارسية، ختم أمير الشعراء أحمد
شوقي مسرحيته، حيث خص الفصل الخامس والأخير بالفاجعة، فقد بدأ
الفصل الخامس بموت ليلي بعد معاناة مريرة وآلام مضنية، وبعد فترة خبر
قيس، فلم يطق سماع الخبر وسقط مغشيا على قبرها، وظل يكيها حتى
ذبل عوده وأسلم الروح، وهكذا لحق بمحبوبته، عله يظفر بها بعد أن
حرمت عليه في الدنيا، وما قال قيس وهو واقف على قبرها يكيها
ويتمنى اللحاق بها:

عرفت القبور بعرف الرياح	ودل على نفسه الموضع
كثكلى تلمس قبر ابنها	الى القبر مم نفسها تدفع
هداها خيال ابنها فاهتدت	وليلي الخيال الذى أتبع
لنا الله يا قلب! ليلاك لا	تجيب وليلاى لاتسمع!
فجعنا بليلى ولم نك نحسب	يا قلب أنا بها نفجع
« ثم يقترب إلى القبر باكيا فيكب بوجهه على حجر من أحجاره »	
أعيني هذا مكان البكاء	وهذا مسيلك يا أدمع
هنا جسم ليلي هنا رسمها	هنا رمقى فى الثرى المودع
هنا من شبابى كتاب طواه	وليس بنا شره البلقع
طريد الحياة ألا تستقر	ألا تستريح، ألا تهجع
بلى قد بلغت إلى مفزع	وهذا التراب هو المفزع ^(١)

١ - المرجع السابق، ص: ١١٨، ١١٩.

وشاهد خامس وأخير يثبت تأثر أحمد شوقي بالمعالجة الفارسية لقصة
العاشقين ليلى وقيس، وهذا الشاهد واضح فى بيان حياة العاشقين بعد
الموت وأن مآلهما الجنة، فقد قال نظامى بما ملخصه:

كان لقيس صاحب اسمه «زياد» رأى فى منامه بعد وفاة ليلى وقيس
— روضة مزدانة تكثر بها الأشجار الباسقة، ووسط هذه الروضة ملكان
مباركان السريرة سعيدا الجدد، وقد استويا على سرير أقيم على حافة نبع،
وقد فرش السرير بالديباج كديباج الجنة فى جماله وقد ارتدى الملكان من
رأسيهما حتى الأقدام ثيابا من نور، وعلى أكفهما كئوس الخمر. جلس
الملكان يقص كل منهما على الآخر قصته، أنا يضعان شفاههما على
شفاه الكأس، وأنا يتبادلان القبلات، ووقف دونهما شيخ كهل يتعهدهما
بالخدمة، وفى كل لحظة يرفع يده وينثر قطعا من الذهب على مفرقهما،
فسأل زيد عن هذين الملكين، فأجابه ذلك الشيخ المحنك بأنهما ليلى
وقيس، فقد حرما الراحة فى الدنيا، لذا نالا مرادهما فى الآخرة، وهكذا
ينعم فى هذا العالم الآخرى كل من لم يطعم الهناءة فى ذلك العالم
الدينوى!!

وبمثل هذا تحدث شوقي على لسان ابن ذريح فى آخر المسرحية،
حيث وضع ما تخظى به ليلى فى دار الخلود، وكيف أحاطت بها
الملائكة، حيث قال:

يا ليلى، قبرك ربوة الخلد	نفح النعيم بها ثرى نجد
فى كل ناحية أرى ملكا	يتنفسون تنفس الورد
لبسوا الجمان الرطب أجنحة	وتناثروا كتناثر العقود
وتقابلوا فعلى تحيتههم	مسك السلام وعنبر الرد

وكان نجواهم وسبحتهم صوبُ الغمامة أوصدى الرعد

نفحات طيب ههنا وههنا ما للرياض بهن من عهد^(١)

وبعد كل هذه الشواهد التي تحفل بها مسرحية «مجنون ليلي» وكذلك ما سبقها من شواهد في مسرحيتي قمبيز وعنترة لم يعد في وسعنا الا الاعتراف بأن أمير الشعراء أحمد شوقي قد وسع مضمار ثقافته ليضم إلى جانب الثقافتين العربية والفرنسية ثقافة شرقية تركية وفارسية. وإذا كانت ثقافته التركية أمراً مسلماً به، فإن احتمال معرفته بالثقافة الفارسية أمر وارد سواء أ جاءت هذه الثقافة عن طريق المطبوعات الفارسية التي طبعت في مصر إبان حياته، أو جاءته عن طريق القراءة عن هذه الثقافة الفارسية من خلال المطبوعات التركية أو الترجمات الفرنسية. وهذا ما دفعنا للقول بأن شوقي قد تأثر بالثقافة الفارسية وهو ينظم بعض مسرحياته.

١ - المرجع السابق، ص: ١٢٣.

العلاقات المصرية الإيرانية في عهد داريوش الكبير ٥٢٢ - ٤٨٦ ق.م

العلاقات المصرية الإيرانية في عهد داريوش^(١) الكبير ٥٢٢ - ٤٨٦ ق.م

مصر قبل مقدم داريوش:

تولى داريوش الكبير حكم الدولة الهخامنشية^(٢) عام ٥٢٢ ق.م^(٣) وذلك بعد أن قضى على الفتن والاضطرابات التي اجتاحت إيران عندما طال غياب قمبيز في مصر (دخل قمبيز مصر عام ٥٢٥ ق.م، ومكث بها حتى عام ٥٢٢ ق.م)^(٤) وقد كانت مهمة داريوش في الإمساك بزمام أمور الإمبراطورية الهخامنشية صعبة للغاية، حيث الفتن مشتتة في كل أقاليمها تقريباً، فبدأ داريوش بإخماد الفتنة في إيران أولاً، على أن يتولى مهمة القضاء على الفتن الخارجية بعد ذلك، وما أن انتهى من إيران وأعاد الأمور إلى نصابها، حتى بدأ بإخماد فتنة بابل وسلك في ذلك مسلكاً عنيفاً. ثم واصل سيره حتى أخمد فتنة الشام.

ولم تكن مصر بمعزل عن هذه الفتن، بل شاركت الأقاليم الأخرى في الثورة ضد الحكم الفارسي، وقد تضاربت الأقوال حول سبب هذه الفتنة.

فقد قال معظم المؤرخين بأن قمبيز عندما غادر مصر عام ٥٢٢ ق.م، وتوجه صوب الشام قاصداً إيران، ليقضى على مناوئيه ويسترد عرشه، ولى على مصر حاكماً فارسياً يدعى (أرياندس)^(٥)، وكان حاكماً قاسياً، مستبداً ظالماً، مما جعل المصريين ينفرون منه ومن الحكم الفارسي

(١) تذكره الكتب العربية باسم دارا.

(٢) تذكر أحياناً باسم الأكمنية.

(٣) يانو دكتور شيرين بياني: داريوش بزرگ ص ٣ طبع إيران ١٣٥٠ ش.

(٤) دكتور أحمد فخري: مصر الفرعونية ص ٤٣٢ الطبعة الثالثة، القاهرة ١٩٧١.

(٥) سليم حسن: مصر القديمة جـ ١٣ ص ٣: طبع القاهرة.

عامة، إلى جانب نفورهم ممن عينه والياً عليهم، ألا وهو قمبيز، الذي أساء إلى المصريين إساءات بالغة قبل رحيله عنهم^(١).

وصلت أخبار هذه الفتنة إلى مسامع داريوش الكبير وهو مشغول بإعادة الأمن والطمأنينة إلى إيران وما جاورها، فعزم على إخماد تلك الفتنة لابتعد السيف، ولكن بالتودد إلى المصريين، والقضاء على مبعث تظلمهم ونفورهم، وإصلاح ما أفسده قمبيز وآريانوس.

ولكن هناك رأى آخر يقول إن الفتنة التي حدثت في مصر لم تكن انتفاضة شعبية ضد الحكم الفارسي ممثلاً في آريانوس، بل كانت فتنة يقودها آريانوس نفسه، حيث كان يفكر في الاستقلال بمصر وما جاورها عن حكم الدولة الهخامنشية منتهزاً فرصة رحيل قمبيز عن مصر، وانشغال داريوش بفتن إيران وبابل وغيرهما^(٢).

ومفاد هذا الرأى الأخير أن الفتنة في مصر لم يكن مبعثها تحرك مصرى ضد حاكم أجنبي ظالم، بل كانت بسبب خيانة أحد الولاة الإيرانيين، وهذا رأى خاطيء، والدليل على أن الصواب قد جانبه يبدو واضحاً في أمرين صدرتا عن داريوش:

الأمر الأول: أصدره داريوش عام ٥١٨ ق.م، أى قبل مقدمه إلى مصر بعام واحد، وهو أمر موجه إلى آريانوس لى يجمع ذوى العقول والمتبحرين بالقوانين المصرية، ويطلب منهم امتثالاً لأمر الشاه، أن يجمعوا القوانين المصرية القديمة التي كانت سائدة حتى العام الرابع والأربعين من حكم أمازيس (أى السنة التي فتح الإيرانيون فيها مصر وهي عام ٥٢٥ ق.م) وقد تحققت رغبة داريوش في خلال ستة عشر عاماً، فشعر

(١) حسن بيرنيا: إيران باستان جـ ١ ص ٥٦٦ طهران ١٣٣١ ش.

(٢) حسن بيرنيا: إيران باستان جـ ١ ص ٥٦٥، سليم حسن: مصر القديمة جـ ١٣، ص ٢١.

المصريون بالغبطة لهذا العمل، واعتبروا داريوش واحداً من منفذى قوانينهم، وبخاصة أنه أمر بترجمة القوانين المصرية إلى عدة لغات. وقام بنشر الترجمة الآرامية لهذه القوانين فى جميع ربوع إيران^(١).

وصدور هذا الأمر يفيد بأن آرياندس كان يعترف بتبعيته للملك الهخامنشى، بدليل أنه نفذ الأمر الصادر إليه وجمع رجال القانون للعمل قبل مقدم داريوش إلى مصر، كما أن هذا الأمر يفيد بأن داريوش كان يرغب فى استمالة المصريين قبل حضوره إليهم، حتى يمتص غضبتهم ويؤكد لهم بأنه حريص كل الحرص على أن تحكم مصر وفق قوانينها وشريعتها التى كانت سائدة قبل مقدم الفرس إليهم، ولو لم تكن الفتنة انتفاضة مصرية، لما صدر مثل هذا الأمر.

أما الأمر الثانى أصدره داريوش قبل مقدمه أيضاً فكان موجهاً إلى مستشاره المصرى وطبيبه فى نفس الوقت وهو أوجا حور رسن^(٢) ومضمون هذا الأمر يتلخص فى ضرورة سفر هذا الطبيب المصرى بسرعة إلى مصر لكى يعيد بناء المدرسة الطبية فى سايس والملحقة بمعبد نيت، والتى خربت فى عهد قمبيز^(٣).

وحرص داريوش على سرعة وصول هذا الطبيب إلى مصر ليعيد تعمير المدرسة الطبية، يوضح لنا مدى رغبة داريوش فى إصلاح كل ما يشكو منه المصريون، وما يسبب ثورتهم على الحكم الفارسى.

(١) ع. شاپور شهبازى: جهاندارى داريوش بزرگ، ص ١٢٠ طهران ١٣٥٠ ش.
(٢) كان أوجا حور رسن قائداً للأسطول المصرى فى عهد بسمتك الثالث ولكنه كان شديد الميل إلى الفرس وعاملاً مساعداً فى دخولهم مصر، لذا كان ذا حظوة لدى الفرس حظى بألقاب عدة منها (رئيس الأطباء) ولابد أن هذا اللقب كان لقباً حقيقياً، لالقب شرف وحسب.. وبعد وفاة قمبيز سافر إلى عيلام، ولكن دارا أرسله إلى مصر مرة أخرى وكلفه بهذه المهمة: مصر القديمة جـ ١٣ ص ٦٦، ٦٧.
(٣) إيران باستان جـ ١، ص ٥٦٨.

ولعل داريوش أراد بهذين الأمرين أن يمهد الجو العام في مصر قبل مقدمه إليها في عام ٥١٧ ق.م^(١) وهما يثبتان أن الثورة كانت شعبية وليست من صنع آرياندس الحاكم الإيراني في مصر. وهذا الرأي يؤيدني في ترجيحه الإيرانيون أنفسهم، حيث يقول صاحب كتاب: جهانداري داريوش بزرگ:

إن المصريين المعتزين بتاريخهم القديم، والذين لا يقبلون تسلط الآخرين تذرعوا كثيراً بالصبر حيث تملكهم الغضب من آرياندس، وأخذوا يتلمسون أقرب فرصة للإطاحة به بعيداً عن ديارهم، فما أن ترامت إلى مسامع المصريين أخبار الفتن والثورات في أرض إيران حتى ثاروا ضد هذا الحاكم الفارسي^(٢).

ومما يرجح أن الفتنة كانت مصرية شعبية تلك الإصلاحات التي أقدم داريوش على تنفيذها بعد مقدمه إلى مصر مباشرة، والتي كانت تبغى في المقام الأول تهدئة الثائرين، ولكن ما هذه الإصلاحات؟

مقدم داريوش الكبير إلى مصر، وأهم إصلاحاته فيها:

قبل أن يتوجه داريوش إلى مصر قضى ثلاث سنوات في التعرف على عادات المصريين وعقائدهم ومجالات تفكيرهم^(٣) وكان مستشاره في ذلك أوجا حوررسن^(٤) وبعد أن استقرت الأمور في العاصمة الإيرانية وما جاورها، وبعد أن تعرف على كل ما يهمه من عادات المصريين وتقاليدهم، وبدأ في التقدم صوب مصر، فسلك نفس الطريق الذي سلكه

(١) على سامي: پایتخت های شاهنشاهان هخامنشی: تخت جمشید، ص ٧٢ شیراز ١٣٤٨.

(٢) ع. شاپور شهبازی: جهانداري داريوش بزرگ، ص: ٥٧.

(٣) جهانداري داريوش بزرگ، ص ٥٧.

(٤) مصر القديمة ج١٣ ص ٦٦.

قمبيز منذ بضع سنوات خلت. وأخيراً دخل منف عام ٥١٧ ق.م والتقى
بأكابرها، وتحدث معهم، وأظهر تفهماً كبيراً لموقفهم، وأظهر في حديثه
معهم مدى حرصه على عاداتهم وتقاليدهم، كما أسكن قلوب
مستمعيه، ولكي يؤكد لهم حسن نواياه، ورغبته في إصلاح ما حاق بهم
من ظلم، أقدم على تنفيذ إصلاحات عدة، أهمها:

١ - سارع بالتخلص من آرياندس حيث ألقى القبض عليه وأمر به
فقتل^(١)، وبذلك خلص المصريين من رأس الظلم وأس كل بلاء،
وهكذا قدم آرياندس كبش فداء حتى يقبل المصريون عليه.

٢ - ولكي يعترف به المصريون ملكاً عليهم، أعاد تنصيب نفسه
ملكاً، متبعاً في ذلك التقاليد المصرية حيث ارتدى ملابس الفراعنة^(٢).
وتليت الطقوس الفرعونية، ووضع على رأسه التاج وفقاً للتقاليد المصرية،
وقبل أن تطلق عليه الألقاب الفرعونية^(٣) وعلى هذا فهو ابن نيت آلهة
سايس (صا الحجر) وأم الآلهة، وهو أخورع إله الشمس^(٤).

ولعل تسمية الكهنة له باسم فرعون، كان الغرض منه أن الكهنة
المصريين يريدون الحفاظ على فكرة استمرار بقاء المملكة المصرية مستقلة
دائماً، لذا نجدهم يعدون ملوك فارس أسرة حاكمة مصرية وهي الأسرة
السابعة والعشرون، ونفس هذه النظرة وجدناها في موقف الكهنة من
الإسكندر وبطليموس وهدريان، حيث اعتبروهم فراعنة حقيقيين^(٥).

٣ - أدرك داريوش من خلال تعرفه على عادات المصريين وتقاليدهم،

(١) المرجع السابق: ص ٤.

(٢) فريدون شايان: سیری در تاریخ ایران باستان، ص ١٠٤ طهران: ١٣٥١ ش.

(٣) جهانداري داريوش بزرگ، ص: ٦٠.

(٤) مصر القديمة ج٣، ص: ٧٩.

(٥) أدولف أرمان وهرمان رانكه: مصر والحياة المصرية في العصور القديمة، ترجمة عبد المنعم أبى
بكر ومحرم كمال، ص: ٣٨ طبع القاهرة.

مدى القوة التى يتمتع بها الكهنة، ومدى تأثيرهم الروحى على عامة الشعب المصرى فحرص على أن يكسبهم إلى جانبه، لكى يضمن بمساعدتهم الوصول إلى قلوب المصريين والحظوة بحبهم وتعاطفهم. ومن القوانين التى أصدرها لكسب هؤلاء الكهنة، ذلك القانون الذى يعيد لهم حق التصرف فى إيرادات المعابد بعد أن كان قمبيز قد صادر معظمها^(١).

٤ - مشاركة المصريين فى تشييع جنازة عجل آيبس الذى اتهم قمبيز بقتله، وعدم تمكين المصريين من تشييع جنازته، فما أن جاء داريوش إلى مصر حتى أعد المصريون العدة لتشييع جثمان عجلهم المقدس فى جنازة مهيبه تليق بمكانته لديهم، فسارع داريوش إلى مشاركتهم العزاء، وأمر بأن يدفن العجل بالمقبرة الإلهية بسرايوم، كما قرر مكافأة ضخمة قوامها ما يعادل اليوم إثنى عشر ألف جنيه مصرى لمن يستطيع إيجاد عجل آخر تتوفر فيه مواصفات عجل آيبس كما وردت فى ديانة الفراعنة^(٢).

٥ - استجاب داريوش لمطالب الكهنة بإصلاح المعابد التى خربها سلفه قمبيز حيث قام بزيارة المعابد المصرية، وأظهر احتراماً كاملاً لها، ولما يوجد بها من تماثيل، كما رُمّم الكثير منها، فقام بترميم معبد آمون، وهو المعبد الذى كان أحمر قد شرع فى ينائه، ولكنه لم يكمله، فقام داريوش باتمامه^(٣) كما أصدر أوامره إلى الولاة الفرس بمراعاة شعور المصريين، وتقديم القرابين للآلهة المصرية. وكان لهذا التسامح الذى أبداه داريوش أثره بين الفرس الوافدين إلى مصر، فبدأ كثيرون منهم يعتقدون

(١) أحمد فخري: مصر القديمة ص: ٤٣٥.

(٢) إيران باستان، ج١ ص ٥٦٦.

(٣) مصر الفرعونية: ص ٤٣٥.

الديانة المصرية، ويتسمون بأسماء مصرية^(١). وليس فى هذا الأمر ما يدعو إلى الدهشة فإذا كان داريوش قد أطلق على نفسه - ولو على سبيل التظاهر - لقب فرعون واعتبر نفسه ابن الإلهة نيت وأخا رع، فلا يوجد ما يمنع الفرس الموجودين فى مصر من التشبه بمليكهم والدخول فى الديانة المصرية القديمة.

٦ - أظهر داريوش اهتماماً كبيراً بالزراعة وبمشاكل الري فى مصر وبخاصة فى المناطق التى يصعب فيها الحصول على المياه أو الحفاظ عليها، فأدخل فى مصر نظام الري الإيرانى، وهو يعتمد على حفر قنوات مغطاة تحت الأرض لكى لا تتعرض للبخار، كما أنها قنوات مبنية ببناء لا يسمح بتسرب المياه خارج القنوات، وقد نفذ داريوش هذا النظام فى منطقة واحة الخارجة^(٢)، وهكذا تعلم المصريون طريقة جديدة فى الري لم تكن معروفة لديهم من قبل.

٧ - بعد أن أعاد داريوش تعمير المدرسة الطبية فى سايس وأمدّها بكل احتياجاتها وجد أنه من الضرورى أن يتوفر لهذه المدرسة مكتبة مزودة بالعديد من الكتب والمؤلفات حتى تؤدى رسالتها على الوجه الأكمل، فقام بإحضار الكتب إلى مصر وافتتح أول دار للكتب بها، وقد تم معرفة هذا الخبر من قاعدة تمثال لمصرى يسمى أوزاهاريس نبتى^(٣).

٨ - اهتم داريوش بالعمران والبناء فى مصر، ويبدو ذلك من الإصلاحات التى أنجزها ومن المباني التى أعاد ترميمها، ومن المعابد التى شيدها، كما يستدل على ذلك من خلال النقوش التى عثر عليها فى

(١) مصر الفرعونية: ص ٤٣٥.

(٢) بايتختهاى شاهنشاهان هخامنشى، ص: ٣٠.

(٣) دكتور حسين مجيب المصرى: إيران ومصر عبر التاريخ، ص ١٣ القاهرة: ١٩٧٢م.

محاجر (وادی الحمامات) والتي تمثل العمل وهو يمضى بهمة ونشاط، حتى أصبح حجم العمل يحتاج للإشراف عليه موظفاً كبيراً يدعى خنم - أب - رع الذى كان يحمل لقب المشرف على الأعمال بالمحجر^(١).

٩ - قام داريوش بإصلاح الطرق البرية فى مصر، وأعاد تعميرها بعد أن لحقها الخراب نتيجة للفتن والاضطرابات التى حدثت قبل قدومه إلى مصر، كما شق طريقاً برياً يربط بين إيران ومصر، وهو الطريق الذى كان يربط بين منف العاصمة المصرية وبين مدينة كوروش الواقعة على نهر سيحون^(٢)، ثم يواصل امتداده حتى يصل إلى الصين^(٣). وقد زود هذا الطريق بالنزل، حيث يجد المسافرون أماكن للراحة، وتناول الطعام والمبيت كذلك، كما أن هذه النزل قد زودت بالحظائر التى تضم عدداً من الخيل السريعة والمعدة لنقل المسافرين من نزل إلى آخر، ومن مرحلة من مراحل الطريق إلى مرحلة أخرى وإعداد هذا الطريق والطريق الآخر الذى ربط بين العاصمة الإيرانية وبلاد الروم، والذى كان يعرف باسم الطريق الملكى^(٤)، قد ساعد عمال داريوش على التنقل بسرعة وإيصال أوامر الملك إلى حكام الأقاليم بسرعة فائقة. وقد زودت هذه الطرق الهامة بحراسة مشددة حيث أقيمت الحصون والقلاع عند اجتياز هذه الطرق لمنطقة جبلية وعرة، فتكون مهمة الحصون حماية المسافرين من قطاع الطرق الذين يتخذون من شعاب الجبال مأوى لهم^(٥).

(١) مصر القديمة ج٣ ص ٩٨.

(٢) إيران باستان ج١ ص ٥٦٦.

(٣) د. عبدالنعم حسنين: الإيرانيون القدماء ص ٤٤٢ القسم، الخامس من كتاب حضارة مصر والشرق القديم، طبع القاهرة.

(٤) مصر القديمة ج٣ ص ٥٩٥.

(٥) إيران باستان ج١ ص ١٤٩٢.

ولكى ندرك أهمية هذا الطريق الذى شقه داريوش للربط بين أرض إيران وأرض مصر، لابد وأن ندرك مقدار الصعوبات التى كان المسافرون بين البلدين يتعرضون لها قبل إتمام ذلك الطريق، حيث كان المسافر من إيران يعبر دجلة والفرات ثم يتوجه إلى سوريا ومنها إلى صور أو صيدا حيث يأخذ سفينة إلى مصر أو يضطر لعبور الصحراء بين فلسطين ومصر عن طريق برزخ السويس. وكم كان عبور الصحراء غاية فى الصعوبة لقلة العمران وندرّة المياه، مما كان يدفع الحكام المصريين قبل عصر داريوش إلى تكليف بعض القوافل بحمل المياه والسير بها فى الطرق التى يسلكها المسافرون. ولكن بعد أن شق داريوش هذا الطريق قامت النزول بهذه المهمة، وأصبح السفر بين إيران ومصر أسهل بكثير عما كان عليه قبل داريوش الكبير.

١٠ - إنشاء قناة تربط البحرين الأبيض والأحمر، وسأتناول هذه القناة بشيء من التفصيل بعد قليل.

١١ - بناء قلاع حصينة موزعة على حدود مصر ومواقعها الهامة، فقد ذكر أن داريوش الكبير قد كون لمصر جيشاً عظيماً يتولى الدفاع عنها، وقسم هذا الجيش إلى أربعة أقسام، حيث خصص لكل قسم منها حصن منيع، وهذه الحصون الأربعة كانت موزعة على النحو التالى:

(أ) قلعة منف العاصمة حيث مقر الحاكم الفارسى، وذات الموقع الاستراتيجى الممتاز فى أهميته لوقوعه على مسافة قريبة من بداية تفرع الدلتا، وكانت حامية منف (البدرشين وميت رهينة الحاليتان) تتألف بوجه خاص من جنود من الفرس يحملون رتب الضباط، كما كانت تضم عناصر أخرى من الجنود المصريين والأجانب^(١).

(١) مصر القديمة، ج-١٣، ص ١٠٠.

(ب) قلعة بلوزيوم وتقع عند مصب النيل من الجهة الشرقية من الدلتا، ومهمتها حراسة مصر من الجهة الشرقية؛ ولصد أى هجوم قادم من بلاد العرب أو فلسطين.

(ج) قلعة ماريا الواقعة فى الشمال الغربى من مصر وهى على مقربة من مكان مدينة الإسكندرية الحالية ومهمتها حراسة مصر من طرق برقة وليبيا.

(د) قلعة ألفنتين (أسوان الحالية) وتتولى حماية مصر من جهة الحبشة والسودان^(١).

وإذا كانت هذه القلاع الأربع تقوم بحراسة مصر والدفاع عنها، فمن مهامها أيضا ضمان وجود النفوذ الفارسى فى أرض مصر كلها، وترقب أى فتنة للإسراع بإخمادها والدليل على ذلك أن هذه القلاع كانت تخضع لإشراف الضباط الفرس، وتضم معهم جنوداً مصريين، وكذلك مرتزقة من جنسيات أخرى. والحكمة من استخدام الجنود المرتزقة هو تقديم العون للجيش الفارسى إذا حدثت الفتنة وامتنع الجنود المصريون عن التعاون مع الضباط الإيرانيين، وخير شاهد على ذلك الدور الذى لعبه الجنود المرتزقة من اليهود فى قلعة ألفنتين، حيث وجدت برديات فى جزيرة فيلة تثبت التعاون التام بين اليهود وبين الضباط الإيرانيين، فعندما امتنع الجنود المصريون عن التعاون مع الفرس، سارع هؤلاء اليهود بتذليل كل الصعاب أمام الفرس وقدموا لهم كل ما يحتاجون إليه من مأكّل ومشرب، وكل ما احتاجوا إليه من مقومات العيش والترفيه^(٢).

(١) إيران باستان جـ ١ ص ٥٧١، ٥٧٢.

(٢) دكتور حسن ظاظا: القسم الأول من كتاب (الصهيونية العالمية وإسرائيل) ص: ٩، القاهرة ١٩٧١م.

وأمام هذا الشعور الذى أبداه داريوش نحو مصر والمصريين، وما أقدم عليه من إصلاحات عدة نسى المصريون ثورتهم. والتفوا حول داريوش يؤازرونه حتى السنوات الأخيرة من حكمه عندما تجددت الاضطرابات من جديد فى عام ٤٨٦ ق.م، أى أن الهدوء ظل يسيطر على الجو العام فى مصر - من عام ٥١٧ ق.م وهو عام مقدم داريوش إلى مصر إلى عام ٤٨٦ ق.م عندما تجددت الاضطرابات لظروف سنعرض لها فى نهاية البحث ونتيجة لهذا الهدوء الذى استمر طويلاً. ونتيجة لتلك الإصلاحات العديدة، اعتبر المصريون داريوش واحداً من ملوكهم الأصليين، بل قيل إن البعض أطلق عليه لقب المصلح العظيم^(١)، وخير ما فعله داريوش وخلد ذكره، إقدامه على إعادة شق قناة السويس.

داريوش وقناة السويس:

فكرة ربط البحر الأبيض بالبحر الأحمر عن طريق قناة، فكرة قديمة تم تنفيذها عدة مرات فى عصور مختلفة، ولكن عدم العناية بهذا الطريق المائى كان ينتهى به إلى أن تغطيه الرمال ولا يصلح بعدها للملاحة، حتى جاء القرن التاسع عشر الميلادى وأعيد حفرها واستعمالها شرياناً حيوياً فى الملاحة الدولية، بحيث لا يستطيع الشرق أو الغرب الاستغناء عنها.

وقد قيل إن أول قناة شقت لتصل بين البحرين كانت فى وقت مبكر جداً، ربما يصل إلى عصر الدولة الوسطى حيث شقت قناة فى وادى طمبلات «وهو الوادى الذى يصل ما بين بوسطة (الزقازيق الحالية) والبحيرات المرة» لتصل إلى البحيرات المرة، ثم شقت بعد ذلك الأرض

(١) باينتهامى شاهنشاهان هخامنشى: ص: ٢٨.

العالية التى تقع بين البحيرات المرة والبحر الأحمر وهكذا تم أول إتصال بين البحر الأحمر والنيل، ومنه إلى البحر الأبيض^(١).

ولكن هذه القناة أهملت وغطتها الرمال إلى أن أعاد الملك نخاو الثانى (٦٠٩-٥٩٤ ق.م)^(٢) التفكير فى شقها من جديد، وبدأ العمل واستمر بضع سنوات، ولكن المنية وآتته قبل أن يكمل حفر القناة على الرغم من المجهود المضنى الذى بذله فى هذا الشأن حتى قال هيرودوت بأن مائة وعشرين ألف مصرى، ماتوا أثناء هذا الحفر^(٣).

وبعد نخاو مرت مصر بفترة اضطراب وتدهور سياسى، ثم جاء الفتح الفارسى فكانت فترة حكم قمبيز ٥٢٥-٥٢٢ ق.م فترة غير مستقرة، وأخيراً جاء داريوش الكبير بآماله العريضة من الناحيتين السياسية والاقتصادية، فأعاد إلى مشروع القناة الحياة من جديد، فقد قيل إن وصول داريوش إلى مصر كان فى وقت الفيضان، حيث كانت المنطقة الواقعة شرقى الدلتا تغمرها مياه الفيضان، مما اضطره أن يسلك طريقه عبر وادى طمبلات ليصل إلى العاصمة منف ولعل سلوكه هذا الوادى هو الذى دفعه إلى التفكير فى إتمام حفر قناة نخاو^(٤).

ولكن هناك رأى آخر مفاده أن داريوش بعد أن تم له فتح الهند (٥١٢ ق.م)^(٥) وجد البضائع المصرية تباع هناك على الرغم من المشاق التى يتحملها التجار فى استيراد هذه البضائع بواسطة الطريق البرى الوعر. فأراد داريوش تحرير التجارة من أهوال هذا الطريق البرى وذلك بإيجاد

(١) الحياة المصرية فى العصور القديمة: ص ١٩، ٢٠.

(٢) مصر الفرعونية، ص ٢٤٢.

(٣) سليم حسن: مصر القديمة، ج ١٣١، ص: ٧٠٥.

(٤) المرجع السابق، ص: ٩١.

(٥) إيران باستان، ج ١، ص: ٦٢٩.

طريق بحرى يربط بين الهند ومصر ماراً بإيران وبحر عمان. فأرسل بعثة بحرية استكشافية^(١)، تولى قيادتها البحار اليونانى الذى صاحب داريوش فى حملته على الهند واسمه اسكيلاس^(٢). وقد نجحت البعثة فى الوصول إلى مصر، فشجعه نجاح البعثة على مواصلة الرحلة وربط تجارة الهند وإيران بدول حوض البحر الأبيض عن طريق إكمال قناة نخاو الثانى. وقد تم له ما أراد.

ومسار هذه القناة كان يبدأ من أحد فروع النيل الذى يمر بالقرب من مدينة بوسطة (الزقازيق) ثم تمضى القناة متتبعة وادى طمبلات، متفادية من جهة الشرق بحيرة التماسح ثم تخترق البحيرات المرة إلى أن تصل إلى خليج السويس بالقرب من بلدة (الكبرى)^(٣).

وكان اتساع مجرى القناة يتراوح بين ثلاثين متراً (٤) وخمسة وأربعين متراً (٥) أما عمقها فيبلغ عدة أمتار.. حيث كان المجرى يسمح لمرور سفينتين متجاورتين كل سفينة منهما تسير فى اتجاه مغاير للآخر، اما الوقت الذى كانت تستغرقه السفن فى عبور هذه القناة فهو أربعة أيام تمضيها السفينة فى رحلتها من البحر الأحمر حتى تصل إلى نهاية القناة على مقربة من بوسطة ثم تواصل السفينة رحلتها إلى أحد فروع النيل. وبعد ذلك تصل إلى البحر الأبيض لتواصل الرحلة الى الميناء الذى تقصده فى حوض هذا البحر الأبيض.

ومما لاشك فيه أن هذه القناة التى تأخت فيها جهود المصريين ممثلة

(١) بانو دكتور شيرين بيانى: داريوش بزرگ ص ٦.

(٢) ايران باستان، ج١، ص ٦٢٩.

(٣) مصر القديمة، ج١٣، ص: ٧٢٤.

(٤) جهاندارى داريوش بزرگ، ص: ٥٩.

(٥) مصر القديمة، ج١٣، ص ٧٢٤.

في مجهودات الملك نخاو الثاني. وجهود الفرس ممثلة فيما أقدم عليه داريوش الكبير. كانت ذات فوائد جمة لدول المنطقة كلها. كما كانت ذات أهداف استراتيجية دفعت داريوش إلى إتمام حفرها. ويمكن إجمال هذه الأهداف فيما يلي:

١ - تقصير المسافة البحرية بين بلدان حوض البحر الأبيض والهند عامة، وبين إيران والأقاليم التابعة لها بصفة خاصة^(١).

٢ - إسهام إيران بنصيب في التجارة العالمية. وذلك لوقوعها في الطريق بين الهند ومصر^(٢). ومحاولة داريوش أن تكون التجارة العالمية في أيدي الفرس وأتباعهم من سكان الأقاليم التابعة للدولة الهخامنشية. وتطويق تجارة اليونانيين ومنعهم من القيام بدور فعال في التجارة العالمية^(٣).

٣ - كان داريوش حريصاً على إنشاء طرق للمواصلات بين عاصمة ملكه وفتوحه الجديدة عن طريق البحر. وذلك لتفادي العقبات من أي نوع يمكن مصادفتها في الطرق البرية^(٤).

ويبدو أن داريوش كان يدرك أن إتمامه لهذه القناة يعد أعظم أعماله في مصر على الإطلاق، لذا نجده يسجل هذا الحدث العظيم على لوحات عظيمة الحجم، تم وضعها على شاطئ هذه القناة على قواعد مرتفعة، ليسهل على بحارة السفن العابرة الاطلاع عليها، وقراءة ما عليها من نقوش أهمها، الأمر الملكي الصادر بشق قناة واستعمالها للملاحة، ولتكون طريقاً يربط إيران بمصر.

(١) إيران باستان ج ٢، ص: ١٤٩٢.

(٢) د. عبد النعم حسن: الإيرانيون القدماء، القسم الخامس من حضارة مصر والشرق القديم، ص: ٤٤٠.

(٣) مصر الفرعونية، ص: ٤٣٥.

(٤) مصر القديمة، ج ١٣، ص: ٧٢٩.

وهذه اللوحات يبلغ عددها أربع لوحات، نصبت على الشاطئ الأيمن للقناة تجاه البحر الأحمر، وهذه اللوحات كتبت بلغات أربع هي: الفارسية القديمة، والبابلية، والعيلامية والهيروغليفية^(١)، ويلاحظ - من خلال اللوحة المحفوظة في المتحف المصري - أن النصوص الهيروغليفية كانت تحتل في مساحتها ثلاثة أضعاف ما كتب باللغات الثلاث الأخرى والتي كتبت بالخط المسماري، ولكن أين نصبت هذه اللوحات الأربع^(٢)؟

١ - لوحة تل المسخوطة. وقد ورد بالصف الثالث منها عبارة تدل على أن حفر القناة كان في عهد الملك داريوش الأول الفارسي. وهذه اللوحة محفوظة الآن بالمتحف المصري بالقاهرة وهي مصنوعة من الجرانيت الوردي.

٢ - لوحة كبريت. وهي محفوظة بمتحف الإسماعيلية، وم مصنوعة من الجرانيت الوردي أيضاً، ويلاحظ أن أحد وجهيها قد خصص للمتن الهيروغلو في والآخر للترجمة باللغات الفارسية والعيلامية والبابلية، ويحتوي الصف الثاني من نقوشها على أمر بحفر القناة وتسيير السفن فيها.

٣ - لوحة السويس، وكانت مقامة على مسافة ستة كيلومترات شمالي مدينة السويس.

٤ - لوحة السرايوم. وهذه اللوحة لم يعثر عليها حتى الآن، لذا لم يعرف عنها أى شىء سوى أنها كانت منصوبة في البقعة الواقعة بين بحيرة التمساح والبحيرات المرة.

(١) جهاندارى داريوش بزرگ، ص ٥٩.

(٢) راجع: مصر القديمة ج-١٣، ص: ٢٢-٣٣. ٧٢١-٧٢٣.

ومن المحتمل أن كاتب هذه اللوحات هو الطبيب المصري أوجا حور رسن^(١) فقد كان يجيد الهيروغليفية بحكم كونه مصرياً، كما أجاد اللغات الثلاث الأخرى أثناء رحيله عن مصر بعد وفاة قمبيز، وأقام في منطقة عيلا، كما عاش فترة في العاصمة شوش حتى صدر له الأمر بالعودة إلى مصر^(٢).

وماذا جاء في الأمر الملكي بحفر القناة وإعدادها للملاحة؟
«يقول الشاه داريوش: إننى فارسى، وبمساعدة فارس فتحت مصر، لقد أمرت بحفر قناة من أول النهر المسمى النيل الذى يجرى في مصر حتى البحر الذى يتصل بفارس، وبعد ذلك حفرت هذه القناة كما أمرت، وأبحرت السفن من مصر عن طريق هذه القناة متجهة صوب فارس، كما رغبت^(٣)».

وأخيراً تم فتح القناة وأبحرت السفن بين بلدان حوض البحر الأبيض وبين الهند مارة بمصر وبلاد إيران. فكانت فرصة لالتقاء الحضارتين الفارسية والمصرية في أكثر من مظهر:

المظهر الأول: أن حفر القناة كان مناصفة بين ملكين أحدهما مصرى وثانيهما إيرانى.

المظهر الثانى: ويبدو حتى الآن فى تعانق اللغتين الهيروغليفية والفارسية القديمة فى لوحة مازالت محفوظة حتى الآن فى المتحف المصرى بالقاهرة^(٤).

(١) إيران باستان جا، ص: ٥٧٠.

(٢) مصر القديمة، جـ ١٣، ص: ٦٦، ٦٧.

(٣) داريوش بزرگ، ص: ٥٠.

(٤) يمكن معرفة جميع الآثار التى عثر عليها لداريوش فى مصر بمراجعة كتاب مصر القديمة جـ ١٣ ص ٢٢-٢٣.

وإذا كانت الحضارتان في عهد داريوش قد تعانقتا على ضفاف النيل، فهل تعانقتا على أرض فارس؟
للإجابة على هذا السؤال يجب علينا أن نتحدث عن أثر الحضارة الفرعونية في حضارة فارس إبان عصر داريوش بقليل من التفصيل.

أثر الحضارة المصرية في فارس إبان عهد داريوش:

اعتلى داريوش الكبير عرش الأسرة الهخامنشية عام ٥٢٢ ق.م في حين كانت الدولة المصرية والحضارة الفرعونية قد نشأتا في مصر قبل هذا التاريخ بما يزيد عن خمسة وعشرين قرناً وعلى هذا فإن داريوش ومن قبله قمبيز حين دخلا مصر. أخذوا بما وصلت إليه الحضارة الفرعونية من تقدم وازدهار وبخاصة في مجالات العمارة والفنون لذا ما أن عاد داريوش إلى عاصمة ملكه حتى بدأ على الفور يخطط لعمل كبير يخلد اسمه عبر القرون ويكون في الضخامة بلا مثيل وهذا العمل يتمثل في بناء (تخت جمشيد).

ولكى ينجز داريوش هذا الصرح الكبير في صورة تفوق جميع المعابد والقصور التي رآها في البلاد التابعة للدولة الهخامنشية، لابد له من ذوى الخبرة، فاستعان بمهندسين وعمال مهرة من جميع البلاد المتقدمة حضارياً، كبابل وآشور ومصر. وقد ورد في الأخبار بأن العمال والمهندسين المصريين كانوا يعملون في فارس وشوش^(١). كما ورد أن داريوش هو الذى أرسل هؤلاء العمال والمهندسين للعمل في عاصمة ملكه^(٢). وأنهم شاركوا في بناء تخت جمشيد^(٣).

(١) إيران باستان، جـ ٢، ص: ١٥٥٨.

(٢) مصر القديمة، جـ ١٣، ص: ٤.

(٣) پایتختهای شاهنشاهان هخامنشی: تخت جمشید، ص ٢١.

ويمكن إجمال أثر هؤلاء العمال المصريين. وأثر الحضارة المصرية في إيران فيما يلي:

أولاً: أخذ الفرس عن المصريين فكرة القاعات الضخمة المحمولة على أعمدة، فجاءت قاعة المائة عمود في تخت جمشيد^(١) متأثرة إلى حد كبير بالقاعة الكبرى في معبد طيبة. وقد شارك العمال المصريون في بناء أعمدة تلك القاعة. ولكن الفرس طوروا في نظامها حتى تبدو فيها اللمسة الإيرانية. وعلى هذا فهناك فروق بين الأعمدة المصرية والأعمدة الإيرانية نجملها فيما يلي^(٢).

(أ) جاءت الأعمدة الإيرانية أكثر ارتفاعاً، فقد ذكر أن ارتفاع العمود المصرى كان يتراوح بين أربعة أو ستة أضعاف قطره، بينما يتراوح ارتفاع الأعمدة الإيرانية بين عشرة أو إثني عشر ضعفاً لقطره.

(ب) بالغ الإيرانيون في لمسات الجمال التي أضفوها على أعمدتهم. حتى ذكر بعض المؤرخين أن الأعمدة الهخامنشية تعد أجمل أعمدة العهد القديم كله.

(ج) أن الثلمات في الأعمدة المصرية تبلغ ست عشرة ثلثة، بينما يتراوح عددها في الأعمدة الهخامنشية بين ٣٢، ٤٨ ثلثة.

(د) رءوس الأعمدة الإيرانية تفوق في جمالها رءوس الأعمدة المصرية.

(هـ) يبلغ الفرق بين كل عمود وآخر في المعابد المصرية مثل حجمه أو ضعف هذا الحجم، بينما يبلغ الفرق بين أعمدة تخت جمشيد من ثلاثة أضعاف إلى أربعة أضعاف.

(١) يعرف أيضاً باسم بيرسبوليس.

(٢) پايختهای شاهنشاهان هخامنشی: تخت جمشید، ص ٤٨.

ولكن على الرغم من هذه الفروق، فإن تأثير الحضارة المصرية لا ينكر في هذا المجال، حيث كان لها فضل السبق، وهى المشجع لداريوش على البدء فى إقامة هذا الصرح الذى مازالت آثاره باقية حتى اليوم فى بيرسبوليس. كما أن مساهمة العمال المصريين فى تزيين أعالي النوافذ وطاقات الإيوان أمر مسلم به^(١)، وكذلك دورهم فى تذهيب الرسوم والأعمدة وتزيين الجدران^(٢).

كما أن رموس بعض الأعمدة الهخامنشية قد جاءت متأثرة بالفن الفرعونى فقد عثر الأثريون فى إيران عام ١٣٣٦ على رأسين لعمودين من أعمدة تخت جمشيد وقد صنعتا على شكل رأس عقاب، ومن المعروف أن نقش العقاب من الأمور التى كانت شائعة فى مصر قبل إستعمالها فى إيران، حيث صور حورس فى صورة إنسان له رأس عقاب^(٣).

ثانياً: أخذ الفرس من المصريين فكرة بناء المقابر المنحوتة فى الصخر فمازلنا نشاهد حتى اليوم فى منطقة نقش رستم^(٤) أربع مقابر منحوتة فى واجهة جبل عمودى لكل منها بابها المصنوع من الحجر على الطراز المصرى، إذ يمثل واجهة قصر له أربعة عمد يقع بينها المدخل. وفوق هذا المدخل يشاهد عرش يتألف من طبقتين كل منهما محمول بسور من الأعمدة من طراز عمد قاعة المائة عمود، ويشاهد الملك قابضاً على قوس بيده اليسرى فى حين أن يده اليمنى مرفوعة تضرعاً للإله أهورا مزدا

(١) إيران باستان ج ٢، ص ١٥٥٨.

(٢) پايتهنهای شاهنشاهان هخامنشی: تخت جمشید، ص: ٢١.

(٣) المرجع السابق، ص ١٠٢، ١٠٧.

(٤) تقع هذه المنطقة على بعد خمسة كيلومترات شمالى تخت جمشيد فى اتجاه نهر بلسوار انظر راهنمای تخت جمشید لحسین بصیری ص ٦٨ طبع ایران ١٣٢٥ ش.

الذى يرفرف فوقه . ومن بين هذه المقابر مقبرة الملك داريوش الأول^(١) .

وهكذا نلاحظ - لو نظرنا إلى صورة قبر داريوش الكبير - أن الفرس قد أخذوا فكرة بناء هذه القبور عن قبور الفراعنة المنحوتة فى الصخر، والمنتشرة فى ربوع مصر كلها، ولكن الفرس أدخلوا على مقابرهم من هذا النوع بعض التغييرات التى تتفق واختلاف عقيدتهم الدينية عن العقيدة المصرية، فقد جعلوا على سبيل المثال - صورة آهور مزدا - إله الخير فى الديانة الزردشتية - يعلو النقوش، بينما كان قرص الشمس يعلو النقوش المصرية.

ثالثاً: نقل الفرس عن المصريين فكرة النقوش القليلة البروز^(٢)، فمن يشاهد آثار تخت جمشيد ونقش رستم يدرك هذا الأثر جلياً، كما أن هذه النقوش تزين جدران المقابر المنحوتة من الصخر، ومنها مقبرة داريوش الكبير. أضف إلى ذلك أن داريوش قد صور بهذه النقوش جميع الأقوام التابعة لدولته، وقد حضر مندوبون عن كل إقليم إلى مجلسه لتقديم الهدايا، ولكن اللوحة التى تصور مندوب مصر قد أصابتها يد الزمن بالتشويه فطمست معالمها ولم يعد من الممكن الاستدلال على تفاصيلها. رابعاً: ومن الصناعات التى نقلها الفرس عن المصريين صناعة الأوانى، سواء أكانت أوانى حجرية أو رخامية، أو أوانى زجاجية، فقد كشفت الحفريات التى قام بها المعهد الشرقى بجامعة شيكاغو، والحكومة الإيرانية فى برسيبوليس عن أشياء كثيرة لطيفة بين أنقاض الخزانة الملكية.

(١) مصر القديمة، ج٣، ص ٦٣١.

(٢) د. عبدالنعم حسنين: الجزء الخامس من الحضارة مصر والشرق القديم ص: ٤٥٩،

لوحظ من بينها الأطباق والسلاطين الحجرية والرخامية التي حملها من مصر إلى إيران الجيش الأكمني^(١) (الهخامنشى):

ومن الأشياء التي عثر عليها كذلك فى حفريات تخت جمشيد بعض الأوانى الزجاجية الملونة، فكانت هذه أول مرة يعثر فيها على أوانى زجاجية ملونة بين آثار إيران، ومن المعروف أن هذا الفن كان معروفا لدى المصريين منذ الألف الثانى قبل الميلاد، وقد زاد تفوق المصريين فى هذا الفن خلال حكم الأسرة الثامنة عشرة، حيث توصل الصناع المصريون إلى صناعة الزجاج الأسود والأزرق والأحمر والأبيض والأصفر والبنفسجى وكانوا يستوردون بعض الألوان التي لا تتوفر لديهم من البلاد الأخرى، ومنها إيران والقفقاز^(٢).

ولاشك أن الفرس عندما وفدوا إلى مصر، أخذوا بتقدم المصريين فى صناعة الأوانى المختلفة فحرص ملوكهم على أن يحمل بعض الأوانى الفرعونية إلى قصره، كتحف فنية وكنوع من الرفاهية يريد أن ينعم باستعماله، وأعجب الصناع الإيرانيون بهذه الأوانى، فأخذوا يقلدونها.

خامساً: كانت مصر متقدمة فى مجال الطب منذ القدم، ولعل إيران أفادت من هذا التقدم فقد ورد فى الأخبار بأن أوجاجوررسن قائد البحرية المصرية وكبير الأطباء قد سافر إلى شوش بعد رحيل قمبيز عن مصر، وأمضى فى شوش مدة من الزمن فى قصر داريوش الكبير حيث شغل منصب كبير الأطباء^(٣)، ولكى يشغل هذا المنصب لابد وأن تتوفر فيه شروط معينة أهمها تفوقه فى هذه الصناعة الهامة، ولا بد وأن يكون أكثر

(١) دونالد ولير: إيران ماضيها وحاضرها، ترجمة د. عبدالنعم حسنين ص ٣٦ القاهرة ١٩٧١.

(٢) پايتختهائى پادشاهان هخامنشى ص ٣٠١.

(٣) جهاندارى داريوش بزرگ ص ٦٠.

تفوقاً في مهنة الطب من جميع الأطباء الإيرانيين الموجودين في القصر. ولهذا كان وجوده - وربما وجود غيره من الأطباء المصريين - فرصة لينتقل علم الطب المصري إلى إيران. وقد ذكرت الروايات اليونانية أن داريوش كان مهتماً بعلم الطب وتقدمه وكم كان حريصاً على تشويق أطبائه على بذل المزيد من أجل تحصيل العلوم الطبية^(١).

وهكذا كان أثر الحضارة المصرية الفرعونية في الحضارة الإيرانية إبان عصر داريوش الكبير متنوعاً وشاملاً للعديد من مجالات النشاط البشري وبخاصة المادى منه. وكان تعانق الحضارتين المصرية والإيرانية شيئاً له شواهد ثابتة في أرض إيران وفي الأرض المصرية. ومع تعانق هاتين الحضارتين في ظل حكم داريوش الكبير، فهل ظلت الأحوال السياسية على هدوئها منذ قدوم داريوش إلى مصر عام ٥١٧ ق.م إلى أن رحل عن هذا العالم عام ٤٨٦ ق.م^(٢).

مصر في نهاية عهد الملك داريوش الكبير:

بعد أن وفد داريوش إلى مصر عام ٥١٧ ق.م، وأجرى بها العديد من الإصلاحات أقبلت البلاد عليه وساد الهدوء والطمأنينة طوال الأعوام الممتدة من عام مقدمه حتى عام ٤٨٧ ق.م حيث بدأ المصريون ثورة جديدة ضد الحكم الفارسي، ولكن لماذا ثار المصريون من جديد. وبعد فترة طويلة من الهدوء والاستقرار؟

ذكر بعض المؤرخين أن الثورة التي نشبت في مصر عام ٤٨٧ ق.م - أي قبل وفاة داريوش بعام واحد - كان مرجعها كثرة الضرائب التي كان يفرضها الحكم الفارسي على مصر^(٣). حيث كانت المنطقة السادسة

(١) إيران باستان، ج ١ ص ٥٦٨.

(٢) پایتختهای شاهنشاهان هخامنشی، ص ٧٦.

(٣) إيران باستان ج ١ ص ٦٨٢.

وهي التي تضم مصر وبرقة وليبيا تدفع جزية سنويا للخزينة الهخامنشية مقدارها سبعمائة تالان من الفضة^(١) (مايعادل ٨٤ ألف جنيه مصرى تقريباً)، يضاف إليهما ما تقدمه مصر من غلال تفى باحتياجات مائة وعشرين ألف جندي^(٢) يقيمون فى القلاع الأربع الموزعة فى الأرض المصرية، كما تدفع مصر للخزينة الفارسية دخل مصايد السمك فى بحيرة موريس^(٣).

ورأى آخر يقول بأن هذه الثورة كان سببها أن وصلت إلى مسامع المصريين أخبار هزيمة الفرس أمام الإغريق فى موقعة ماراثون عام ٤٩٠ ق.م^(٤). فوجد المصريون الفرصة السانحة لإعلان الثورة ضد الفرس فى مصر^(٥).

ولكن الحقيقة أن هذين السببين كانا مجرد عوامل مساعدة على الثورة، ومن المظاهر الخارجية لها، أما السبب الحقيقى - كما أراه - هو الشعور الوطنى المصرى، ومحاولة الحصول على الاستقلال، على الرغم من الإصلاحات العديدة التى أقدم داريوش على تنفيذها فى مصر التى شعرت بالرضا على عهده، نتيجة لميوله الطيبة نحو المصريين^(٦)، إلا أن الإصلاحات مهما تعددت شىء، والحرية الوطنية شىء أكبر، لا تغنى عنه أى إصلاحات، ويؤيدنى فى هذا رأى، مؤرخ إيران الكبير حسن بيرنيا، حيث قال:

«.... لابد من الاعتراف بأن الفتن التى حدثت فى مصر فى أواخر

(١) جهاندارى داريوش بزرگ ص ١٠٩.

(٢) قصة الحضارة الفارسية، ص ٣٤.

(٣) مصر القديمة ج ١٣، ص ٤.

(٤) مصر القديمة، ج ١٣، ص ٦٤٠.

(٥) مصر الفرعونية، ص ٤٣٥.

(٦) مصر القديمة، ج ١٣، ص ١٠٠.

حكم داريوش، وفي أثناء حكم من خلفوه، ترجع إلى أن المصريين لهم مجدهم وحضاراتهم التي تعد واحدة من أهم حضارتين، في الشرق القديم، ولا بد لشعب كهذا أن يكون محباً للحرية، توافاً إليها، ومن الضروري أن يثور لتحرير نفسه...^(١).

وصلت أخبار الفتن إلى داريوش وهو مشغول بإعداد حملة ضخمة لمحاربة اليونانيين، فتملكه الغضب وتوعد، وصمم على إخماد الفتنة ولكن المنية عاجلته في العام التالي - أي ٤٨٦ ق.م - فترك لابنه خشيارشاه مهمة القضاء على هذه الثورة فنجح في ذلك عام ٤٨٤ ق.م^(٢) ولكن الحالة لم تستقر في مصر بعد وفاة داريوش بمثل ما كانت عليه في عهده، بل تعاقبت الفتن والثورات، إلى أن استطاعت مصر الاستقلال عن الحكم الفارسي عام ٤٠٤ ق.م.^(٣).

(١) إيران باستان، ج ١ ص ٦٨٣.

(٢) المرجع السابق، ص ٦٩٩.

(٣) مصر الفرعونية، ص ٤٣٨.

خاتمة:

بعد أن تناولنا بالدراسة الموجزة أهم العلاقات التي كانت تربط بين مصر وإيران على عهد داريوش الكبير، يمكننا القول، بأن هذه العلاقات - لو تركنا الصلات السياسية جانباً - كانت إيجابية لصالح الشعبين المصرى والإيراني، ولصالح بنى الإنسان جميعاً، فقد نتج عن اتصال النشاط البشرى هنا وهناك، تقدم وازدهار فى حضارة كل شعب من الشعبين، وما زالت آثار امتزاج الحضارتين وازدهارهما، ماثلة أمام الأعين ومثلة فيما تضمه المتاحف فى كل من مصر وإيران حتى الآن، وما تشتمل عليه المناطق الأثرية فى كليهما، وفى المشروعات الضخمة التى ربطت إيران بمصر برياً وبحرياً، فأحدثت انفتاحاً بالنسبة للشعبين على جميع أقوام الأقطار المجاورة كما كان هذا التعاون بين الحضارتين عاملاً هاماً فى النشاط التجارى العالمى، عن طريق ذلك الدور الكبير الذى لعبته قناة السويس التى اختلطت فى حفرها جهود الملك الإيرانى بجهود ملك مصر وشعبها، ولعل إعلان إيران - فى وقت سابق - مساهمتها فى تعمير المنطقة الحرة بمنطقة قناة السويس يعيد إلى الأذهان مشاركتهم فى تعمير هذه المنطقة أيام داريوش الكبير، وإسهامه فى جعل هذه المنطقة شرياناً حيويّاً للتجارة العالمية ولتقدم البشرية.

وهكذا يعود التعاون بين الشعبين المصرى والإيرانى بالنفع عليهما سوياً، وبالفائدة للمجتمع البشرى بأجمعه.

جمال الدين الأفغاني
وأطماع الروس في أفغانستان

جمال الدين الأفغانى وأطماع الروس فى أفغانستان^(١)

أسعدنى الحظ بالتلمذ على يد وفكر أستاذنا الجليل المرحوم الأستاذ محمد إحسان عبدالعزيز، فقد علمنى أصول اللغة التركية وآدابها طوال سنوات أربع، وكم كان مثالا يحتذى فى البذل والعطاء، وكم عاش للعلم وبالعلم، عاش زاهدا فى كل زخرف الحياة، عاش أباً لكل تلاميذه وأبنائه، إذ كان بالنسبة لنا نعم الأب، ونعم المعلم، ونعم المرشد، لقد تعلمنا منه إلى جانب التركية كيف يكون الإنسان مثابراً على العلم، لذلك العلم الذى ينتهى بانتهاء الامتحان، وإنما ذلك العلم المتواصل، إنه علم الحياة، لقد هاجر من موطنه تركيا إلى موطنه مصر طلباً للعلم، لم يهاجر طلباً لجاه أو منصب أو مال، وإنما كانت هجرته هذه خير زاد لنا فى مشوار حياتنا التعليمية، فإذا ما اعترضنا أى معوق فى مسيرة العلم تذكرنا ما لاقه أستاذنا الفقيه فى هذا المضمار، فهانت هذه الصعاب، وحلت كل المشاكل، وإذا بنا نواصل الطريق غير أبهين بأى عائق.

وعندما دعيت للمشاركة فى هذه الندوة العلمية التى أقيمت وفاء لذكرى أستاذنا الجليل، وتذكرت أن هناك شبهة فى السياحة العلمية بين الأستاذ محمد إحسان وبين جمال الدين الأفغانى الذى سباح فى كثير من بلدان العالم الإسلامى طلباً للعلم والمعرفة، حيث حصل العلم فى دياره أفغانستان ثم رحل إلى الهند طلباً للمزيد من العلم وبعدها سافر إلى مصر والشام وتركيا وأوروبا، وكان فى كل بلد يفد إليه يحاول أن يوسع دائرة علمه وكذلك دائرة تلاميذه ومريديه. فإذا كان أستاذنا الفقيه قد شارك جمال الدين فى السياحة العلمية، فقد شاركه كذلك فى أنه لم يخل بعلمه، بل جاهد فى أن يعلمه للآخرين، فكان كل منهما نعم المعلم، ونعم المرشد.

(١) ألقى هذا المقال فى الاحتفال بذكرى الأستاذ محمد إحسان عبدالعزيز معلم التركية والجهاد الإسلامى الكبير وذلك بجامعة عين شمس.

ومن منطلق مشاركتهما فى السياحة العلمية وحب التعليم، حرصت على أن أقدم للندوة رسالة من رسائل جمال الدين الأفغانى لم تطبع بعد. وهذه الرسالة كتبت بالفارسية، وقد كتبها جمال الدين الأفغانى إلى أحد أصدقائه بالأستانة طالبا منه أن يقدمها إلى السلطان العثمانى، شارحا له أطماع الروس فى أفغانستان والهند وغيرهما من بلدان العالم الإسلامى، طالبا منه أن يوفده باسمه إلى تلك الديار كي يجمع المعونات المالية ويؤلب المسلمين هناك ضد التوسع الروسى على حساب التركستان والهند وأفغانستان.

ومن خلال هذه الرسالة نستطيع إدراك أن الأطماع الروسية فى أفغانستان ليست وليدة الاجتياح السوفيتى الأخير لأراضى هذا البلد المسلم أهله، ولكنها أطماع تمتد إلى قرابة القرن من الزمان بل وقبل ذلك وقد تساوت فى هذه الأطماع روسيا القيصرية، وروسيا الشيوعية. لقد وضعت خطة التوسع على حساب العالم الإسلامى منذ القرن الماضى، وقد حققت روسيا بعض هذه الخطة عندما استولت على بلاد التركستان والأوزبكستان، والبلوجستان وشمال آذربيجان، وها هى تحاول هذه الأيام استكمال هذه الخطة التوسعية بالإستيلاء على أفغانستان، ولن تتوقف عند أفغانستان، بل ستواصل مسيرة التسلط إن أتيحت لها الفرصة كي تفرض نفوذها على إيران وباكستان ودول الخليج العربى كله بعد ذلك.

أمام هذا الخطر الروسى المتوقع دائما، كانت صيحات جمال الدين الأفغانى كى يبصر العالم الإسلامى بأطماع الروس، ولم يكتف جمال الدين الأفغانى كمصلح ببيان الخطر الذى يهدد جسم الأمة الإسلامية، بل اقترح العلاج المتمثل فى تضافر المسلمين جميعا لوقف هذا الخطر

الروسي، والقضاء عليه في كل مكان، بل محاربته داخل المناطق الإسلامية التي سبق أن استولوا عليها وضموها بالقوة إلى أراضيهم، ولعله أراد القول بأن أكبر ضربة يمكن أن توقف الزحف الروسي تتمثل في سياسة التفجير من الداخل، فإذا نجحت الدعوة لتأليب المسلمين في التركستان والأوزبكستان والبلوجستان وغيرها من مناطق المسلمين في روسيا، فإن الخطر المحدق بأفغانستان وغيرها من دول العالم الإسلامي سيتوقف على الفور.

ولكن ضاعفت صيحات جمال الدين الأفغاني هباءً ومرت الأيام واستطاع الروس احتلال أفغانستان، دخلوها دخولا لا خروج له إلا إذا اشتدت المقاومة الإسلامية، وانتقلت إلى داخل الجمهوريات الإسلامية الواقعة الآن تحت ربة اتحاد الجمهوريات السوفيتية: فهل يمكن أن يتحقق هذا الهدف الذي تطلع إليه جمال الدين الأفغاني ذات يوم؟

وقد يظن البعض أن هذه الرسالة بعيدة الصلة عن موضوع الندوة وهو الاحتفاء بذكرى أستاذنا الفقيه الأستاذ محمد إحسان عبدالعزيز، ولكنني أقول غير ذلك، فمن المعروف أن الفقيه الكريم كانت له صلات أسرية بأفغانستان، فقد ذكر نجله العزيز الأستاذ الدكتور أكمل إحسان بأن أسرة الفقيه كانت ذات جذور أفغانية ثم انتقلت بعد ذلك إلى الأراضي التركية وأقامت بها. وعلى هذا فإن الحديث عن أفغانستان وما أصابها على أيدي القوات الروسية له صلة بذكرى أستاذنا الفقيه. ولاشك أنه لو كان على قيد الحياة، ورأى ما يجري على الأراضي الأفغانية من سفك لدماء إسلامية بريئة لما غمض له جفن، ولما استطاب رغد العيش حتى تعود أفغانستان حرة أبية، وحتى ترجع قلعة إسلامية كما كانت دائما وأبدا.

والآن نورد الرسالة التي كتبها جمال الدين الأفغاني بنصها الفارسي بعد تحويله من مخطوط إلى حروف الطباعة، ثم تعقبها ترجمة عربية، وأخيراً نقدم تعليقاً سريعاً يتضمن أهم الأهداف التي وردت في الرسالة..

نص الوثيقة^(١)

رکن رکن ملک وملت ، وحصن حصین دولت علیه ابد مدت ،
فخر عثمانیان وروح کالبد جملاء مسلمانان دولت مدار ابهت شعار را
عرض میشود .

لرچه بعضی از اهل استانه برین عاجز غدر محق ، وراه ستمکاری
پیمودند ، ولكن از ملت ظلم ندیدم ، واز اسلام شراره جوری نچشیدم ،
البته سلامت آن ملت را از دل و جان خواهان ، وبافتخار وعزایشان
شادان ونازائم ، وچون پارچه ئی از ان ملت و بضعه ئی از آن امت
محسوب میشوم ، لر چشم زخم بدانها رسد ، ویا خار حقارتی بپای آنها
خلد ؛ هیچ شک نیست که در جان بشاری پای دار خواهم وزید ، وموت
خود را بر حیا چنین بیدریغ خواهم وزید ، وبناء براین چون احوال دولت
علیه عثمانیه را درین اوان بنظر اعتبار رفته ، وشئون ملت اسلامیة را
بمشقبهء افتکار سفته ، پیرهن اصطبار وشکیبائیم درید ، واز هر طرف
وساوس وخیالات برین حقیر مستولی ردید ، ومانند مرد سودائی روز
و شب در آغاز وانجام این کار اندیشه ، وکیفیه اصلاح وچیونیی
نجاح این ملت را ورد وپیشهء خود ساخته ام ، ودائماً از برای چاره
جستن ، وازین تنی نای هول ناک رستن ، احوال ملک سابقه ودول

(١) نقلاً عن : مجموعهء اسناد ومدارك چاپ نشده در بارهء سید جمال الدین مشهور به
افغانی : جمع آوری : اصغر مهدوی ، ایرج افشار . انتشارات دانشیاه تهران . شمارهء ٨٤١
١٣٤٢ هـ . ش . تصویر ٢٦ ، ٢٧ .

لاحقه، وسبب صعود ونزول، وباعث طلوع وافول آنها را ملاحظه، و کارهای بزرگی که افراد انسانی مبادر شده است، که فی الحقیقه معجز البشر وسحر مستمر است، بآن مطالعه مینمودم، تا که نظر اعتبار در حین زار باحوال ابو مسلم آنشاب خراسانی که بعلو همت و کاردانی؛ دولتی چون دولت بنی امیه که در غایت قوه ونهایت متانه بود، از بیخ و بنش زدود. وجهه افتخارش را ب خاک مذلت می افتاد، ونیز در حین جویدن فکر درین میدان احوال بطر راهب از نظر بصیرت نذران شد، غیرت آن راهب صعلوک، و همت آن فقیر مفلوک، که چینی و نه صلیبی بدوش کشید ز بیابان ها و کوهها را برید، و شهر بشهر فرنیان را پانهاد، و در هر مملکت ندای حی علی القتال داد، تا که موجب محاربه صلیب، و ایقاد آن لهیب ردید. آتش غیرت در نهادم افروخت، و همت و کارنداری انشاب خراسانی زنده بانی و راحت را بر من حرام ساخت. دانستم که دشوار شمردن کارها نیست می را از دنائت همت و خست طبیعت وستی فطرت. والبته هر مشکلی در نزد ارباب همت سهل وآسان، و هر معضلی در پیش صاحبان غیرت لبیک بویان است، و چون اندور مدور ابهت شعار بکمال همت در همه اقطار معروف، و بکل غیرت در تمام الاسته اهل امصار موصوفند، و حب ملت را بر چه نه آنست، زیده، و افتخار خود را در بقا شوکت این امت مقدسه دیده اند. لهذا در کمال آزادی و حریت، اندیشه وافکار خود بدان حضرت بیان مینمایم، بی ملاحظه آنکه من شخصی هستم حنام و حقیر، و آن حضرت امیریند شهیر. چون دانایان جهان در مقام خدمت ملت و حب دولت و امت نظر بر مراتب ننمایند، بلکه دائما دیده بر جانب مقاصد شایند، از هر طرف که شاید، و از هر که باید.

وآن افکار این است ؛ أولا : چون مسلمانان هند باکثرت عدد
 شان غالبا اصحاب مکنت وارباب غني و ثروت میباشند ، ودر اسلامیه
 بغایت ثابت وپایدار ، ودر حمایت دین وملت باضعف اجساد شان جان
 نثار ، وبوجود این توانی ران ؛ انها دائما از داد ودهش دم زنند . و بسخا
 وبخشش خورسندند خصوصا در راه دین ، و برای تأیید کیش وآیین ،
 مدح واشتہار را خواهان ، وملیت وافتخار را جویان آند ، ولکن در
 خواب غفلت آسوده ، ودر بستر جهالت غنوده ، منافع اتحاد ووفاق را
 نفهمیده ، ومضار اختلاف ونفاق را بعقل دور بین ندیده ، لهذا این
 عاجز میخواهم که حبا فی الله را آن مملکت را پیموده ، وبا جمیع
 نوابها وامرا وعلماء آن بلاد ملاقت نموده ، واثاریکه از اتحاد
 ویبی انیی در هر عالم ظاهر وهویدا ، ومضاریکه از اختلاف ویبی انیی
 پیداشده است . یکایک بدانها بیان سازم ، ووشهای آنها را باسرار حدیث
 « المؤمنون أخوة » بنوازم ، وکلمات شورانییز وسخنان مصلحت آمیز
 آغاز ، وعلماء وسخنوران را باخود یار وانباز نمایم . روح جدید حب
 ملیت را در انها دمیده ، وپرده غفلت انها را دریده ، مقام سلطنت
 سنیه را در اسلامیه بدانها بیان ، وبقاء دیانت بدوام این دولت منوط
 ومربوط بوده است بدان جماعت ظاهر وعیان سازم ، ودر جمیع جوامع
 بلدان مشهوره آنها بوعظهای دلنشین ، وباحادیث خیر المرسلین در
 کانون درون انها آتش افروزم ، ویک سره اضطبار وشکیبائی ایشانرا سوزم
 ، وبعض از علمای زبان آورانان را ببعضی از بلدان دور دست ایشان روان
 کنم ، وعموم مسلمانان هند را باعانه مالی دعوة نمایم وبغیر ازین راه
 درنه پیمایم ، بدون آنکه متعرض سیاست طائفه انکلیزیه شوم ، وبیاخود
 سخنی برضد آنها زخم ، بلکه اساس کلام را بر مقاصد روس خواهم

نهاد، و داد سخن درین معنی خواهم داد. و شبهه ئی نیست که طائفه انگلیز ازین حرکی حکمت آمیز که موجب نفرت هندیان از روسیان خوش حال و سرور البال خواهند شد، و ممکن است که آنها چون این حرکت را موافق سیاست خود نیندازند؛ اهالی نیز باعانه مالیه تشویق، و با ما چند فائده خالی نخواهد بود: اول آنکه هیچ شک و شبهه ندارم که اعانه مالیه معتد بها بدست خواهد آمد، و دوم آنکه الفت و معارفه قویت بلکه اتحاد تام اسلامی در میان مسلمانان خواهد بهم رسید. سیم آنکه چون اتحاد تام مسلمانان مفهوم طائفه انگلیز گردد؛ البته بولیتک خود را دائما با دولت علیه مستحکم خواهد داشت. چهارم نکته ایست باریک که بر ارباب بصیرت مخفی نیست.

ثانیا: میخوام بعد از تمام امر هندستان روانه دارالایمان افغان شوم، و اهالی آن بلاد را که مانند شیر پیشه، از خون ریزی اندیشه ندارند، و از اهله* جنده* خصوصا جنده* دینی درنه* را روا نشمارند، بمحاربه دینیه و مجاهده ملیه دعوت کنم، و مقاصد روسیه را در پیش فهم، و بزبان بلیغ تبلیغ نمایم، که لرخدای نخواسته بر دولت علیه عثمانیه چشم رضی رسد، نه مکه مکرمه را قراری، و نه مدینه منوره را وقاری، بلکه از اسلام اسمی، و نه از دین رسمی خواهد ماند. و بعد از آن نه صوت اذانی خواهند شنید و نه قران خوانی خواهند دید، مانند یهود بخارا خار، و چون وسفندان بیصاحب، شکارر ستمکار خواهند شد، و بر آن ابطال ندای حی القتل در زم، و صدای یالثرات الاسلام بلند کنم. و علماء زبان آوار خبیر را از برای دعوت اهل بوادی و جبال روان، و خود با امراء و عظماء و سردارها و خانها عهد و پیمان در میان آرم، و در هر وعظهای دینی اجر و منافع غیرت و حمیت راهویدا سازم، و از

پیر و برنا ، وضعیف وتوانا همه را بجند* ملی دعوت عمومی کنم ،
و بعض از علماء کار دیره خیبر وفکییر را خفیه بجانب قوقند وبخارا ارسال
که از برای اهل اندیاری بیان حال را نمایند ، ومنتظر وقت وساعت
وحلول مدت بوده ، باشند .

وبعد از تمام دعوت در افغانستان ، بسرعه هر چه تمامتر روانه
بلوچستان شوم ، واهالی آن بلاد را که دائماً بقازاقي وترکتازی ذران ،
وبنهب وغارت نازانند ، بتشویق دینی وبترغیب منافع دنیوی ، بمحاربه
عمومیه دعوت کنم ، ولطائف الحیل سابقه را بر انها بکار برم ، وبعضی
از علماء افغان را در آن دیار باطراف واکناف تسیاری نمایم . واز انجا
عطف عنان بجانب ترکمان کنم ، وآن بدبختان را که در هر زمان
بشجاعت وجسارت معروف ، ودر هر زبان بخون ریزی وفته انی یزی
موصوف بودند ، ولکن درین اخیر زمان کلاه عار برسر ، وپیراهن ند*
در بر کردند ، وشهره چندین ساله خود را برباد ویر امر روس سرانقیاد
نهادند ، باخذ ثار دعوت ، وعزف جنسیت ترکیه را حرکت ، وعلم
اتحاد اسلامی را بر دوش ، وبمحاریبه دینه در ان ودان نیز خروش بر آورم
. وکما فی السابق دقیقه ئی از لطائف الحکم را فرونی ذارم ، ودائماً
باتفاق علماء اسلام تخم روان تامؤمنیان آن دیار را باتحاد اهل ایمان
دعوت کنند ، ومعلوم است چون اهالی شروع جند* نمایند امرا بی درز*
قهر را در میدان آیند.

وچون بامزجه وعادات آن اهالی دانا ، وبطبیعت واخلق آنها بینا
میباشم ، هیچ شک وشبهه ندارم که جمیع مسلمانان از دل وجان بر سر
روس هجوم خواهند کرد ، وروسیه را در انطرف اشغال ، بلکه بالقطع
پایمال خواهند نمود . وبرمنافع عاجله این کسی را انکار نشاید ، وفوائد

آجله اش را که اتحاد اسلاميه و اتفاق امه بوده ، باشد ، ارباب بصيرت درك نمايد .

ومع ذلك چون اهالي افغانستان كه في الحقيقه سد ويند هندوستان است با روس در اندازند طائفه انكليز قهرا و قسرا بتمام اجتهاد بمحاربه پردازند ، و تا بحلقوم بکل فرو رود و حيال حيايه را از سر ، و آرزوي نحو تغلب را از دل بدر برد .

ولر معترضې برين مقصد اعتراض كند بېويد كه اهالي قوقند وبخاري وشهر سبز وتركماني همانها نيستند كه تاب مقاومت روسي را نياورده ، وكوي نيك نامي از ميدان نبرده ، وزنلاني غير فاضل را بر موت فاضل اختيار ، ومرتكب انيونه عار شدند ، پس از استعانت بدانها چه فائده عايد خواهد شد ؟ جواب ويم كه آن محاربه هائي كه واقع شد تماماً از براي حفظ نفسي اين ونه امير و حاكمي كه دهد ؟ وپاي ثبات و مرداني در ميدان چرا نهد ؟ واما لرانها از براي حمايت دين و حفظ كيش وآيين محاربه نمايند ، البته با تاج شهرت برسد وبا كالاي فخر در بر خواهند نمود . چون دران هنيام هر كسي از براي محض دلخواه خويش پاي در ميدان ، وبجهه اعلاي كيش رزم جويان خواهد بود .

وبعد از بيان مقصد عرض ميشود كه اين عاجز درين بابت بهيچ وجه من الوجوه نه درهمي از دولت خواهانم ، ونه ديناري جويان ، بلكه حباً للاسلام بدین امر خطرمنذ قيام خواهم نمود .

بلي بعد از حصول اعانه ماليه در هندستان اين حقير را ميرسد كه چند نشان از براي امراي افغان و بلوچ وتركماني بخواهم .

ولكن ارتكاب اين ونه امري خطير بدون اذن دولت ، وبي

مستمسك از قبيل فضول ، وعمل غير مقبول شمرده ميشده ، وديري كه چون آن بلاد از مركز سياست بغايت دور ، واهل انجا از اخبار عالم واحوال دولت عليه درين زمان مهجورند ، لر بي مستمسك بدان كار متمسك شوم ، ربما امراء انديار را خوش نيايد . واز ين طلب اتفاق نفاقي زايد . لهذا بران ابهت شعار عرض مينمايم ، كه اين مكتوب را بنظر دوربين خود نذرانيده ، ومضامين آن را يك يك بدیده عقل اصابت قرين دیده . بدون آنكه ملاحظه شود كه نويسنده اين شخصي ايست حقير ، ويامرديست نا چيز وفقير ، وياخود مراتب عاليه ندیده ، وبمناسب متعاليه نرسيد ، زيرا بران دولت مدار ظاهر است كه در هر زمان امثال اين فعلهاي ستر ، وعملهاي بزر ، از چون مني خانه بدوش خشن پوش ، كه سرد ورم جهان را دیده ، وتلخ وشيرين زمان را چيده ، وچندين كوها وبيابانها را پيموده ، واحوال جهانيان را آزموده ، بظهور رسیده است . واصحاب مناصب دائما بر مناصب خود هراسان ، وخداوندان مال وجاه برجاه ومال خود لرزان بوده اند ، ودارايان نعمت تاب مهنت ومشقت نداشته اند ، پس لر اين استدعي مقبول راي اصلي ، وخرد خورده بين آن خداوند دانش وهوش افتد ، امر نامه ئي از دولت مفتخرم سازند . وباذن صريحي اين حقير را بنوازند ، تا آنكه بتعجيل تمام قبول از فوت وقت بكار پردازم ، ودرين ميدان بهوا خواهي ملت جان خویش را بازم ، ولر از براي دستور العمل رفتن آمدن ، خود اين عاجز باستانه عليه نیز از دل وجان تابع فرمام ، باقي امر وفرمان آن خداوند امر وفرمان راست .

الترجمة العربية:

إلى الركن الركين للملك والملة، والحصن الحصين دوما للدولة

العلية، فخر العثمانيين ومن بمثابة الروح لجسد عموم المسلمين، عمود الدولة، رمز العظمة، أعرض:

إذا كان البعض فى الباب العالى قد غدروا بى أنا العاجز، وسلخوا معى مسلك الجور، إلا أننى لم أظلم من الملة، ولم أذق طعم أى جور من الإسلام. ومن المؤكد أن سلامة هذه الملة كامنة فى القلب والروح، فكم أطرِب لما يحقق لها الافتخار والعزة. ولما كنت جزءاً من هذه الملة، وبضعة من تلك الأمة، فإن أصابتها عين سوء، أو شاكّت قدميها أشواك ذلة، فلاشك أننى أسارع ببذل الروح مؤثراً الموت على حياة ذليلة كهذه.

وبناءً على هذا، فإن تؤخذ أحوال الدولة العثمانية العلية فى هذه الأيام بعين الاعتبار، وإن ينظر إلى شئون الملة الإسلامية نظرة فاحصة، فسرعان ما تتمزق أردية الصبر، وتتقطع غلالة الرضا، وتستولى الهواجس والوساوس على هذا الحقيق من كل صوب وحذب. لقد كنت كرجل انتابته نوازع القلق والهلع، فأخذ يقلب فكره طوال نهاره وليله، من البداية إلى النهاية فى هذا الأمر، وكيفية تقويمه وطريقة العمل على تقدم هذه الملة وبعثها من جديد، ومن أجل البحث عن حيلة للنهوض ووسيلة للخلاص من هذه الدوامة المهلكة، كنت على الدوام أستعرض أحوال الممالك السابقة والدول اللاحقة، وأدرس أسباب رقيها وانحطاطها، وعوامل ظهورها وأفولها، كما أطلع الأعمال الفذة التى أقدم عليها بعض البشر ممن عدت أعمالهم بمثابة إعجاز بشرى وسحر مستمر، حتى توقف بى النظر عند أحوال أبى مسلم ذلك الشاب الخراسانى الذى استطاع بعلو همته وتصميمه اجتثاث الجذور والأغصان لدولة كدولة بنى أمية وقد كانت فى قمة أوجها وعظيم مهابتها، وأن يمرغ فى الوحل أمجادها، كما مرت بخاطرى أثناء إجمالة الفكر فى هذا المضمار، أحوال

بطرس الراهب، وكيف تجلت غيرة ذلك الراهب الصعلوك، وهمة ذلك الفقير المفلوك فى حمله الصليب وقطعه الصحارى والجبال، وانتقاله من مدينة إلى أخرى فى بلاد الفرنجة، وندائه فى كل مملكة «حى على القتال» مما أوجب الحروب الصليبية، وأشعل لهيبها.

لقد أشعلت الغيرة النار فى كيانى، كما أحالت همة ذلك الشاب الخراسانى وحيويته الدعة والسكينة حراماً على، إننى أدرك أن الإحساس بثقل الأعمال وصعوبتها مبعثه دناءة الهمة وخسة الطبع وحقارة الفطرة، لذا فإن كل مشكلة تهون أمام أرباب الهمة، كما ترضخ كل معضلة أمام أصحاب الغيرة قائلة: ليك، ليك!!

ولما كان عمود الدولة وصاحب الأبهة معروفًا بكمال الهمة فى جميع الأقطار، موصوفًا بأنه قمة فى الغيرة على السنة أهل الأمصار، وأنه أثر حب الملة عن كل ما عداها، رأى أن افتخاره كامن فى الحفاظ على شوكة هذه الأمة المقدسة. لذا فإننى سأعرض على صاحب الحضرة بصراحة تامة، ويدون أدنى موارد ما يجول بخاطرى من آراء وأفكار، على أنه يجب ألا ينسى بأننى شخص مجهول حقير، وحضرته سلطان شهير، ولكن عظماء العالم لا يفرقون بين مراتب الناس فى مجال خدمة الأمة وحب الملة، بل يجب أن ينعقد النظر على المقاصد ((الأفكار والخطط)) حيثما وجدت، ومن لدن أى إنسان طرحت! وتلك الأفكار هى:

أولاً: مع كثرة مسلمى الهند، فإن معظمهم، من ذوى المكانة، ومن أرباب الغنى والجاه، كما أنهم من حيث العقيدة الإسلامية غاية فى الثبات والتمسك، وعلى الرغم من ضعف البنية، فإنهم يضحون بالروح حفاظاً على الدين والملة، ومع وجود هؤلاء الأثرياء فهم يتحدثون دوماً عن نوالهم وعطاياهم، حيث اشتهروا بالكرم والجود وبخاصة فى سبيل

الدين، كما أنهم حريصون على أن يمتدحوا ويشتهر عنهم مدى حرصهم على تأييد العقيدة والمذهب، كما أنهم لم يتفهموا منافع الاتحاد، ولم يدركوا بعقل متفحص مضار الفرقة والاختلاف، ولهذا فإن هذا المسكين حياً في الملة يرغب في طي الطريق إلى تلك المملكة كي يلتقى بجميع نواب هذا البلد وأمرائه وعلمائه وعظمائه حتى يوضح لهم الآثار التي تتأني عن الاتحاد والوحدة في كل عالم ظاهر وبين، وكذلك المضار التي تنجم عن الاختلاف والفرقة. كما يسهب معهم في الحديث محاولاً إقناعهم بأسرار الآية الكريمة «إنما المؤمنون أخوة»^(١). وسيبدأ الحديث بكلمات مؤثرة، وأحاديث مشمرة، وسيحاور العلماء ويناقش المحدثين كي يثبت فيهم الروح الجديدة لحب الوطن، ويمزق عنهم أردية الغفلة، ويوضح لهم مقام الخلافة السنية في العالم الإسلامي، وأن بقاء الدين منوط على الدوام ببقاء هذه الدولة. وسأجتمع بهذه الجماعات وأقوم بالوعظ في جميع المساجد بالمدن الكبيرة من هذه الديار معتمداً في ذلك على العظات المؤثرة، وأحاديث خير المسلمين، حتى أشعل ناراً أجاجاً في مواقد كياناتهم، وأحرق دفعة واحدة ما يكمن في قلوبهم من سكينه وخنوع. ثم أبعث ببعض علمائهم إلى عدد من مدنهم النائية، كي أدعو عموم المسلمين في الهند إلى دفع إعانات مالية. هذا ما سأفعله دون سلوك طريق آخر غير هذا، ودون التعرض لسياسة الإنجليز هناك، حيث لن أتناولهم بكلمة واحدة، بل سينصب حديثي على أطماع الروس هناك، وسأفيض في الحديث عن هذا الأمر. وما لاشك فيه أن طائفة الإنجليز ستكون سعيدة مسرورة البال من هذه الحركة الحكيمة

(١) سورة الحجرات، آية (١٠) ونصها كاملاً: «إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم، واتقوا الله لعلكم ترحمون».

التي ستؤدي إلى نفرة الهنود من الروس، بل من المحتمل أنه عندما يدرك الإنجليز أن هذه الحركة تتفق وخطهم السياسي، فسيشجعون الأهالي على تقديم المعونات المالية، كما أنهم سيتفرقون بنا في هذا المضمار. وعندما تحدث مثل هذه الأمور في الهند فإنها لن تخلو من تحقيق عدة فوائد:

أولها: ستجمع ولاشك إعانات مالية يعتد بها.

ثانيها: ستم ألفة ومودة قوية بل اتحاد إسلامي تام بين المسلمين.

وثالثها: عندما يدرك الإنجليز إمكان قيام اتحاد إسلامي تام، فإنهم سيعملون على توثيق صلاتهم السياسية بالدولة العلمية.

ورابعها: لطيفة دقيقة لاتخفى على أرباب البصيرة.

ثانياً: بعد إتمام المهمة في بلاد الهند، أرغب في التوجه صوب دار الإيمان أفغانستان، كي أدعو أهالي تلك البلاد الذين هم على شاكلة الأسود لا يهابون سفك الدماء، ولا يتوانون أبداً عن داعي الحرب وبخاصة الحرب الدينية، فأدعوهم إلى حرب مقدسة وجهاد وطني، بلسان فصيح أوضح لهم أطماع روسيا، وأقول لهم: إن يرد الله ألا ينظر إلى الدولة العثمانية العلية بعين الرضا، فلن يقر ملكة المكرمة أي قرار، ولن يبقى للمدينة المنورة أي وقار، بل لن يبقى من الإسلام أي اسم، ومن الدين أي رسم. كما لن تستمع بعد ذلك لصوت آذان، ولن ترى عين قارئ قرآن، وأنهم سيكونون أذلة كيهود بخاري، أو كقطيح بلا راع يردع ذئب الجور، وسأورد بين هؤلاء الأبطال نداء «حي على القتال» وعسارة «يا لشارت الإسلام» وسأبعث العلماء من ذوى الفصاحة إلى البوادي والجمال كي يثيروا الناس، كما سأعقد العهود والمواثيق بيني وبين الأمراء والعظماء والقواد والحكام وسأشوقهم في كل عظة دينية إلى ما للغيرة

والحمية الدينية من فوائد وأجر. وسأدعو الجميع شيوخا وشبابا، ضعافا وأقوياء إلى الحرب المقدسة. كما سأبعث خفية ببعض العلماء من ذوى الخبرة والحنكة والدهاء إلى قوقند وبخارى كي يوضحوا الأمور لسكان تلك الديار وأن يكونوا على أهبة الاستعداد عند حلول ساعة الصفر ونهاية هذه الحال.

وبعد تمام الدعوة فى أفغانستان أتوجه بأقصى سرعة ممكنة صوب بلوخستان كي أدعو أهالى تلك البلاد الشغوفين دوما للإغارة والسلب والنهب إلى الجهاد العام معتمدا فى ذلك على النعرة الدينية وكذا الترغيب بالمنافع الدنيوية. وسأوظف معهم فى ذلك المضمار ما تجمع لدى من لطائف الحيل القديمة، كما سأرسل بعض علماء الأفغان إلى هذه الأطراف وتلك الأكناف. ومن هناك أتوجه صوب بلاد التركمان حيث يقطن أولئك التعساء الذين عرفوا فى كل زمان بالشجاعة والجسارة، ووصفوا فى كل لغة بسفك الدماء وإثارة الفتن، ولكنهم فى هذه الأزمنة الأخيرة قد تعصبوا بالعار واتشحوا بثياب الخزى إذ أسلموا ما اشتهروا به منذ سنوات عديدة إلى الريح. وأصبحوا تحت إمرة الروس، فأدعوهم إلى الأخذ بالنار، وأحرك فيهم الشعور بالقومية التركية، وسأحمل لهم على كتفى راية الاتحاد الإسلامى. وأهتف فيهم لخوض الحرب الدينية، ولن أتخلى - كما تعودت فى السابق - عن استخدام دقائق الحيل، وسأزرع بالاتفاق مع العلماء دائما بذرة الحمية والغيرة فى قلوبهم وسأرسل الدعاة من أصحاب الفصاحة صوب كاشغر وياركند كي يدعوا مؤمنى تلك الديار إلى إتحاد أهل الإيمان. وفى المعلوم أنه إذا شرع العامة فى خوض الحرب، فسرعان ما يتقدم الأمراء لا محالة إلى الميدان.

ولما كنت عليما بعادات أولئك الناس وأمزجتهم، وكذلك بصيرا بطبائعهم وأخلاقهم، فإننى لا أشك مطلقا فى أن جميع المسلمين سيهاجمون الروس بكل أفئدتهم وأرواحهم، وسيهزمون روسيا التى تحتل

تلك المناطق، بل سيدحرونها لا محالة. ولا يجوز أن ينكر هذا الانتصار أمام المنافع العاجلة، إذ أن فوائده الآجلة التى تتمثل فى تحقيق اتحاد الأمة واتفاقها سيدركها أرباب البصيرة.

ومع ذلك فعندما يحارب أهالى أفغانستان التى تعد فى الحقيقة سداً وسنداً للهند، فإن جماعة الإنجليز ستخوض قهراً وقسراً غمار الحرب، بل وسينزلقون فى غمارها حتى الحلقوم، مما يجعلهم يتخلون عن الرغبة فى السيطرة والتسلط.

وإن يعترض معترض على هذه الخطة قائلاً: ألم يكن أهالى قوقند وبخارى ومدينة شبر والتركمان هم الذين قعدوا عن مقاومة الروس. ولم يجنوا شهرة فى مضمار الحرب، وهم الذين آثروا حياة الذلة على الموت بشرف، وهم الذين ارتكبوا تلك المخازى والمعرات، فأى جدوى تتحقق من الاستعانة بهم؟ فإننى أجيب قائلاً: إذا كانت الحروب السابقة قد اندلعت كلها من أجل أمير ظالم أو حاكم جائر، فكيف يرجى من إنسان يضحي بروحه من أجل إسعاد مثل هذا الأمير أو ذلك الحاكم؟ ولم التزام الثبات والشهامة فى ميدان الوغى؟ أما إذا كانت الحرب من أجل حماية الدين والحفاظ على العقيدة، فإنها توصل إما إلى تاج الشهادة، وإما إلى رداء الفخر والاعتزاز. ففي هذه الحالة سيتقدم كل إنسان إلى الميدان مدفوعاً من تلقاء نفسه، وأملاً فى نصرة العقيدة.

بعد أن بينت خطتى، فإننى أنا العاجز لأبغى من ذلك على أى وجه من الوجوه درهماً واحداً من الدولة، ولا أتطلع إلى دينار، ولكننى سأقوم بهذا الأمر الجلل حباً فى الإسلام، نعم، ولكن بعد الحصول على الإعانة المالية من الهنود، سيطلب العبد الحقير بضعة نياشين من أجل أمراء الأفغان والبلوخ والتركمان.

إن القيام بمثل هذا الأمر الجلل إذا تم بغير إذن الدولة وموافقتها، فإنه يعد من قبيل الفضول، وعملا غير مقبول. وهناك شيء آخر يتمثل في كون تلك البلاد جد بعيدة عن مركز السياسة، وأهلها غافلون عن أخبار العالم وأحوال الدولة العلية في ذلك الوقت، فإن لم أكن مؤيدا في ذلك العمل، فربما لا يوافق على ذلك أمراء تلك الديار، وسيؤدي طلب الاتفاق إلى مزيد من الخلاف، لهذا أرجو من عظمتكم أن يحظى هذا الخطاب بنظركم الثاقب، وأن تطلع عين حصافتكم على مضامينه واحدة واحدة، وذلك دون النظر إلى كون كاتبها مجرد شخص حقير أو نكرة فقير لا يحظى بالمراتب العالية، ولم يصل إلى المناصب السامية، إذ من الواضح لدى عمود الدولة أن مثل هذه الأفعال الجليلة، وتلك الأعمال العظيمة قد تتأني في كل وقت ممن هم أمثالي من الرُّحل لابسى الأسمال، ولكنهم خبروا الحياة ببردها وحرها، وذاقوا الأيام بمرها وحلوها، وجابوا العديد من الجبال والقفار، وتفحصوا أحوال العالمين، أما أصحاب المناصب فهم في خوف دائم على مناصبهم، وكذا أرباب المال وذوو الجاه في خشية على مالهم وجاههم، كما أن المترفين قد عرفوا القدرة على تحمل المشاق.

وبعد، فإن حظيت هذه الخطة بالقبول، وانفقت ورجاحة عقل صاحب العلم والحصافة، فلتوجه الدولة العلية أمرا كتابيا لشخصي، ولتأذن للعبد الفقير بإذن صريح كي أباشر العمل بأقصى سرعة وقبل فوات الأوان، وكى أضحي بروحي حبا في الملة في هذا الميدان. أما إذا اقتضى دستور العمل الحضور، فالعاجز على استعداد للذهاب إلى الآستانة، وإننى رهن الأمر من كل قلبي وروحي.

والأمر في النهاية لصاحب الأمر والنهي!

التعقيب على رسالة جمال الدين

يقول رينان عن جمال الدين الأفغانى:

«تعرفت بالشيخ جمال الدين، فوق في نفسى منه ما لم يقع إلى إلا من القليلين، وأثر في نفسى تأثيراً قوياً، والشيخ جمال الدين نفسه خير دليل يمكن أن نسوقه على تلك النظرية العظيمة التى طالما أعلنها وهى «إن قيمة الأديان بقيمة من يعتنقها من الأجناس»^(١).

هذا القول صادق كل الصديق بالنسبة للشيخ جمال الدين الأفغانى، فقد كان وما زال صورة مشرقة للمناضل المسلم، وكم باتت شخصية ذلك المصلح الشائر محل دراسات فى الشرق والغرب لمحاولة الكشف عن السر الإسلامى الذى أمد جمال الدين بتلك القوة الروحية التى مكنته من الوقوف وهو أعزل فى وجه العديد من الحكام والطغاة. وكما أعطى جمال الدين الإسلام جهداً، أعطاه الإسلام أنفة ومجداً وما أن رفع جمال الدين راية الإسلام خفاقة، حتى ارتفعت هامة جمال الدين إلى السماء عزاً وسؤداً. فأين نحن من جمال الدين وأمثاله الشائرين المصلحين؟ لقد هانت علينا عقيدتنا، فهانت كرامتنا وكرامة أمتنا الإسلامية، وتحولنا إلى شتات وشراذم لا يقيم لها أى وزن فى السياسة العالمية. أفلا يوجد من بين المسلمين ثائر كجمال الدين يقود الركب ويعيد للإسلام مجده وعزته وكرامته؟ ولا يهم كما قال جمال الدين فى أن يكون هذا الشائر المصلح من بين الحكام أو القواد أو أحد العامة، فى أى أرض إسلامية، المهم أن يكون المصلح مخلصاً فى دعوته، مؤمناً بما يروج له، ولقد ضرب لنا جمال الدين بهذا الخصوص مثلين أولهما

(١) نقلاً عن عبدالباسط محمد حسن: جمال الدين الأفغانى وأثره فى العالم الإسلامى الحديث، مكتبة وهبة بالقاهرة، الطبعة الأولى ص: ٩.

يتمثل في أبى مسلم الخراسانى الذى فوض أسس الدولة الأموية، وثانيهما متمثل فى بطرس الراهب الذى أركى الحروب الصليبية. لم يكن هذا أو ذاك أميراً أو قائداً، بل كانا من عامة الناس وأما بموقفهما وأخلصا النية فى هذا الإيمان، فنجحا فى تحقيق مأربيهما.

وعلى هذا فإن جمال الدين يوجه دعوته لعموم المسلمين على اختلاف طبقاتهم وشعوبهم بأن يخلصوا للإسلام، وأن يعقدوا العزم على الإصلاح، وأن يتقدم كل ذى فكر برأيه، وقد يأتى رأى السديد عن أقل الناس شأنًا، وأعوزهم مالا، وأكثرهم فقرا، ثم إذا ما تعرض هذا المصلح للنعن والشدة فلا يوهن ذلك من عزمه، وليكن كجمال الدين الذى وطد نفسه على أن يكبر على كل الفتن والمصاعب والمؤامرات التى حيكت ضده، فقد طرد على سبيل المثال من تركيا حيث أنهم من شيخ الإسلام هناك بالإلحاد، ومع هذا تناسى هذا الطرد وحاول مخاطبة الخليفة العثمانى كى يساعده فى تحقيق هدفه الأسمى وهو جمع كلمة المسلمين تحت لواء الخلافة الإسلامية أملا فى بعث الأمة الإسلامية من جديد.

ودعوة جمال الدين الأفغانى إلى الإصلاح فى هذا الخطاب متشعبة ومتعددة الجوانب، ولذا سأكتفى بالحديث عن أهم أهدافها تجنباً للإطالة. وهذه الرسالة لها ثلاثة أهداف رئيسية، هى:

الهدف الأول: الدعوة الى الجامعة الإسلامية وأن يكون جميع المسلمين أخوة استناداً الى الآية الكريمة: «إنما المؤمنون أخوة» وهذه الأخوة تفرض على عموم المسلمين الذود عن حياض الإسلام والنظر إليها على أنها أرض واحدة، وكذلك المبادرة بتقديم العون لكل شعب مسلم يبرز تحت نير الظلم الداخلى أو الاستعمار الخارجى، وإذا كان جمال الدين قد ركز فى خطابه هذا على مسلمى الهند وأفغانسان

والتركيستان دون غيرها من سائر بلاد المسلمين، فلأن هذه البلاد كانت ذات أهمية خاصة لجمال الدين حيث المنشأ وتخصيل العلوم، ولأن هذه البلاد لا تقع رسمياً تحت علم الخلافة العثمانى، ولكنها تتطبع الى هذه الخلافة كأكبر قوة إسلامية فى ذلك الوقت. فلعلها تمد يد المساعدة لهذه المناطق المنكوبة بالاحتلالين الانجليزى والروسى.

الهدف الثانى: ضرورة الحفاظ على هيئة الخلافة الإسلامية. وما يتبع ذلك من توقيف لشخص الخليفة أيا كان هذا الخليفة عثمانيا أو إيرانيا أو مصرياً وبالتالي لم يكن جمال الدين يعنى خليفة بذاته، وإنما يعنى أى خليفة يجتمع المسلمون حوله فيوحد قيما بينهم ويعمل على رفعة شأنهم، وشأن العالم الإسلامى فى وقت تواترت فيه المصائب والكوارث على عالمنا الإسلامى. وقد ظن البعض بأن هذه الدعوة كانت لحساب سلطان عثمانى معين، ولكن هذا الظن بعيد عن الحقيقة، لأن جمال الدين كما قلنا لم يكن يعنيه أى سلطان عثمانى، وإنما هو معنى يرمز الخلافة الإسلامية، وبكونها الداعية لوحدة المصير. والدليل على أنه لم يعمل لحساب الخلافة العثمانية لذاتها تهجمه على بعض سلاطينها الذين تقاعسوا عن نصره العالم الإسلامى وبعثه بعثاً جديداً. وقد ورد عنه أنه قال فى حق السلطان عبدالعزيز عندما طلب منه مغادرة تركيا متهمين إياه بالإلحاد:

«السلطة الزمنية بملكها أو سلطانها تستمد قوتها من الأمة، لقمع أهل الشر، وصيانة حقوق العامة والخاصة، وتوفير الراحة للمجموع بالسهر على الأمن وتوزيع العدالة المطلقة، أما إذا أودعت هذه السلطة بيد رجل جاهل عات، اكتنفه قوم من فاسدى الأخلاق، مجهولى الأعراق. يلعبون بالسلط كيف يشاءون، ثم يحتجون على الشعب بقولهم: «مشيئة

الملك قانون المملكة».. هذا القول مما يجب على الأمة وقوفها تجاهه، وأن تقاومه بكل ما لديها من قوة^(١).

الهدف الثالث: معاداة الروس: حيث كان الروس ومازالوا يمثلون أكبر خطر استعماري يهدد أمن العالم الإسلامي في أفغانستان وإيران وباكستان وغيرها من البلاد الإسلامية الآسيوية. حيث يختلف الاستعمار الروسى عن غيره بأنه استعمار يضم أى أرض يدخلها إلى حوزة الدولة الروسية ذاتها. وذلك ما حدث مع الجمهوريات الإسلامية التى استولى عليها الروس خلال القرن الماضى وأصبحت جزءاً من اتحاد الجمهوريات السوفيتية. ولم تتوقف أطماع روسيا القيصرية ولا روسيا الشيوعية عن توسيع رقعة الأراضى السوفيتية على حساب جيرانها من العالم الإسلامى، وما حدث وما يحدث فى أفغانستان اليوم خير دليل على تخوف جمال الدين من الروس، لذا حاول أن ينبه خليفة المسلمين فى ذلك الوقت إلى خطرهم الداهم، لعله يستطيع استنفار جموع المسلمين بما يتمتع به من قوة روحية، حتى يوقف هذا المد الروسى. وقد بين جمال الدين أن الوقوف فى وجه الروس مهمة إسلامية محضة لاهمة الإنجليز أو الفرنسيين فى ذلك الوقت، كما أنها ليست مهمة أمريكا فى الوقت الحاضر، بل مهمتنا نحن المسلمين أولاً وأخيراً. ويرى جمال الدين الأفغانى أن خير وسيلة لوقف هذا الزحف الروسى هو تفجير الدولة الروسية من الداخل، وذلك بإشعال نار الفتنة فى الجمهوريات الإسلامية، كى تقف ضد الحكومة المركزية فى موسكو. وإذا كانت شعوب هذه الجمهوريات الإسلامية قد تقاعست عن محاربة الروس عندما دخلوها، فيجب أن ننسى هذا ونثير فيهم الحمية الدينية والكرامة الوطنية كى

(١) جمال الدين: خاطرات جمال الدين، ص: ٣٧. المطبعة العلمية، بيروت ١٩٣١.

يعودوا تأثيرين ضد الوجود الروسى، وضد هيمنة موسكو على مقدرات المسلمين ومعتقداتهم فى تلك الجمهوريات.

ولاشك أن هذه الخطة مازالت جدية بالاهتمام، قابلة للتنفيذ، فالمسلمون هناك على الرغم من مضى قرابة قرن من الزمان على دخولهم تحت حوزة العلم الروسى إلا أن الشعور الدينى مازال قويا عندهم، وخير دليل على ذلك أعداد الحجاج الوافدين من روسيا إلى مكة كل عام على الرغم من تدخل الحكومة المركزية فى تحجيم هذه الأعداد وكذلك محاولاتها المستميتة لصرف الشباب عن تعاليم الإسلام وأصوله ومبادئه.

وفى حديث جمال الدين الأفغانى عن معاداة الروس استوقفنى قوله: «هذا ما سأفعله دون سلوك طريق آخر غير هذا، ودون التعرض لسياسة الإنجليز هناك - أى بالهند - حيث لم أتناولهم بكلمة واحدة، بل سينصب حديثى على أطماع الروس هناك». فهل يعنى هذا انحيازاً الى جانب الإنجليز؟ كلا؛ فلم يكن جمال الدين عميلاً للاستعمار الإنجليزى بالمنطقة. بل كان يبنى من هذا الحديث، ومن موقفه هذا أن يوقع بين هاتين القوتين المتناحرتين من أجل السيطرة على الأراضى الإسلامية فى تلك المنطقة، عملاً بمبدأ «إذا اختلف اللسان ظهر المسروق»، وهل هناك مسروق غير الأراضى الإسلامية التى يبنى جمال الدين تحريرها من الإنجليز والروس معاً، وقد أشار جمال الدين نفسه إلى هذا الهدف حينما قال: «ومما لاشك فيه أن طائفة الإنجليز ستكون سعيدة مسرورة البال من هذه الحركة الحكيمة التى ستؤدى إلى نفرة الهنود من الروس، ومن المحتمل أنه عندما يدرك الإنجليز أن هذه الحركة تتفق وخطهم السياسى، فإنهم سيشفجعون أهالى الهند على تقديم المعونات المالية، كما أنهم سيتفرقون بنا فى هذا المضمار...».

ولعل رغبة جمال الدين فى الإيقاع بين الإنجليز والروس هو الهدف الرابع الذى لم يفصح عنه جمال الدين، عندما تحدث عن أهداف زيارته للهند.

أضف إلى ذلك أن جمال الدين كان قد أبعد من قبل عن الهند، حيث طلبت منه القوات الإنجليزية مغادرتها عندما بدأ الناس يلتفون حوله ويتأثرون بأحاديثه، مما جعله يحاول تجنبهم هذه المرة لاحبا فيهم، وإنما تجنباً لشهرهم، وأمثلاً فى تركه يثير الهنود ضد الروس. أما عن جمال الدين فهو لا يحب الإنجليز كما لا يحب الروس. ونحن نعرف أنه كما تحدث عن تأليب الإنجليز الروس، تحدث أيضاً فى مواضع أخرى عن تأليب الروس ضد الإنجليز، بل إنه دعاهم لإخراج الإنجليز من الهند، إذ حاول أثناء تواجده فى روسيا [١٨٨٦-١٨٨٩م]، إقناع القيصر الروسى بالزحف على الهند لطرد الإنجليز معتمداً فى ذلك على مساعدة الدولة العثمانية ودولة أفغانستان وإيران^(١).

هذه أهم الأهداف التى تضمنتها رسالة الشيخ جمال الدين الأفغانى، وأهمها هو الهدف الثالث الذى ركز كاتب الرسالة على إبرازه، ولو تنبهنا إلى هذه الرسالة وأمثالها التى بينت لنا الخطر الروسى المحيط بأفغانستان وغيرها. لما حدث ما حدث من غزو سوفيتى لأفغانستان، ولكان الوضع جد مختلف عما هو عليه الآن.

(١) د. عبدالباسط محمد حسن: جمال الدين الأفغانى، ص: ٥٥.

وأخيرا أدعو الله أن يتفقد برحمته روح الشيخ جمال الدين الأفغانى،
وروح أستاذنا المرحوم محمد إحسان عبدالعزيز، وأن يلهمنا القدرة على
الإخلاص فى العمل كما كانا مخلصين دعويين فى كل عمل أقدمنا
عليه، فهما نعم المعلم، ونعم المرشد.
والله الموفق ، ، ،

جمال الدين الأفغانى والثورة الدستورية فى إيران

جمال الدين الأفغانى والثورة الدستورية فى إيران

قال الأستاذ حسن نبوى وكيل مجلس الشيوخ الإيرانى الأسبق فى كتابه تاريخ معاصر إيران: من الواجب أن ينظر إلى سيد جمال الدين على أنه ممن نادوا بالحرية فى بداية المطالبة بالدستور، وإقامة حياة نيابية فى إيران، وذلك لدوره الرائد فى نشر أفكاره الجديدة، ومطالبته بالحرية وذلك فى شجاعة وصراحة تامتين، وبذره بذور التحرر فى قلوب الإيرانيين.

وقال المتششرق البريطانى إدوار براون فى كتابه «صورة إيران» كان سيد جمال الدين من أئمة المطالبين بالحرية فى الشرق، وأحد مفجرى ثورة إيران الدستورية.. وقال عنه كذلك.. إن هذا الإنسان بدون أدنى مبالغة كانت فرائص الملوك ترتعد وترجف من قوته الخفية التى لم يستطع أحد من ساسة الشرق أو الغرب تفهمها، ومحاولة الإفادة منها.

وقال يحيى آرين پور فى كتابه القيم «از صبا تا نياما»: «إن إسهام جمال الدين فى يقظة الشرق، وفى إشعال نار الثورة الدستورية فى إيران، وبذر بذور الحرية بين الإيرانيين أمر لا يمكن إنكاره أو تجاهله..»

هذا بعض ما قيل فى حق جمال الدين وصلته بالثورة الدستورية فى إيران ولا يوجد كتاب واحد يتحدث عن الثورة الدستورية فى إيران إلا وأفرد صفحات كثيرة لما قام به جمال الدين من دور رائد فى هذا المجال، ولكن ما قصة هذا الدور؟

ذكر كثير من الكتاب والمؤرخين أن جمال الدين هجر إيران إلى الهند وأفغانستان وله من العمر ثمانية عشر عاما. أى فى عام ١٢٧٢هـ على اعتبار أنه ولد عام ١٢٥٤هـ وظل يسبح فى أقطار الشرق المختلفة يؤلبها ضد قوى الاستعمار وبخاصة الاستعمار البريطانى، وظل فى

حركته الدائبة حتى وافته الفرصة للعودة إلى إيران في عام ١٣٠٤ هـ، وقضى في هذه العودة أربعة أشهر تعرف فيها على عدد كبير من مفكرى إيران ومشايخها، وتحدث معهم عن المآسى التى تتعرض لها إيران من جراء وجود النفوذ الإنجليزى، وانشغال الشاه عن تحقيق مصالح الشعب.

ثم سافر إلى روسيا ومنها إلى أوروبا وظل هناك حتى التقى بالشاه ناصر الدين فى ميونخ وذلك فى أواخر عام ١٣٠٧ هـ، وكان فى صحبة الشاه، أمين السلطان والأتابك الأعظم ميرزا على أصغر خان، واتفق الثلاثة على ضرورة عودة جمال الدين إلى إيران، على أن يمر بروسيا قبل مقدمه، لكى يحاول إصلاح العلاقات بين أمير السلطان وبين وزراء روسيا.

وأخيرا عاد الشاه أمين السلطان إلى طهران، بينما توجه جمال الدين إلى روسيا ووصل نبأ هذا الاتفاق إلى السفير الإنجليزى مستر ولف، فسارع بإرسال إنذار إلى أمين السلطان جاء فيه: «لما أن تختار صداقتى أو صداقة جمال الدين، الآن حفاظك على الصداقتين يعد من قبيل جمع الأضداد.. ومن واجبك أن تسارع بطرد جمال الدين فور وصوله إلى إيران...!!»

وأمام هذا الإنذار، لم يحسن أمين السلطان استقبال جمال الدين لدى عودته من روسيا. بل يتجاهل مقدمه ولم يقابله إلا بعد مضى شهرين كما لم يسمح له بمقابلة الشاه إلا بعد انقضاء أربعة أشهر على مقدمه. مما أشعر جمال الدين بالإهمال المتعمد وهما اللذان دعواه إلى إيران.

وأمام هذا الإهمال لجأ جمال الدين إلى مسجد الشاه عبدالعظيم، وأقام فى هذا المسجد زهاء سبعة أشهر حرص خلالها على التشهير

بخيانة أمين السلطان وتعنّت الشاه ناصر الدين، فتجمع الكثيرون حوله، وبدأ تيار الثورة يسرى فى نفوس العامة الذين يلتفون حوله فحاول بعض رجال البلاط التوسط لدى الشاه للعفو عنه. وكاد الشاه يستجيب لولا تدخل أمين السلطان، وتحذيره له، كما جاء فى مذكرات أمين الدولة نفسه: «إذا ترفقت مع جمال الدين فإن الحكومة البريطانية ستغضب منك، وأول ضرر يمكن أن يحيق بك سيتمثل فى إلغاء الحكومة لامتياز التبغ...».

ولكن ما قصة امتياز التبغ هذا؟

استطاع السفير البريطانى مستر ولف أن يتفق مع أمين السلطان والشاه على منح شركة بريطانية حق احتكار تجارة التبغ فى إيران كلها، حيث تقوم الشركة بشراؤه من المزارعين، ثم تقوم بتصنيعه وأخيراً بيعه للمدخنين، وذلك فى مقابل منح الشاه منحة تأسيس قدرها ألف جنيه ومنحة سنوية - أو بمعنى أصح رشوة - قدرها خمسة عشرة ألف جنيه أما منحة أمين السلطان فلم يعلن عنها.

وأمام تخوف ناصر الدين شاه من إلغاء هذا الامتياز وحرمانه من الرشوة السنوية امتنع عن التلطف مع جمال الدين، بل امتثل لأوامر السفير الإنجليزى وأمين السلطان، وأصدر أمراً باعتقاله فى مسجد الشاه عبدالعظيم وطرده خارج إيران كلها بعد ذلك، فتوجهت فرقة من الخيالة صوب المسجد وأخرجت جمال الدين عنوة، وذلك بين صيحات احتجاج العامة، وتساؤلهم إذ كيف يجزؤ عمال الشاه على اعتقال من التجأ الى مسجد الشاه عبدالعظيم، فما كان من هذه القوات إلا أن قرأت على الملأ كتابا جاء فيه:

إن جمال الدين هذا ليس «سيدا» كما يدعى، وإسلامه مشكوك فيه، فهو غير مختون، ثم مزقوا أرديته في ساحة السوق وكشفوا عن عورته، وبعد ذلك سيق حاسر الرأس حافى القدمين ممزق الثياب على الرغم من برودة شتاء طهران، وحملته فرقة الخيالة إلى خارج طهران، ثم توجهت به جنوب خانقين على مقربة من الحدود العراقية الإيرانية.

بعد ذلك توجه جمال الدين إلى بغداد ومنها إلى البصرة، ليكون على مقربة من الحدود الإيرانية وليسهل عليه إرسال الرسائل إلى تلاميذه وأصدقائه هناك محرضاً إياهم على الثورة ضد الشاه والاستبداد.

وفى أثناء إقامته في البصرة، قامت ثور شعبية في شيراز ضد مندوبى شركة التبغ البريطانية. فتدخلت قوات الجيش امتثالاً لأوامر أمين السلطان والسفير البريطانى وقتلت عددا كبيرا من الثائرين، وأبعدت عددا من زعماء الثورة خارج الأراضى الإيرانية ومن هؤلاء [سيد على أكبر] الذى أبعد إلى البصرة، والتقى هناك بجمال الدين وأطلععه على أبعاد ثورة شيراز، وغلين باقى أقاليم إيران ضد شركة التبغ البريطانية ومن منحوها امتياز احتكار التبغ في إيران كلها.

وأخيرا اتصل جمال الدين بالشيخ ميرزا شيرازى أعلم علماء الشيعة فى ذلك الوقت وكان موجودا بمدينة (سامرة) واستعداه على الشاه والشركة البريطانية فأصدر الشيخ الشيرازى فتوى تحرم على الإيرانيين زراعة التبغ وتدخينه مادامت الشركة البريطانية محتكرة له، وجاء فى فتوى التحريم:

«إن استعمال التبغ على هذا النحو يعد فى حكم معاداة إمام الزمان ومحاربه» واستجاب الإيرانيون فى جميع ربوع إيران لفتوى التحريم

وأحرقوا غلايينهم، وأغلقت حوانيت بيع التبغ أبوابها، مما أصاب الشركة البريطانية الاحتكارية بخسارة جسيمة، مما دفعها لإلغاء الامتياز.

ومما لاشك فيه أن ثورة التبغ والدور الكبير الذى قام به جمال الدين فى إذكاء نار هذه الثورة عن طريق رسائله العديدة إلى رجال الدين فى إيران، واستصداره فتوى التحريم من الشيخ ميرزا شيرازى، لاشك أن هذه الثورة كان لها دور كبير فى تبشير المطالبة بحياة دستورية نيابية، إذ كان الإيرانيون حتى هذه اللحظة يرهبون الحكومة ويشعرون بالضعف أمام قوتها، فأوضحت لهم هذه الثورة الشعبية قدرتهم على فرض الإرادة الشعبية على كل طاغية إذا توحدوا وقاموا قومة رجل واحد. ولهذا بدأت الحركات المعادية للأسرة الحاكمة تأخذ شكلا أكثر جدية، وبدأت المسيرة نحو حياة دستورية نيابية تسير فى مسارها الصحيح.

بعد نجاح هذه الثورة غادر جمال الدين البصرة وتوجه إلى لندن واشترك مع تلميذه الشيخ محمد عبده فى إصدار مجلة (ضياء الخافقين) باللغتين العربية والإنجليزية. وكتب جمال الدين فى عددها الأول هجوما لاذعا ضد ناصر الدين شاه، وحث رجال الدين الإيراني على ضرورة عزل الشاه عن منصبه. والعمل على إعادة الخلافة الإسلامية الموحدة، ومما لاشك فيه أن الدعوة الأخيرة قد وجدت هوى فى نفس الخليفة العثماني، فدعاه إلى استانبول لى يروج للخلافة العثمانية وضرورة انفرادها بزعامة العالم الإسلامى، وأن الوحدة الإسلامية توجب عدم وجود زعامة شيعية فى إيران.

وكان وجود سيد جمال الدين فى العاصمة العثمانية فرصة ليلتقى ببعض مفكرى إيران وثائريها ضد الشاه والحكومة والنفوذ البريطانى والروس، فكان جمال الدين يزيد ثورتهم اشتعالا، حتى قال كثير من

المؤرخين بأن رضا كرماني قاتل ناصر الدين شاه ليس إلا تلميذا من تلاميذ جمال الدين، ومريدا من مريديه، ومن الطريف أن رضا كرماني سجل أحاسيسه الوطنية في ثلاثة أبيات من الشعر سطرها بدمه على جدران زنزانه. فقال ما ترجمته:

- إلهي لتجنب إيران ذلك اليوم الشؤم الذي تقع فيه تحت وطأة الأجانب.

- إلهي كم أتمنى ألا يأتي ذلك الزمان الذي ستصبح فيه هذه العروس في قبضة شباب الروس.

- إلهي لتجنب هذه الشبيهة بالبحور أبد الدهر، أن تصبح قرينة للورد ساكسوني.

ولاشك أن اغتيال ناصر الدين شاه والذي تم عام ١٣١٣هـ (١٨٩٦م) كان تحطيما لصنم الجبروت والطغيان في إيران، وذلك لأن حكمه استمر زهاء خمسين عاما اتسمت بتفشي كل مظاهر الظلم والتعسف ووقوع إيران فريسة للامتيازات الأجنبية، لذا ما أن سقط حتى زادت المطالبة بحياة نيابية دستورية في إيران وبدأ هذا التيار الشعبي يظهر أكثر وضوحا ويعم جميع مناطق إيران لا العاصمة وحدها. وأخيراً نجح المطالبون بالدستور بإرغام الحاكم القاجاري مظفر الدين شاه وهو خليفة ناصر الدين المغتال، على إصدار الأوامر بقيام حياة برلمانية وإصدار أول دستور في إيران وذلك في عام ١٣٢٣هـ (١٩٠٦م) وهكذا كان دور جمال الدين في قيام حركة نيابية في إيران دورا إيجابيا، وهكذا كان جمال الدين رجل سياسة في المقام الأول. ولعلني اتفق في هذا الرأي مع

عدد كبير ممن كتبوا عن شخصية جمال الدين ومنهم البروفيسور الألماني
كلد زيهير الذي قال:

«لقد اعتبر البروفيسور ادوارد براون سيد جمال الدين فيلسوفا،
وكاتبا، وخطيبا، وصحفيا، ولكنني أعتقد أنه كان رجل سياسة في المقام
الأول».

فضل بخارى على الشعر الفارسي «إبداعاً وتاريخاً»

فضل بخارى على الشعر الفارسي إبداعا وتاريخاً

منذ أشرقت شمس الإسلام على البشرية، وأضاءت أشعتها كل
الأمصار التي حباها الله باعتناق الدين الحنيف، سقطت عن هذه
الأمصار جميعاً حدود التبعية لجنس أو للغة أو لوطن، فعاش المسلمون
لعدة قرون في بوتقة واحدة لا فضل لأحدهم على الآخرين إلا بمقدار
إيمانه وعمله، وقد جاهد النابهن منهم على أن يعلو صرح الحضارة
الإسلامية بالغوص في بحار العلوم والفنون المختلفة. وتطويعها لخدمة
الإسلام والمسلمين، ولم يكن يطلق على أى عالم منهم إلا مصطلح
«عالم مسلم» أو «مفكر إسلامي» دون عصبية عرقية أو تحيز إقليمي، ولما
كانت اللغة العربية في قرون الإسلام الأولى هي لغة العلم، فقد كتب
كل هؤلاء العلماء والمفكرين بلغة القرآن، ومع هذا فلم يحدث في تاريخ
الثقافة الإسلامية أن ادعى العرب أو تجاسروا على الحقيقة قائلين بأن
الإمام البخارى أو العلامة البيرونى أو الفيلسوف الحكيم ابن سينا أو حجة
الإسلام أباً حامد الغزالي أو سيبويه أو الزمخشري أو أباً بكر محمد بن
جعفر النرشخي (صاحب كتاب تاريخ بخارى) على سبيل المثال لا
الحصر كانوا «عرباً» بل قالوا ويقولون إنهم «مفكرون مسلمون» أو إنهم
«علماء الإسلام».

وعندما تمكن الفرس من إعادة اللغة الفارسية إلى الاستخدام بعد
اندثار دام أكثر من قرنين من الزمان، ثم نجحوا في نشرها لبعض الوقت
في منطقة بلاد ما وراء النهر والتركستان، فقد ادعوا ومازوا بأن كل من
كتب بالفارسية من مواطني هذه البلاد كان إيرانيا وكأنهم قد حسبوا أن
وحدة اللغة تعلق على وحدة العقيدة أو الأعراق أو الأوطان.

وكان الأخرى بالإيرانيين أن يعيدوا الفضل إلى ذويه، وأن يعترفوا بأن أولئك العلماء والفضلاء من مواطني التركستان قد كتبوا بالعربية أولاً ثم بالفارسية ثانياً كلغتين إسلاميتين دون أن يفقدوا هويتهم الوطنية، وأن يعترفوا شاكرين بأن هؤلاء العلماء من التركستان الذين كتبوا أو نظموا بالفارسية قد قدموا خدمات جليلة لهذه اللغة الوليدة وساعدوها على البقاء والانتشار بعد ذلك.

وإسهام أهل التركستان في مجال الثقافة الإسلامية، سواء من كتب منهم بالعربية أو الفارسية أكبر من أن يحصى، وهؤلاء العلماء من مواطني التركستان الذين خدموا الفكر الإسلامي أعظم من أن تورد أسماءهم في مقال واحد أو كتاب واحد، بل إنهم يحتاجون إلى دائرة معارف خاصة بهم وتبرز أعمالهم ومقدار إسهاماتهم في بناء الحضارة العالمية كلها لا في مجال الحضارة الإسلامية وحدها.

وإذا جاز لنا في هذا البحث المختصر أن نذكر بعض هؤلاء العلماء الذين عاشوا خلال القرون الإسلامية الأولى في بخارى وحدها - وهي موضوع البحث - فإنني سأكتفي بذكر البعض دون الكل وذلك على سبيل المثال لا الحصر لأنهم كثيرون، وليس من السهل ذكرهم جميعاً فمنهم:

- سيبويه بن عبدالعزيز البخارى النحوى المشهور، والذي تولى القضاء فترة لم يظلم فيها أحد.

- عبد المجيد بن ابراهيم النرشخى قاضى بخارى، وهو من فضلاء الدنيا في زمانه.

- أبو ذر محمد بن يوسف البخارى، وكان يشغل كرسى القضاء في بخارى، كما كان من أصحاب الإمام الشافعى.

- أبو الفضل بن محمد بن أحمد المروزي السلمي الفقيه وصاحب الكافي الذي قضى سنوات طويلاً في بخارى، وتولى الوزارة للسامانيين.
- الإمام أبو حفص الكبير البخاري، وكان يفوق جميع مواطنيه في الزهد والعلم وبركته أصبحت بخارى «قبة الإسلام»، وبفضله أقبل أهل بخارى على العلم والمعرفة.
- الإمام الزاهد الشيخ أبو بكر محمد بن أحمد الإسكافي المعروف بخواجه پاره دوز.
- كعب بن سعيد العامري الملقب بخواجه كعبان والمعروف بكعبان العابد، وقد اغتيل على يد الكفار عام ١١٩هـ.
- وأشهرهم جميعاً الإمام البخاري صاحب «الجامع الصحيح» المعروف باسم «صحيح البخاري»، أما اسمه كاملاً فهو: محمد بن اسماعيل بن إبراهيم بن مغيرة بن أحنف الجعفي حافظ المكنى بأبي عبد الله^(١).
- كلما توالى القرون كلما زاد عدد هؤلاء العلماء والفضلاء من أهل بخارى وساكنيها، وزادت إسهاماتهم في مجال ازدهار الحضارة الإسلامية.
- وإذا تجاوزنا العلماء عامة وانتقلنا إلى مجال الشعر الفارسي، وهو موضوع بحثنا فقد حفلت بخارى بالعديد منهم سواء أكانوا من مواليدها أو ممن نزحوا إليها تقريباً من بلاط حكامها، وسنخص بالذكر بعضاً ممن
- (١) لمعرفة المزيد عن هؤلاء العلماء وأقرانهم يمكن الرجوع إلى: سعيد نفيسي في كتابه الشهير: محيط زندكي وأحوال وأشعار رودكي، تهران ١٣١٤هـ، ومن الجدير بالذكر أنه ذكر من فضلاء هذه المرحلة المتقدمة، أسماء تسعة وثلاثين عالماً من مشاهير بخارى، حيث كان يعيش الرودكي، وأسماء أحد عشر اسماً لمشاهير سمرقند، حيث كانت ولادة الرودكي.

عاصروا الدولة السامانية وعاشوا نفس الفترة التي عاشها شاعرنا الرودكى، وأسهموا معه فى ترسيخ النظم بالفارسية، ومن هؤلاء الشعراء: معنوى بخارى، وأبو المؤيد رونقى بخارى، وسپهرى بخارى وأبو المثل بخارى وجلاب بخارى، وشاكر بخارى، وأبو العباس فضل بن عباس رينجنى بخارى، وأبو الحسن على بن إلیاس آعاجى بخارى، والامير ابو ابراهيم منتصر سامانى، وغيرهم كثير^(١).

ولاشك أن مدينة كهذه يجتمع فيها كل هؤلاء الفضلاء والعلماء، وتتخذها الدولة السامانية حاضرة لها، لابد وأن تكون مدينة ذات سمات ومميزات تؤهلها للقيام بهذا الدور الحضارى الضخم، وقد ورد فى برهان قاطع أن اسم بخارى مشتق من كلمة «بخار» وهى تعنى بالسنسكريتية: المدينة الزاخرة بالعلم، وذلك لكثرة العلماء والفضلاء بها، وقيل إن هذه المدينة كانت فى الأزمنة القديمة جد عظيمة حتى قل مثلها فى العالم، ولذا قيل لها (بخارى الشريفة)^(٢).

أما أبو بكر محمد بن جعفر النرشخى فقد ذكر فى كتابه «تاريخ بخارى...»: وأن هذه المدينة كانت تحظى بالكثير من الأسماء، منها: نيمجكت، وبومكست وشارستان روبين، أى المدينة الصفراء، أو شهر بازركانان أى مدينة التجار، ولكن اسم بخارى أشهر من كل ذلك^(٣).

ويقول عنها الثعالبى فى يتيمة الدهر: كانت بخارى فى الدولة السامانية مثابة المجد وكعبة الملك ومجمع أفراد الزمان ومطلع نجوم أدباء الأرض وموسم فضلاء الدهر^(٤).

(١) راجع: أحمد اداره جى كيلانى: شاعران همعصر رودكى: تهران. ١٣٧ هـ ش.

(٢) لغت نامه.

(٣) النرشخى: تاريخ بخارى ١٤١٧ هـ ش، والترجمة العربية (د. أمين عبدالمجيد ود. نصر الله الطرازى) ص: ٤١، دار المعارف ١٩٩٣.

(٤) نقلاً عن عبدالغنى ميرزايف: أبو عبدالله رودكى، تاجيكستان ١٩٥٨، ص ٤٠.

وقال ابن سينا نقلا عن ابن أبي أصيبعة فى عيون الأنباء فى طبقات الأطباء: كانت مكتبة بخارى من المكتبات الكبرى فى العالم فى ذلك الوقت ، وأنه قد استفاد منها، ورأى فيها كتباً فى كل علم وفن، وكتبها لم يسمع كثير من الناس بأسمائها، ولم يرها هو من قبل، ولم يعثر عليها بعد ذلك^(١).

ويقول أرمينيوس فامبرى فى كتابه تاريخ بخارى: كانت بخارى حاضرة الإقليم منذ عهد السامانيين، وتشير أقدم الكتب الجغرافية ببلاد ما وراء النهر إلى أن هذه المدينة كانت أيام ازدهارها تعد أعظم مدن العالم الإسلامى كله... والبلدة الداخلية كان يحيط بها سور له سبعة أبواب، ولم تكن هى مناط شهرتها، فذلك شأن ضواحيها وما كان يجرى فيها من القنوات العديدة، وما كانت تزخر به من منشآت فخمة إلى جوار ما حبتها به الطبيعة من رونق وبهاء... وقد أشاد الرحالة العرب القدامى بذكر بساتين بخارى الفسيحة، وما كان يزيناها من أشجار الفاكهة القليلة بعددها، الممتازة بشمارها، ناهيك بشمار البرقوق الذى تذيع شهرته من ألف عام حتى اليوم، فهو أفخر ثمر من نوعه بآسيا، ولم تكن بخارى مدينة فخمة تمتاز بخصائصها الطبيعية العظيمة فحسب، بل كانت كذلك سوقاً رئيسياً تلتقى فيه تجارة الصين بتجارة آسيا الغربية، فضلاً عما كان بها من مصانع كبيرة للحزير والديباج والمنسوجات القطنية وأجود أنواع الأنشطة والمصنوعات الفضية والذهبية، كما كانت مركزاً هاماً للصيرفة يستبدل فيها سكان آسيا الشرقية والغربية سكتهم بواسطة أهلها^(٢).

(١) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء فى طبقات الأطباء جـ ٢ ص ٤ طبع مصر.

(٢) أرمينيوس فامبرى: تاريخ بخارى، ترجمة د. أحمد الساداتى ، ص ٢٥.

وقال كذلك: إن عدد المدارس الجامعة ببخارى على عهد اسماعيل الساماني كان يزيد على نظائره في كل مدن آسيا^(١).

وأشهر بقاع وضواحي مدينة بخارى ضاحية «جوى موليان» التي تغنى بها الرودكى في شعره - كما سيرد بعد - وهذه الضياع اشتراها الأمير اسماعيل الساماني من قائد المستعين بن المعتصم العباسي، وأنشأ فيها الأمير اسماعيل دورا وبساتين، وأوقف أكثر الحصص فيها على مواليه ونتيجة لذلك فقد سميت «جوى موليان» ولكن العامة أطلقوا عليها اسم «جوى موليان» بحذف الألف، وهذا الاسم هو الذى ذاع بهذه الضاحية واشتهر، وكان كل من ولى الإمارة بعد الأمير اسماعيل قد أنشأ له فى جوى موليان بساتين وقصورا لحسنها ونضارتها ونقاء جوها..وقد ظلت هذه الضاحية معمورة حتى آخر عهد السامانيين، ولما ذهب الملك عنهم تخرت تلك الديار^(٢).

ونتيجة لما حظيت به بخارى من شهرة وجمال فى مناظرها وحسن حدائقها، وما اشتهرت به من علماء وفضلاء فقد مدحها العديد من شعراء الفارسية فى عصور مختلفة، وقالوا فيها العديد من القصائد، أذكر منها على سبيل المثال هذه الأبيات:

قال الرودكى^(٣):

(١) المرجع السابق ص، ١٠٩.

(٢) الترشيخ: الترجمة العربية، ص: ٤٩ - ٥٠.

(٣) عبدالغنى ميرزايف: أبو عبدالله رودكى، ص: ٤١.

امروز بهر حالى بغداد بخارا است کجا مير خراسان است پيروى انجاست
ساقى تويده باده، ومطرب تويزن رود تامى خورم امروز، كه وقت طرب ماست
مى هست وازم هست، ويت لاله رخی هست غم نيست وكر هست نصيب دل اعداست

وترجمتها:

- أصبحت بخارى اليوم بكل المواصفات شبيهة ببغداد، فحيثما وجد
أمير خراسان وجد النصر والظفر.

- أيها الساقى قدم الخمر، وأيها المطرب اعزف على العود، حتى
أحتسى الخمر اليوم، فالوقت وقت الطرب.

- الخمر متوفر، والجنة ماثلة والحسان حاضرات، ولا مكان للنغم،
وإن وجد ففى قلوب الأعداء!

وقال ناصر خسرو^(١)

اینجاست برایکآن ترا دبستان در بلخ مجویش، نه، در بخارى!

وترجمته:

إن كنت تبحث عن العلم بلا مقابل، فلا تبحث فى بلخ إبحث عنه
فى بخارى!

وقال المولوى^(٢):

آن بخارا معدن دانش بود پس بخارائىست هرك آنش بود
وترجمتها:

- تلك بخارى منجم العلم والفضل، لذا فإن البخاريين هم أهل
العلم والفضل.

(١، ٢) لغت نامه.

وعن صلة اللغة الفارسية ببخارى يقول فامبرى:

كانت الفارسية هى اللغة السائدة فى بخارى وفرغانة وخوارزم منذ عهد السامانيين وحتى السلاجقة، ولكن اللغة التركية قد حلت محلها بعد الغزو المغولى^(١).

ويقول سعيد نفسى: كانت بخارى فى زمن الرودكى كغيرها من مدن ما وراء النهر قد رحلت إليها بعض عناصرنا العرقية وأقاموا فيها، وكان هؤلاء يتحدثون الفارسية وبخاصة منذ أصبحت بخارى عاصمة للسامانيين ومركزاً للأدب الفارسى، حيث كان الأمراء السامانيون لا يدخرون وسعاً فى رواج هذه اللغة، وهكذا أصبحت بخارى منذ ذلك الوقت أشهر مركزاً للغة الفارسية^(٢).

وإذا كانت اللغة الفارسية قد قدمت للحضارة العالمية شعراء عظاماً عديدين، فالفضل فى ذلك يجب أن نرجعه إلى الموطن الأكبر لرواج الشعر الفارسى الإسلامى فى مهده، وهو مدينة بخارى عاصمة السامانيين، فقد زخرت هذه المدينة العريقة بمعظم الشعراء فى هذه الفترة، وكان على رأس هؤلاء الشعراء جميعاً، الرودكى: أبو الشعر الفارسى - كما يطلق عليه جميع مؤرخى الأدب - وهو صاحب أول ديوان شعرى فارسى، وهذا الشاعر الكبير هو ابن التركستان، حيث كان مولده بمدينة سمرقند، بينما كانت إقامته الدائمة بمدينة بخارى، وفيها نظم معظم أشعاره إن لم تكن كلها!

(١) فامبرى: ص: ٣٦.

(٢) سعيد نفسى: محيط زندكى واحوال واشعار رودكى ص ١٤ وما بعدها.

ولم يقتصر فضل بخارى على أنها قدمت للشعر الفارسى الأبوة فى النظم ممثلة فى الرودكى، بل امتد فضلها بأن قدمت للشعر الفارسى الريادة كذلك فى التأريخ وكتابة التذاكر، وقد تمثلت هذه الريادة فى ابن بخارى محمد عوفى الذى قدم للأدب الفارسى أعظم كتاب للتذاكر وأصدق، وعلى الرغم من مرور العديد من القرون وتتابع كتب التذاكر، فما زال كتابه الشهير «لباب الألباب» الكتاب الرائد والأصدق والأشمل.

وهكذا كان فضل بخارى على الشعر الفارسى قد شمل شقيه، شق النظم وشق التحقيق، وإذا كان الأدب الفارسى قد قدم للفكر العالمى بعد ذلك شعراء كبارا - كما سبق القول - فهؤلاء جميعا من أبناء الرودكى، وإذا كانت كتب التذاكر قد توالى بعد ذلك، فجميع أصحابها هم عيال محمد عوفى، كما يقول المؤرخون.

وما دام هذان العالمان الكبيران قد انعقدت لكليهما الريادة فى فنيهما. فجدير بنا أن نعرف بكل منهما تعريفا موجزا يتمشى مع طبيعة المؤتمر الذى يتطلب التركيز والاختصار ما أمكن!

٩ - الرودكى: أبو الشعر الفارسى:

اسمه بالكامل: أبو عبدالله جعفر بن محمد بن حكيم بن عبدالرحمن بن آدم وقد ولد فى قرية جميلة من قرى سمرقند يطلق عليها رودك، أو پنج رودك أى الغدران الخمسة أو الأنهار الخمسة الصغيرة^(١) ونسبة إلى هذه القرية فقد تخلص باسم الرودكى. وقد عاش

(١) راجع: براون حـ ١، نفيسى، ميرزايف، أبا فرحة، زهراى خانلرى.

خلال الفترة ما بين عامي ٢٥١، ٣٢٩هـ ويقول عنه محمد عوفى فى كتابه لباب الألباب:

«وكان الرودكى من نوادر الفلك، وكان من زمرة الأنام ومن عجائب الأيام، وكان أكمه، ولكن خاطره كانت له غبرة الشمس والقمر، كما كان فاقد البصر، ولكنه كان صاحب بصيرة، ومع أنه كان كفيفاً، فقد كانت أسرار اللطائف أمامه مكشوفة، وإن كانت عينه الظاهرة قد كفت فقد انفرجت عينه الباطنة. وقد كان قمة فى الذكاء وحدة الفهم وقد أتم حفظ القرآن وله من العمر ثمانى سنوات، وتعلم القراءات وأنعم الله عليه بصوت حسن^(١).

أما قضية أنه كان كفيفاً منذ ولادته، فقد اعترض عليها بعض المؤرخين، فقد ذكر عبدالغنى ميرزايف فى كتابه عن الرودكى أن المستشرق الألمانى الشهير هرمان إيتيه الذى اهتم كثيراً بأخبار الرودكى وأشعاره فقد قال: إن أشعار الرودكى تشخص تشخيصاً دقيقاً الألوان والأصباغ مما يخالف القول بأنه كان كفيفاً، وقد شكك فى ذلك أيضاً المستشرق الفرنسى دار مستتر فى بحثه «مأخذ شعر إيراني» الصادر عام ١٨٨٧م.^(٢) وسعيد نفيسى فى كتابه عن الرودكى.

وقال عوفى أيضاً «..... وسبب عذوبة صوته تعلم الغناء، وتدريب على ذلك.. كما تعلم العزف على آلة البربط ونبغ فيها، ووصل صيته الى كل الأطراف والأكناف، فقربه إليه الأمير نصر بن أحمد السامانى.. فارتفع شأنه وأحرز ثروة كبيرة ومكانة رفيعة، حتى قيل إنه كان تحت إمرته مائتا غلام وأربعمائة جمل، ولم يحرز أى شاعر بعده هذه المكانة»^(٣).

(٢) ميرزايف، ص: ١٠٣.

(١) لباب الألباب، ص: ٤٥.

(٣) لباب الألباب، ص: ٢٤٦.

ونتيجة لإجاداته العزف والغناء وإحرازه الشهرة، فقد شبهه ادوارد براون بالموسيقى باريد الذى عاش أيام الساسانيين، واستشهد فى ذلك بيتين من الشعر قالهما شريف كركانى:

از آن چندان نعيم ايسن جهانى كه ماند از آل ساسان وآل سامان
ثناء رودكى مانده است ومدحت نواى باريد مانده است ودستان^(١)
وترجمتهما:

- ومن كل هذا العز وذاك الجاه الذى كان لآل ساسان وآل سامان.
- فقد بقى ثناء الرودكى ومدحيه، كما بقيت ألحان باريد وحكاياته.

وإذا كان الرودكى قد عاش بلاط الأمير نصر بن أحمد الساماني أكبر فترة خصبة فى حياته فقد مدح غيره كذلك، ومن ممدوحيه الآخرين نذكر على سبيل المثال: أبا جعفر أحمد بن خلف بن الليث من أمراء الصفاريين، ولعله مدحه قبل أن ينضم إلى بلاط السامانيين، وكذلك ماكان كاكى، والوزير المعروف أبا الفضل البلعمى وزير الأمير نصر بن أحمد الساماني، وغيرهم^(٢).

ولكن مدائحه للأمير نصر الساماني تفوق كل مدائحه الأخرى، وهى سبب شهرته وذيع اسمه حيث كان الأمير نصر هو أكبر ممدوحيه على الإطلاق.

وقد اختلف المؤرخون فى تحديد الحصيلة الشعرية التى خلفها

(١) ادوارد براون: تاريخ أدبى إيران ج ١ ترجمة على باشا صالح، تهران ١٣٣٣ ش، ص: ٢٧.
(٢) زهراى خانلرى: وسعيد نفيسى، وأبو فرحة وبراون وغيرهم.

الرودکی بعد مماته، فقد ذکر عوفی أن أشعاره كانت تقع فی مائة مجلد،
بینما ذکر رشیدی سمرقندی الشاعر المعروف بالقرن السادس الهجری فی
کتابه «سعدنامه» أن مجموع أشعار الرودکی کان ملیونا وثلاثمائة ألف
بیت، حیث قال:

کَرسری باید بعالم کسی بنیکو شاعری رودکی را بر سر آن شاعران زید سری
شعرا و را بر شمردم، سیزده ره صد هزار هم فزون آید اگر چونانکه باید بشمری
(وسیزده ره صد هزار: تعنی ملیونا وثلاثمائة ألف^(۱))

وبذلك تكون ترجمة البيتین، كما یلی:

- وإن وجب أن تنعقد الرئاسة لشخص فی عالم الشعر، فهذه الرئاسة
معقودة للرودکی علی جمیع الشعراء.

- لقد أحصیت شعره، فبلغ ملیونا وثلاثمائة ألف، وإن شُخصه أنت،
فسیلغ أكثر من هذا!.

أما الشاعر عبدالرحمن الجامی فقد ذکر فی کتابه «بهارستان» أن
عدد أبيات شعر الرودکی یصل إلى ملیون وثلاثمائة بیت، فی حین ذکر
کل من مؤلف زينة المجالس ومؤلف حبیب السیر أن هذا العدد یصل إلى
ملیون وثلاثمائة وعشرين ألف بیت. أما أقل عدد فقد ورد فی کتاب
تاریخ کزیده لحمد الله مستوفی قزوینی، حیث قصر هذا العدد علی
سبعمائة ألف بیت^(۲).

(۱) نفیسی: ص: ۴۲.

(۲) سعید نفیسی: ص: ۴۲۰.

هكذا أجمع المؤرخون والشعراء على أن الإنتاج الشعري للروذكى كان غزيراً، مع تسليمنا بأن هذه الأعداد التي ذكرت فيها كثير من المبالغة هدفها الإشادة بقدرة هذا الشاعر الكبير على النظم، وقد شغل مؤرخو الأدب من غربيين وشرقيين بهذا الأمر، ومنهم هرمان ايتيه الذى رجع إلى كل المصادر الموجودة فى المكتبات والمتاحف الأوربية، وأخيراً أسند إليه اثنتين وخمسين قطعة تضم مائتين وأربعين بيتاً^(١). وقد نشر هذه الأبيات فى مقال بعنوان «الروذكى شاعر السامانيين» وكان ذلك فى الثانى عشر من شهر نوفمبر عام ١٨٧٣م.

ثم توالى البحث والتقصى عن أشعار الروذكى، وكان أشملها ما أورده سعيد نفيسى فى كتابه: محيط زندكى وأحوال رودكى، حيث وصل العدد عنده إلى تسعمائة وستين بيتاً، هذا بيانها:

أ - من القصائد والمقطعات ٥٦١ بيت

ب - من الرباعيات ٦٦ بيت

ج - أبيات متفرقة تتعلق بالقصائد والمقطعات والغزليات ١٣٣ بيت

د - من المثنويات ٢٠٠ بيت

ومجموعها = ٩٦٠ بيت^(٢)

وإذا كنا قد أشرنا إلى أنه نظم بعض المثنويات فإن أهمها وأشهرها نظمه لكلية ودمنة، فقد قيل بأن نصر بن أحمد السامانى قد طلب من

(١) ميرزايف ص: ١٠٤، وطلعت أبو فرحة، ص: ٨١ وما بعدها.

(٢) نفيسى: ٤٢٠ وما بعدها.

وزيره أبى الفضل محمد بن عبدالله البلعمى ترجمة كليلية ودمنة من اللغة العربية إلى الفارسية، فأتم ترجمتها نثراً ثم قام الوردكى بنظم هذه الترجمة الفارسية شعراً، وقال فى ذلك الشعابى فى شاهنامته المعروفة باسم «غرر أخبار ملوك الفرس»: ولم يزل الكتاب - كليلية ودمنة - مخزوناً عند ملوك الفرس حتى نقله ابن المقفع إلى العربية والوردكى بأمر الأمير نصر بن أحمد إلى الشعر الفارسية، ويقال إن الفردوسى قد أورد فى الشاهنامة نظم الوردكى لهذا الكتاب، بل إنه أورد بعض أبياته فى المقدمة ولكن هذه الترجمة قد لحق بها ما لحق بباقى شعره من ضياع معظمه، حيث لم يبق من هذه الترجمة سوى مائة وخمسة عشر بيتاً فقط^(١).

أما أشهر قصائده، والتي نتحدث عنها كل من أرخوا للوردكى وشعره، فهى التى تغنى فيها ببخارى وضاحتها الشهيرة «جوى موليان» التى نتحدثنا عنها فى مطلع هذا البحث، وكان غناء عذباً مؤثراً، أما قصة هذه القصيدة الشهيرة فقد وردت كاملة فى المقالة الثانية من كتاب «جهار مقال» لنظامى عروض سمرقندى، أوردتها مستشهداً بما يفعله الشعر الحسن فى سامعيه، وكيف يؤثر فيهم تأثير السحر، وهذه مهمة الشاعر الجيد الذى يحسن عرض فكره فى الوقت الملائم وبالطريقة المؤثرة، وبالإلقاء الآخاذ للقلوب قبل الأسماع.

فقد قيل بأن الأمير نصر بن أحمد السامانى كان من عادته أن يقضى الشتاء بعاصمة إمارته بخارى، أما الصيف فكان يقضيه فى سمرقند أو بإحدى مدن خراسان، ولكن حدث ذات مرة أنه توجه إلى هراة وقضى فى مروجها وقتاً طويلاً وامتد به المقام هناك - كما يقول

(١) المرجع السابق، ص ٤٣٠ وما بعدها.

صاحب چهار مقاله - الى أربع سنوات كاملة، مما سبب ضيق القواد من عدم العودة إلى ديارهم وأسرههم، ولكن لم يجد أحدهم في نفسه الجرأة لكي يخاطب الأمير في ضرورة العودة إلى بخارى، وأخيراً قالوا إن الرودكي وهو المقرب إلى الأمير هو الذي يستطيع مفاخرة الأمير نصر في هذا الأمر والتأثير فيه حتى يعود إلى عاصمته، ويقال إن الأمراء قد عرضوا على الرودكي مبلغ خمسة آلاف دينار إذا نجح في إعادة الأمير إلى بخارى، فقبل الرودكي هذا الأمر حيث كان خبيراً بأحاسيس الأمير وأكثرهم معرفة بمزاجه، وأدرك أن الحديث نثراً لن يؤثر فيه، لذا أثر أن يستثيره عن طريق الشعر، وما أن اجتمع المطربون حتى أمسك الرودكي بعوده، وبدء ينشد شعره وكان مطلعته.

بوی جوی مولیان آید همی بوی یار مهربان آید همی

ثم أكمل نظمه حتى وصل إلى:

ربك آموی ودرشتی راه او زیر پایم پرنیان آید همی

آب جیحون از نشاط روی دوست خنك مارا تامیان آید همی

ای بخارا شاد باش و دیر زی میر زی تو شادمان آید همی

میر ماهست و بخاری آسمان ماه سوی آسمان آید همی

میر سرو است و بخاری بوستان سرو سوی بوستان آید همی^(۱)

وترجمتها كما نظمها شعرا أستاذنا المرحوم الدكتور إبراهيم أمين الشواربي في ترجمته للجزء الثاني من تاريخ الأدب في إيران للمستشرق

(۱) نظامی عروضی سمرقندی: چهار مقاله، باهتمام محمد قزوینی وتصحيح وشروح دکنز محمد معین، تهران ۱۳۳۱ هـ. ش، ص: ۴۹، وما بعدها.

الكبير إدوارد براون، فهي كما يلي:

روائح مولين^(١) تهب دوماً بذكرى أحبتي ومنى زمامي
ولمسي رمله العاتى خير لدى من الحرير الخسرواني
يفيض النهر كى يلقاك بشرا ويضحك ماءه والشاططان
فعيشى يا بخارى فى نعيم أميرك مقبل واليمن دانى
فأنت سماؤه يأتيك «نصر»^(٢) كبدر التم ييسم للأمانى
وأنت رياضه يأتيك «نصر» شبيه السرو فى أبهى مكان^(٣)

ويكمل صاحب «جهار مقاله» الحكاية فيقول:

ما أن وصل الرودكى إلى ذلك البيت الأخير الذى شبه فيه الأمير
بشجرة سرو، وبخارى بالحديقة التى لا بد وأن تكون فيها شجرة السرو
هذه، حتى انفعل الأمير ونهض من مجلسه وسارع بامتطاء صهوة جواده
دون أن يرتدى حذاءه، فسارع الجميع خلفه، حاملاً بعضهم هذا
الحذاء، الذى لم يرتده الأمير نصر إلا بعد عدة فراسخ فى طريقه إلى
بخارى. وما كان من القواد إلا أن ضاعفوا الهدية للرودكى تلك الهدية
التي وعدوه بدفعها، حيث دفعوا إليه عشرة آلاف دينار بدلاً من الخمسة
آلاف المتفق عليها.

(١) تقع بالقرب من بخارى

(٢) هو الأمير نصر بن أحمد الساماني.

(٣) إدوارد براون: تاريخ الأدب فى إيران ج ٢ ترجمة: إبراهيم أمين الشواربى ص ٢٥ القاهرة ١٩٥٤.

ثم امتدح نظامى عروضى قدرة الرودكى على التأثير النفسى فى مخدومه، وكيف نجح شعره فيما لم ينجح فيه القواد والوزراء، وقد كافأه نصر السامانى على هذه القصيدة إلى جانب المكافأة التى دفعها القواد، وقد بدا هذا الأمر طبيعياً فى رأى صاحب «جهار مقاله» وذلك كما يقول: ذلك لأن الرودكى رجل قد برز على من عداه فى قول الشعر ولايستطيع أحد أن يدانيه فى الجزالة والعدوية، ثم دلى على قدرته بسوق بيت آخر من نظم الرودكى هو:

آفرين مدح سودمند آيد همى كَر بَكَنج اندر زيان آيد همى^(١)

وترجمته:

مدح الناس مكسبة وفخر وأما المال آخره الضياع^(٢)

وقد ذكر نظامى عروضى أن هذا البيت يتضمن فى أصله الفارسى سبع صناعات بديعية هى: المطابقة - التضاد - الترديف - بيان المساواة - العدوية - الفصاحة - الجزالة.

ثم يختتم نقده بهذه العبارة: «ويستطيع كل أستاذ له تبحر فى علوم الشعر أن يفكر قليلاً ليرى أننى مصيب فيما قلت»^(٣).

هذا رأى وافق عليه معظم المؤرخين للأدب الفارسى، ولم يخالفه إلا ناقد واحد مشهور بفساد ذوقه الأدبى وأغلاطه الكثيرة، إنه دولتشاه صاحب تذكرة الشعراء، فقد قال:

(١) جهار مقاله، ص: ٥٤.

(٢) الترجمة للدكتور: إبراهيم أمين الشواربى، فى ترجمته جـ ٢، تاريخ الأدب فى إيران ص: ٢٥.

(٣) جهار مقاله، ص: ٥٤.

هذه القصيدة طويلة جدا بحيث لا يمكن ايرادها برمتها فى هذا الكتاب - أى كتابه تذكرة الشعراء - وهم يقولون إنها أطربت الأمير ووقعت موقعا حسنا فى نفسه بحيث أن الأمير ركب جواده قاصدا الذهاب الى بخارى دون أن يتنبه إلى وضع حذائه فى قدميه. وإن العقلاء لاشك ليدهشون إلى هذه الحالة التى انتابت الأمير، لأن هذه الأبيات بسيطة للغاية ليس فيها شىء من المثانة أو الصناعة، ولو أن أحداً من الشعراء فى هذه الأيام أقدم على عرض أشعار شبيهة بهذه الأبيات فى مجلس الأمراء والسلاطين لاستوجب ذلك إنكار الجميع له ولأقواله، ولكن من الجائز أن نقول إن الأستاذ (الرودى) كان خبيراً بالأوتار والموسيقى فاستطاع أن ينشئ لنا عرض فيه هذه الأبيات على وقع الأغاني والأنغام فحلت محل القبول والإعجاب.. ومع ذلك فلا يجوز لنا أن نستخف بشأن الرودى بسبب هذه الأبيات، فمما لاجدال فيه أنه كان خبيراً بسائر العلوم والفنون والفضائل كما كان يجيد القول فى سائر ضروب الشعر وخاصة «القصائد» و«المثنويات» مما جعله عظيم الشأن مقبول القول لدى الخاص والعام^(١).

والمتصفح لرأى دولتشاه يجد فيه التضارب والتخبط، وفساد الذوق، لأنه نسى أن أجمل الشعر أعذبه وأبسطه، كما نسى فى حكمه هذا الحالة النفسية للأمير التى استطاع الرودى أن يلعب على وترها الحساس فجاءت أبياته على الرغم من بساطتها مؤثرة تأثيراً عميقاً، وحققت الغرض منها غاية التحقيق حيث اتبع الرودى بذكائه فيما نظم المقولة الحكيمة: «لكل مقام مقال» فكان مقاله معبراً أصدق تعبير عن

(١) براون: تاريخ الأدب فى إيران جـ ٢ ص ٢٦، ٢٧ القاهرة ١٩٥٤.

هذا المقام، فجاء موثراً غاية التأثير، وهذا ما استحسنته منه صاحب چهار
مقاله وغيره من النقاد والأدباء.

ولو لم تكن هذه القصيدة جميلة ومقبولة لما أقبل شاعر الفارسية
الكبير جلال الدين الرومي على نظم غزلية من سبعة عشر بيتاً على
غرارها، وكان بيت مطلعها:

بوی باغ وکلستان آیدهمی بوی یار مهربان آیدهمی^(۱)

وترجمته:

- تهب روائح الحبيب العطوف دوماً، كما تهب روائح الحداثق
والجنان أبداً.

وإذا تجاوزنا هذه القصيدة الشهيرة ونظرنا إلى باقى أشعاره المتبقية،
سنجد أن الرودكى قد نظم فى العديد من الأغراض، وعبر عن كثير من
الآراء التى تثبت سعة علمه وغزارة معارفه، وجودة نظمه إذا ما قورن
بجميع معاصريه من الشعراء، ومن أشعاره التى أوردها محمد عوفى فى
كتابه لباب الألباب وغيره من التذاكر والكتب، نذكر ما يلى:

من الأغراض التى برع فيها الرودكى، فن المديح، ومما قاله فى مدح
الأمير نصر بن أحمد السامانى، هذان البيتان:

حاتم طائی تویی، اندر سخا رستم دستان تویی، اندر نبرد
نی، که حاتم نیست باجود تو راد نی، که رستم نیست در جنگ تو مرد^(۲)

(۱) جلال الدين الرومي: غزليات شمس تبریزی، جزو چهارم، ص: ۲۶۰، ۲۶۱، چاپ طهران
۱۳۳۹ ش.

(۲) لباب الألباب، ص ۲۴۶.

وترجمتها:

- أنت حاتم الطائي في السخاء، وروستم ابن دستان في الحرب.
- لا فليس حاتم كريما مثلك في الجود، وليس رستم شهما مثلك
في النزال.

كما برع في الغزل حيث قال:

زلف ترا جيم كه كرد؟ أنك او خال ترا نقطه آن جيم كرد
وآن دهن تنك تو كوبي کسی دانگكی نار بدو نیم كرد^(١)

وترجمتها:

- من ذا جعل زلفتك حرف جيم؟ إنه من جعل خالك نقطة تلك
الجيم.

- وجعل فمك دقيقاً، كأن شخصاً قد جعله كفلقتي حبة رمان.

ونتيجة لحضوره مجالس الطرب والغناء ومعاقرة الخمر، فقد برع في
وصف هذه المجالس، ومما قاله في ذلك:

رود کی چنك بر كرفت و نواخت باده انداز كو سرود انداخت
وآن عقیقین می، كه هر كه بدید از عقیق كداخته نشناخت
هر دویك كوه رند، لیسك بطبع این بیفسرد وآن دكرد بكداخت^(٢)

(١) نفس المرجع ونفس الصفحة.

(٢)

وترجمتها:

- إن أمسك الرودكى بالصنّج وبدأ فى العزف، فاسكب الخمر حيث بدأ الغناء.

- وهذه الخمر الياقوتية كل من رآها، لم يعرفها من العقيق المذاب.
- كلاهما من جوهر واحد، وإن اختلف الطبع فهذا قد يتجمد وتلك قد ذابت.

وقال معبرا عن تعلقه ببخارى وعشقه لحسانها:

روى بمحراب نهادن چه سود دل ببخارا وبتان طراز؟
ايزد ما وسوسه عاشقى از تو پد يرد، نپذيرد نماز^(١)

وترجمتها:

- ما جدوى التوجه صوب المحراب، ما دام القلب متعلقاً ببخارى وحسان طراز.

- إن الله يقبل منك أحاسيس العشق أكثر من قبوله للصلاة.

وقال أيضاً فى العشق، وأنه أهم شىء فى الحياة:

شادى زى باسياه چشمان، شاد كه جهان نيست جزفسانه وباد
زآمده شادمان نبايد بود وزگذشته نكرد بايد يباد
من وآن جعد موى غاليه بوى من وآن ما هروى حور نـزاد
نيكبخت آنكسى كه داد ويخورد شوربخت آنكه او نخورد ونداد
باد وابرست اين جهان افسوس باده پيش آر، هرچه باداباد^(٢)

(١) لباب الألباب ص ٢٤٨.

(٢) نفس المرجع ونفس الصفحة.

وترجمتها:

- عش مسروراً مع ذوات العيون السوداء، فالدنيا ليست إلا هباء
ورياحاً.

- لا يجب إرجاء السرور لما هو آت، كما لا يجب استرجاع الماضي
والعيش فيه.

- ويكفيني أن أعيش مع ذوات الشعر المجمع ذوات الرائحة العطرة،
ويكفيني تلك الحور الجميلات الوجوه.

- سعيد ذلك الذى يشرب ويجود، وتعيس ذلك الذى لا يشرب
ولا يجود.

- وأأسف، إن هذه الدنيا مجرد رياح وسحاب، فقدم الخمر، إذ كل
شئ هباء فى هباء.

وعلى الرغم من طربه للشراب والسرور، إلا أنه لم يغفل عن الدعوة
إلى اليقظة والاستفادة من تجارب الأيام:

هرکه بیا موخت از کزشت روز کار نیز ناموزد زهیچ آموز کار

وترجمته:

- كل من لم يتعلم من دوران الزمان، لن يستطيع التعلم مطلقاً من
أى معلم!

لذا اعتبر المعرفة والعلم هما أفضل كنز يجب أن يحرص الإنسان
على اقتنائه:

هیچ کنجی نیست از فرهنگ به تاتوانی رو و تو واین کنج نه^(۱)

(۱) أبو فرحة ص ۸۸ وما بعدها.

وترجمته:

- لا يوجد كنز قط أفضل من المعرفة، فامض ما استطعت، وحصل هذا الكنز.

وقال أيضاً منفراً من الإرتكان إلى الدنيا الفانية، وأنه لاسعادة باقية فيها:

این جهان پاک خواب کردارست آن شناسد که، دلش بیدار است
نیکی اوجایگاه بدست شادی اوجای تیمار است
چه نشینی بدین جهان هموار که همه کار او نه هموار است
دانش او نه خوب وچهرش خوب زشت کردار و خوب دیدار است^(۱)

وترجمتها:

- هذه الدنيا البادية كحلم طيب، يدرك حقيقتها كل صاحب قلب يقظ.

- خيرها سرعان ما يتحول إلى سوء، وبهجتها ما أسرع أن تكون معاناة.

- وأنى للمقام فيها أن يكون مواتياً؟ فكل عملها لا سعادة فيه.

- وإن بدا مظهرها طيباً فمخبرها ليس طيباً، وإن بدت حسنة الطلعة فهي سيئة الفعل.

(۱) ميرزايف ص: ۲۸۴، وأبو فرحة ص: ۸۸.

ومع ماتسم به الدنيا من سوء وقبح، فأجمل ما فيها الصديق الوفي
الذى لا غنى للإنسان عنه:

هیچ شادی نیست اندرین جهان برتر از دیدار روی دوستان

هیچ تلخی نیست بردل تلخ تر از فراق دوستان پرهیز^(۱)

وترجمتها:

- ليس فى هذه الدنيا سرور يفوق رؤية طلعة الأصدقاء.

- وليس فى هذه الدنيا غصة تفوق فراق الأصدقاء النجباء.

هذه نماذج من شعر الرودكى توضح شمولية أفكاره، وأنه كان قادراً على التعبير عن كل ما فى الوجود من أفكار وأحاسيس، كما أن أشعاره هذه تدل على سلامة تعبيره، ورقة أسلوبه دون إغراق فى محسنات أو إعنات فى استخدام ألفاظ غريبة ومستهجنة، كل هذه السمات مهدت لشعره القبول والانتشار وحسن التقدير، ولهذا أحرز مكانة مرموقة فى عصره، وظلت هذه المكانة معقودة له طوال القرون التالية، لذا فقد امتدحه الشعراء من معاصريه ولاحقه وأشادوا به وبشعره، وهذه نماذج مما قاله هؤلاء الشعراء فى حقه:

قال شهيد البلخى:

بسخن ماند شعر شعراً رودكى را سنجنى تلو نبي ست

شاعران راخه واحسنت مديح رودكى راخه واحسنت هجى ست^(۲)

(۱) ميرزايف: ص: ۳۲۱.

(۲) لباب الألباب ص: ۲۴۵.

وترجمتها:

– شعر الشعراء شبيه بالكلام، ولكن كلام الرودكى فتلو للقرآن.
– إن يقال للشعراء مرعى وأحسنست فهذا مديح، ولكن إن قيل
مرعى وأحسنست للرودكى فهذا هجاء.

وقال الدقيقى مادحا الرودكى:

كرا رودكى كفته باشد مديح امام فنون، سخن بود درر
دقيقى مديح آورد نزد او چو خرما بود برده سوى هجر^(۱)

وترجمتها:

– طوبى لمن امتدحه الرودكى، فهو امام الفنون وكلامه درر.
– ولكن من حمل الدقيقى المدح إليه، فسيكون كحامل التمر إلى
هجر.

وقال العنصرى مادحا شعر الرودكى فى فن الغزل:

غزل رودكى وار نيكو بود غزلهاى من رودكى وار نيست
اگرچه بکوشم بياريك وهم بدین پرده اندر مرا بار نيست^(۲)

وترجمتها:

– يطيب الغزل كما ينظم الرودكى، ولكن غزلياتى ليست شبيهة
بغزليات الرودكى.

(۱) المرجع السابق ونفس الصفحة.

(۲) لباب الألباب، ص: ۲۴۵.

– مهما أحاول أن أكون دقيق الخيال، فليس لي نصيب في هذا المضمار.

وقال في مدحه رشیدی، واصفا إياه بأنه إمام الشعراء والجدير بالرياسة عليهم:

کَرَسری باید بعالم کس بنیکو شاعری رود کی رابرسآن شاعران زبید سری^(۱)
وترجمته:

– إن وجب أن تنعقد الرئاسة لشخص في عالم الشعر، فهذه الرئاسة معقودة للرودي على جميع الشعراء.

وهذه المكانة الكبيرة التي حظي بها الرودي، وما حازه من عز وجاه وسؤود، وعطايا كثيرة كانت تقدم إليه، لاشك أن بعض الشعراء كانوا يحسدونه عليها، ويتمنون أن يحظوا بما حظي بهذا الشاعر الكبير، فقد قال الأنوري:

اکر بدولت بارود کی نمی مانم عجب مکن سخن از رود کی نه که دایم
اکر بکوری چشم او بیافت کیتی را ز بهر کیتی من کور بود نتوانم
هزار یک زآن کو یافت از عطاء ملوک بمن دهی سخن آید هزار چندانم^(۲)
وترجمتها:

– إن كنت لا أحظى بما كان للرودي من عز وثناء، فلا تعجب، فحديثي لا يقل عن حديث الرودي.

– وإن كان قد أحرز الدنيا بفقده البصر، فإنني لا أستطيع أن أكون كفيفا من أجل الدنيا.

(۱) المرجع السابق، ص ۲۴۶.

(۲) تاريخ الأدب لبراون ج۲، هامش ص ۴۷۳.

– وإن تعطيني واحدا من ألف مما حظي به الرودكى، فإننى أستطيع أن أنظم ما يفوق شعره ألف مرة.

ولاشك أن هذا الحسد، قد دفع البعض للتطاول على الرودكى ومحاولة الإقلال من شأنه، فقد ذكر محمد عوفى صاحب الألباب أن أحد الجهلاء قد طعن فى شعر الرودكى ووصف عرائس نفائسه وطوائف لطائفه بالزيف، فإذا بنظامى عروضى سمرقندى ينشد فى حقه هذين البيتين:

أى أنكه طعن كردى در شعر رودكى این طعن کردن توزجهل وزكودكىست
كان كس كه شعر داند، داندكه درجهان صاحب قران شاعرى استاذ رودكىست^(١)
وترجمتها:

– يا من تطعن فى شعر الرودكى، إن طعنك هذا مرده الجهل وعدم الخبرة.

– فكل خبير بالشعر، يدرك أن صاحب قران الشاعرية فى الدنيا هو الأستاذ الرودكى.

ولم يقتصر الأمر على إشادة شعراء الفارسية بالرودكى، بل شاركهم فى ذلك بعض شعراء العربية، فقد نظم إبراهيم بن يحيى بن عثمان الغزى قصيدة مدح فيها أبا عبدالله مكرم بن العلاء صاحب كرمان، وفيها اعتبر شعر الرودكى السبب فى بقاء اسم السامانيين حيث قال:

لولا جرير والفرزدق لم يدم ذكر جميل من بنى مروان
وترى ثناء الرودكى مخلداً من كل ما جمعت بنو سامان
وملوك غسان تفانوا غير ما قد قاله حسان فى غسان^(٢)

(١) لباب الألباب، ص ٢٤٦.

(٢) لباب الألباب، ص ١٤، سعيد نفيسى: محيط زندكى واحوال واشعار رودكى ص ٤٨٦-٤٨٧.

وهكذا مدح الشعراء الرودكى واعتبروه ملك مملكة الشعر وسلطان الشعراء وصاحب قران الشاعرية، مما يدل على المكانة الكبيرة التى حازها هذا الشاعر لابين الأمراء والممدوحين وحدهم، بل بين أهل الفن الشعرى نفسه، فأمرؤه عليهم قبل أن يكون هناك لقب كأمرير الشعراء أو ملك الشعراء كما حدث فى عصور تالية.

ولم يكن هذا التقدير قاصراً على الشعراء، بل شاركهم فى ذلك جميع المؤرخين للأدب الفارسى فى شتى عصوره، وهذه أقوال بعضهم فى هذا المجال:

يقول محمد عوفى: إن ثلاثة من الشعراء استطاعوا فى ثلاث دول متوالية أن يبلغوا مراتب العز والإقبال بحيث لم يتيسر ذلك لغيرهم، فأما الأول فالشاعر «الرودكى» فى عهد السامانيين، وأما الثانى فهو «العنصرى» فى عهد الغزنويين، وأما الثالث فهو الشاعر «المعزى» فى عهد السلاجقة^(١).

ورود فى كتاب «غاية الرسائل إلى معرفة الأوائل» لاسماعيل هبة الله بن أبى الرضا الموصلى، ما يلى: أول من قال الشعر الجيد بالفارسية أبو عبد الله جعفر بن محمد بن حكيم بن عبد الرحمن بن آدم الرودكى الشاعر المليح القول السائر الشعر المشهور ديوانه فى العجم، وكان مقدماً فى قول الشعر على جميع أقرانه، كما كان أبو الفضل البلعمى الوزير يقول: ليس للرودكى فى العرب والعجم نظير^(٢).

(١) لباب الأبواب ج ٢ ص ٦٩، ونقلاً عن تاريخ الأدب فى إيران ج ٢ الترجمة العربية ص: ٤١٣.

(٢) نقلًا عن تاريخ الأدب لبراون ج ١ الترجمة الفارسية، ص ٥٢٢.

وقال صاحب خزانة عامرة مير غلام على خان آزادك كان الرودكى السمرقندى حادى قافلة الشعر وقائد طليعة جيش الفصحاء وأول شخص اهتم بتدوين ديوان شعر، ونظم ألوان الوردية باقة^(١).

وعلى الرغم مما قاله دولتشاه من رأى سقيم بشأن قصيدة «بوى جوى موليان» والذى أشرنا إليه من قبل، فقد عاد وقال:

«فى عهد آل سامان ارتقى الشعر الفارسى وبلغ الأستاذ الرودكى فى هذا العلم القمة، ولم نسمع قبله عن شاعر صاحب ديوان...»^(٢).

وقال فى حقه عبدالكريم بن محمد السمعانى فى كتاب الأنساب، وهو يتحدث عن كلمة «رودك»... والمشهور منها الشاعر المليح القول بالفارسية السائر ديوانه فى بلاد العجم أبو عبداله جعفر بن محمد بن حكيم بن عبدالرحمن بن آدم الرودكى الشاعر السمرقندى كان حسن الشعر متين القول، وقيل إنه أول من قال الشعر الجيد بالفارسية^(٣).

وشارك فى هذا التكريم جميع المستشرقين الذين شغلوا بدراسة الشعر الفارسى أو بأخبار الرودكى أوحى بتاريخ بخارى. فقد قال فى حقه فامبرى صاحب كتاب تاريخ بخارى:

أبو الحسن الرودكى هو أقدم شعراء الفارسية ولا يزال موضع التعظيم فى آسيا الوسطى، وكان يتميز بقريحته الخصبة ولغته الفارسية الخالصة^(٤).

(١) ميرزايف، ص: ١٠٣.

(٢) دولتشاه: تذكرة الشعراء، ص: ١٨.

(٣) سعيد نفيسى: محيط زندكى ص ٤٨٧.

(٤) فامبرى: هامش ص: ١١٥.

ومن النقاد الإيرانيين المعاصرين الذين امتدحوا الرودكى وشعره
زهراى خانلرى صاحبة «فرهنگ ادبیات فارسى» فقد قالت:

«وبعد الرودكى أول شاعر إيراني كبير يطلق عليه لقب أستاذ
الشعراء، وقد ضمن الشعراء من بعده كثيراً من أشعاره فى أشعارهم
وامتدحوا مكانته الشعرية، وكان ماهراً فى جميع فنون الشعر^(١).

وقد صدقت فى ما قالت، عدا وصفه بأنه كان إيرانيا وليتها قالت
«شاعر الفارسية الكبير» لكان هذا أصدق وأصح دون أن تصفه بأنه كان
إيراني الهوية افتراء على الحقيقة.

وخلاصة القول — كما يقول ميرزايف فى كتابه «أبو عبدالله
رودكى» — يكفى الرودكى وصفه بأنه كان أول شاعر نظم بالفارسية،
وأول من خلف وراءه ديوانا شعرياً، وأنه أول من أطلق عليه المؤرخون لقب
«آدم الشعراء» أو «سلطان الشعراء» أو «ملك مملكة الشاعرية» أو «صاحب
قران شاعرى».

وكان أول من نظم فى فن الرباعى كما قال بذلك شمس قيس
الرازى، وأول من نظم فى فن المثنوى كما جاء فى نظمه للترجمة
الشعرية لكليلة ودمنة إلى جانب نظمه القصائد والمقطعات، وهكذا كان
أستاذا فى كل فنون الشعر الفارسى، رائدا فى كل الأغراض مما جعل
الجميع بعد ذلك ينهجون نهجه ويسيروا على منواله، ولا غرابة فى
ذلك، فمعظم الأبناء يسرون عادة على دروب الآباء، وما دام الرودكى

(١) زهراى خانلرى: فرهنگ ادبیات فارسى ۲۳۸.

بالنسبة للشعراء بمثابة الأب، وكل من جاءوا بعده من كبار الشعراء بمثابة الأبناء، فلا غرو أن يترسموا خطاه، ويسلكوا مسلكه.

وإذا كان الرودكى ابن التركستان - باعتراف الجميع - صاحب سبق على جميع شعراء الفارسية، وصاحب فضل على كل من جاءوا بعده، وإذا كانت اللغة الفارسية قد قدمت للفكر الإنسانى والحضارة العالمية بعد ذلك شعراء نابيين أمثال سعدى وحافظ ومولوى وغيرهم فالفضل فى ذلك مرجعه فى البداية إلى هذا الشاعر الكبير ابن سمرقند وبخارى.

وهكذا كانت بخارى بجمالها وحدائقها وطيب هوائها المشجع والمحرك لأحاسيس هذا المبدع الأول أبى عبدالله جعفر الرودكى، وبمجهوده نما الشعر الفارسى ثم واصل نموه عبر القرون التالية وقدم للإنسانية بعد ذلك العديد من المنظومات التى تعد من روائع الأدب العالمى حتى اليوم.

٢ - محمد عوفى ، وكتابه: لباب الألباب

من أفاضل العلماء والأدباء خلال الفترة من أواخر القرن السادس وحتى أوائل القرن السابع الهجريين واسمه بالكامل نور الدين محمد بن محمد بن يحيى بن طاهر بن عثمان العوفى البخارى، ينسب إلى جده الأكبر عبدالرحمن بن عوف أحد مشاهير صحابة الرسول عليه السلام، ولهذا عرف باسم «العوفى» وقد ذكر عوفى نفسه هذا النسب صراحة فى كتابه جوامع الحكايات؛ حيث قال ما ترجمته:

«عندما توفى أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه، اجتمع الصحابة،

وثار الخلاف بينهم وأوشكوا على الفتنة، وهنا بدأ الحديث عبدالرحمن بن عوف الجد الأكبر لمؤلف هذا الكتاب ومحرر هذا التصنيف...»^(١).

وقال في موضع آخر من نفس الكتاب: «قيل بأن عبدالرحمن بن عوف رضى الله عنه - والذي كان جد مؤلف هذا الكتاب - قد مثل أمام الرسول عليه السلام ووقف في خدمته...»^(٢).

وكانت ولادة محمد عوفى بمدينة بخارى، حيث أتم هناك مراحل تعليمه الأولى، وقد أشرف على تربيته وتعليمه جده لوالده القاضى الإمام شرف الدين سيد المحدثين أبو طاهر يحيى بن عثمان العوفى، وكان من مشاهير علماء ما وراء النهر وكبار الأئمة فى علم الحديث وأنساب العرب وأسماء الرجال، وكان من أساتذته كذلك العديد من علماء بخارى ومنهم تاج الدين عمر بن مسعود، حيث قرأ عليه فقه الزمخشري، وكذلك قطب الدين السرخسى وغيرهم...»^(٣).

وقد عاش فى مسقط رأسه بخارى زهاء الخمسة والعشرين عاماً الأولى من حياته خلال حكم الأسرة الخوارزمية، أى فى الفترة ما بين عامى ٥٧٢هـ وهو العام المفترض لولادته وعام ٥٩٧هـ، وعندما أراد أن يستزيد من العلم والعلماء خرج من بلده بخارى جواباً لجميع البلدان الكبرى فى ما وراء النهر وخراسان وذلك للاتصال بعلمائها والاستماع إليهم والأخذ عنهم، إلى جانب البحث عن وسيلة يتكسب بها العيش، ومن البلاد التى زارها سمرقند ونيسابور وسجستان ومرو وغيرها، وقد

(١) لباب الألباب: نشر نفيسى طهران ١٣٣٥، ص: بيست ویک.

(٢) المرجع السابق: ونفس الصفحة.

(٣) د. منى فراج: رسالة ماجستير بعنوان: محمد عوفى وآثاره... مكتبة كلية الآداب. بجامعة عين شمس، ص: ٤١ (والرسالة لم تطبع بعد).

استمر ترحاله قرابة الثمانية عشر عاماً أى فى الفترة من عام ٥٩٧ هـ وحتى عام ٦١٥ هـ، ثم عاد بعد ذلك إلى مسقط رأسه بخارى مرة ثانية، عاد مزوداً بالعلم والفضل مما جعله يحظى بمكانة أكبر مما كانت له قبل رحيله عنها^(١).

ونظراً لبدء تعرض مناطق ما وراء النهر وخراسان لجحافل المغول التى بدأت تحتاج هذه البلاد مستخدمة قبل هجومها العامل النفسى وإشاعة الخوف والاضطراب والهلع داخل البلاد التى تستعد لمهاجمتها مما يضعف المقاومة ضدهم، فقد حدثت هجرات جماعية خارج هذه المناطق ومن الذين تأثروا بهذه الدعايات المدمرة كان محمد عوفى الذى أثر الهروب من المنطقة والفرار بعيداً حيث توجه صوب بلاد السند والتحق ببلاط السلطان ناصر الدين قباچه، حيث عمل تحت إمرة وزيره عبد الملك حسين الأشعري، وهو الذى شجعه على الكتابة والتأليف، فكتب باسمه كتابه الشهير لباب الألباب، وكان ذلك عام ٦١٨ هـ^(٢).

وقد بقى فى بلاط السلطان قباچه حتى عام ٦٢٥ هـ، وذلك عندما بدأ نجمه فى الأفول حيث بدأت بلاده تتعرض لهجمة شرسة من قبل شمس الدين التتمش وهو من المماليك الغوريين، ومؤسس أسره سلاطين شمسية دهلى. ولما شدد من هجومه على أراضي السلطان قباچه، اضطّر أمير السند إلى ترك العاصمة والاحتفاء بقلعة بكر مع نفر من أتباعه، فتقدم التتمش وحاصر هذه القلعة، ومن المعروف أن كاتبنا محمد عوفى كان من بين الذين احتموا بالقلعة، لذا كان من بين المحاصرين داخلها.

(١) منى فراخ: رسالة الماجستير، ص ٤١ وما بعدها.
(٢) ادوارد براون: تاريخ الأدب فى إيران جـ ٢ ص: ٦٠٦.

وظل الوضع هكذا حتى توفي الأمير قباجه ودخل التتمش القلعة وأسر كل من كانوا بداخلها ومنهم محمد عوفى. ثم نقلهم الأمير التتمش إلى عاصمة ملكه فى دهلى. فما كان من عوفى إلا أن تقرب من وزيره نظام الملك محمد بن أبى سعد الجندى، حتى التحق بخدمته وكتب باسمه كذلك كتابه الشهير الثانى: جوامع الحكايات ولوامع الروايات.

ويقال إن محمد عوفى قد بقى حتى آخر حياته فى بلاط التتمش، وقد ذكر البعض بأنه توفي فى حدود عام ٦٣٥هـ^(١).

وإذا كان محمد عوفى قد التحق بأكثر من مخدم، وعمل تحت إمره أكثر من أمير أو وزير، فلاشك أن اسمه بفضل مؤلفاته، قد فاق أسماء كل مخدميه سواء فى بلاد ما وراء النهر أو فى السند والهند.

ولاشك أن هذه المكانة العالية قد حازها محمد عوفى نتيجة لما حاز من علم وفضل وثقافة واسعة. فالتصفح لكتابه الشهيرين لباب الألباب وجوامع الحكايات يستطيع أن يدرك أن محمد عوفى كان ذا ثقافة واسعة حيث درس علوم القرآن والحديث وألم بما ورد فى كتب السيرة والفقه إلى جانب تبحره فى اللغة الفارسية وعلومها. ناهيك عن ثقافته العربية وقدرته على النظم باللغتين الفارسية والعربية. وإذا تركنا الحديث مؤقتاً عن كتابه لباب الألباب، وتصفحنا كتابه جوامع الحكايات فنذكر أن صاحبه كان على دراية واسعة بتاريخ إيران وما وراء النهر منذ العهد الأسطورى وحتى عصر المنتصر بالله، فقد أورد فى كتابه هذا حكايات العديد من ملوك إيران الأسطوريين أمثال كيومرث وهوشنك وطهمورث

(١) زهراى خانلرى: فرهنگ ادبيات فارسى ص: ٣٥٢.

وغيرهم إلى جانب ذكره للعديد من حكام العصور التاريخية الحقيقية أمثال بهرامكور وأنوشيروان.

أما كتابه لباب الألباب - وهو مقصدنا من هذا الحديث - فقد دل دلالة واضحة على أن العوفى كان على دراية تامة بتاريخ الأدب الفارسي الإسلامي منذ نشأته وحتى عصر مؤلفه محمد عوفى، أى حتى أوائل القرن السابع الهجرى، وقال عوفى عن سبب تأليف الكتاب ما يلى:

لما أشاح عوفى خادم الدعاء ونائر الثناء عن الدنيا بأسرها، وجاء بهذا كله إلى الدنيا - يقصد حضرة الوزير عين الملك الأشعري - الذى يتخذ الفلك ملجأ من عتبه، أراد أن يقدم خدمة إلى الحضرة العلية بطريقة عملية.. وأن يقدم تحفة لاتصل إليها يد البلاء إلى يوم يبعثون.. فجعلت هذه المجموعة فى طبقات شعراء العجم، وجعلتها بعنوان: لباب الألباب^(١).

ويوضح العلامة محمد بن عبد الوهاب القزوينى فى المقدمة التى كتبها للكتاب أهمية هذا الكتاب بأنها ترجع إلى أنه أقدم تذكرة كتبت لتراجم شعراء الفارسية، أما الكتابان اللذان نعرفهما والشبيهان بالتذاكر، وقد ألفا قبل لباب الألباب وهما مناقب الشعراء لأبى طاهر الخاتونى الذى كان يعيش فى أواخر القرن الخامس وأوائل القرن السادس الهجريين والثانى «چهار مقاله» لنظامى العروضى السمرقندى والذى ألف فى حدود عام ٥٥٠هـ، لايمكن اعتبار أى منهما كتابا للتذاكر القصد منه ترجمة لأحوال الشعراء، أما عن كتاب مناقب الشعراء فقد ضاع

(١) لباب الألباب، ج١، ص: ٨ - ٩.

ولانعرف مضمونه على وجه الحقيقة فليس تذكرة بالمفهوم المعروف لأن دولتشاه قد ذكر في مقدمة تذكرته أن كتابه يعد أول كتاب ألف في تراجم الشعراء على الرغم من أنه أخذ بعض مادته من مناقب الشعراء، فلو كان هذا الكتاب يختص بالتراجم لما تجاهله دولتشاه، ولما قال أن تذكرته هي الأولى بالفارسية. وقد قال دولتشاه قولته هذه لأنه لم يطلع على لباب الألباب قبل تأليفه كتابه، ويرجع ذلك إلى أن لباب الألباب قد كتب بالهند، ولم ترد منه نسخ إلى ماوراء النهر وإيران حتى عصر دولتشاه وبالتالي لم يكن معروفاً لدولتشاه ولا لغيره^(١).

أما جهاز مقالته، فعلى الرغم من أن المقالة الثانية منه تتضمن ذكر بعض الشعراء ونماذج من أشعارهم إلا أنه غرض المؤلف لم يكن كتابة تذكرة، بل كان همه توضيح دور الشاعر كنديم للسلطان أو الأمير. لذا ركز المؤلف على هذه الصفة فيما أورد من أخبار وحكايات وأمثلة وأشعار دون أن يعنى بترجمة حقيقية للشعراء كل على حدة أو حتى شعراء عصر من العصور، أو حتى لحالة الشعر في عصوره المختلفة^(٢).

وإذا كان هذان الكتابان لا يعلنان من التذاكر، فجاز لجميع المورخين أن يعدوا لباب الألباب التذكرة الأولى في الأدب الفارسي والتي عنيت بالتأريخ للشعر الفارسي وشعرائه منذ بداية النظم بالفارسية في أوائل القرن الثالث الهجري وحتى زمن تأليفه في أوائل القرن السابع الهجري.

وكتاب لباب الألباب نشره لأول مرة المستشرق الإنجليزي ادوارد براون وذلك بمساعدة العلامة محمد عبدالوهاب القزويني في أوائل القرن العشرين.

(١) لباب الألباب: مقدمة القزويني، ص، جهازده (نسخة سعيد نفيسي).

(٢) المرجع السابق: ص: شانزده.

وقد جاء فى جزءين يضم الجزء الأول منهما سبعة أبواب بيانها كالتالى:

الباب الأول يتحدث فيه المؤلف عن الشعر والشاعرية ودافع فيه عن نظم الشعر وعدم اعتبار كل الشعراء يتبعهم الغاؤون أو أنهم إخوان الشياطين، أما الباب الثانى فقد تحدث فيه عن معنى الشعر كمصطلح لغوى، ثم ناقش فى الباب الثالث متى قيل الشعر لأول مرة، وهذه مقدمات عامة، ويبدأ عوفى فى الحديث عن الشعر الفارسى ابتداءً من الباب الرابع حيث يتحدث فيه عن أول من نظم بالفارسية، فقد ذكر عوفى كغيره من مؤرخى الأدب بعد ذلك بأن أول من نظم بالفارسية كان بهرامكور، وأرجع ذلك إلى أنه قضى فترة طفولته وصباه فى بلاد العرب واستمع إلى شعرائهم ووقف على أسرار لغتهم، لذا ما أن رجع بهرامكور إلى دياره واسترد عرش أبيه بمساعدة العرب فقد بدأ يعبر عن بعض أفكاره شعرا سواء أكان ذلك بالعربية أو الفارسية^(١).

وقد اعتمد محمد عوفى فى تأليفه لباقي أبواب الجزء الأول على المقولة القائلة «كلام الملوك ملوك الكلام» وكذلك قوله: «أهل الدول ملهمون» ولهذا خصى الأبواب من الخامس وحتى السابع للحديث عن الشعراء الملوك وغيرهم من الأمراء والوزراء وأصحاب المناصب العليا فى الدول المتعاقبة بدءاً من الطاهريين وحتى عصر المؤلف، حيث تناول فى الباب الخامس الشعراء من الملوك والسلاطين ومنهم: الأمير منتصر بن نوح بن منصور السامانى ومحمود الغزنوى وشمس المعالى قابوس بن وشمكير وملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقى والسلطان تكش بن ايل أرسلان^(٢)، وفى الباب السادس تحدث عن الشعراء من الوزراء ذوى

(١) لباب الألباب: جـ ١، ص: ٢٠ وما بعدها (نسخة سعيد نفيسى).

(٢) المرجع السابق: ص: ٢٣ - ٦١.

الرتبة العالية والصدور ذوى المنزلة السامية، وذكر منهم أبا الفتح البستي ونظام الملك الوزير الشهير فى عصر ألب أرسلان وملكشاه السلجوقيين ورشيد الدين الطوطا، وعماد الدين مؤيد الأسفرايينى^(١)، وأخيراً يأتى الباب السابع حيث جعله للشعراء من العلماء والفضلاء، وقد قسمهم حسب المناطق، فبدأ بذكر علماء ما وراء النهر وبخاصة علماء بخارى وفضلائها، وهم مواطنوه وأهله، ثم تحدث بعد ذلك عن الشعراء من علماء وفضلاء خراسان والعراق وغزنة ولاهور^(٢).

ولاشك أن ما أورده محمد عوفى فى جزئه الأول على الرغم من أهميته، فإنه لا يصل بحال من الأحوال إلى ما للجزء الثانى من قيمة وأهمية حيث كان حديثه عن هؤلاء الملوك والأمراء والوزراء والفضلاء حديث مجاملة فى بعض أخباره لأن هؤلاء جميعاً لا يوجد من بينهم شاعر كبير أو شعر جيد، بل إنها محاولات كان يبذلها بعضهم دون تميز يحسب لصاحبه.

أما الجزء الثانى فهو الأهم والأجدر بالتقدير، ولهذا بادر إدوارد براون عندما فكر فى نشر هذا الكتاب لأول مرة، بنشر الجزء الثانى قبل الجزء الأول - على غير العادة كما يقول - وذلك لأن الجزء الثانى هو الذى يتضمن الأخبار الحقيقية عن تطور الشعر عبر القرون المختلفة ذاكرة فيه أهم الشعراء ومقسماً إياهم حسب الدول التى ظهوروا خلالها. وقد تضمن هذا الجزء الثانى خمسة أبواب، يانها كالتالى:

(١) المرجع السابق، ص: ٦٢ - ١٤٢.

(٢) لباب الألباب، ص: ١٤٣ - ٢٣٩.

الباب الثامن وقد خصه بذكر الشعراء في عهود الصفاريين والظاهرين والسامانيين وقد فصل الحديث عن شعراء السامانيين حيث ذكر منهم ثمانية وعشرين شاعراً في حين ذكر ثلاثة شعراء فقط نسبهم إلى ما قبل السامانيين، أى في عصر كل من الطاهريين والصفاريين وكان أهم شعراء العصر الساماني الرودكي ابن سمرقند وبخارى^(١).

الباب التاسع: ذكر فيه شعراء آل ناصر أى شعراء العصر الغزنوي وأهمهم العنصرى والفردوسى والفرخى والعسجدى ومنوچهرى، ومن الملاحظ أنه لم يهتم كثيراً بالفردوسى وشعره، حيث لم يحظ إلا بأقل من صفحة واحدة، فى حين حظى العنصرى بثلاث صفحات، وقد استشهد بأربعين بيتاً من أشعار العنصرى فى حين لم يذكر للفردوسى إلا سبعة أبيات فقط، اثنان منهما فى مدح السلطان محمود الغزنوى والخمسة الباقية فى الشكوى من الزمان والحسرة على ضياع الشباب، دون أن يورد مثلاً واحداً من قصص الشاهنامة سبب شهرة الفردوسى. وقد بلغ عدد شعراء العصر الغزنوى تسعة وعشرين شاعراً^(٢).

الباب العاشر: وقد تحدث فيه محمد عوفى عن شعراء السلاجقة وعلى رأسهم الأنورى الذى حظى بثماني صفحات ويذكر مائة وخمسين بيتاً من أشعاره، وقد بلغ عدد الشعراء الذين ورد ذكرهم فى هذا العصر اثنين وخمسين شاعراً، ومن الملاحظ أنه قسم هؤلاء الشعراء حسب مناطق وجودهم بادئاً بذكر شعراء ما وراء النهر موطن عوفى الأصلى وبعد ذلك تحدث عن شعراء الفارسية فى كل من العراق وغزنة ولاهور^(٣).

(١) المرجع السابق، ص: ٢٤٠ - ٢٦٦.

(٢) لباب الألياب، ص: ٢٦٧ - ٢٩٨.

(٣) المرجع السابق جـ ٢ ص ٢٩٩ - ٤٥٥.

الباب الحادى عشر: ذكر فيه عوفى الشعراء الذين عاشوا عصر المؤلف، وهم الذين عاشوا بعد عصر السلطان سنجر السلجوقى، وقسمهم كما فعل فى الباب السابق إلى مجموعة عامة ثم إلى مجموعات حسب مناطق وجودهم كشعراء ما وراء النهر وشعراء العراق وما جاورها، ومن شعراء هذا العصر ظهير الفاريابى وفريد الدين العطار ونظامى الكنجوى، وقد بلغ عدد هؤلاء الشعراء خلال العصر السلجوقى ثلاثة وخمسين شاعر^(١).

أما الباب الأخير: وهو الثانى عشر فقد ذكر فيه أشعار الصدور الأفاضل المعاصرين للكاتب وبخاصة فى هذه الدولة التى ألف الكتاب فى زمنها وهى دولة الأمير قباجه ووزيره شمس الدين الذى خصه بالذكر كأحد الشعراء. وأضاف إليه من الوزراء ضياء الدين السجزي^(٢).

وهكذا طوف محمد عوفى بجميع العصور، وذكر جميع الشعراء الذين عاصروا هذه الدول مستشهداً بالعديد من أشعارهم وبخاصة أولئك الذين لم يرد ذكرهم فى أى مرجع قبله، بل لم يرد ذكر بعضهم فى أى مرجع بعده، مما جعل لباب الأبواب المرجع الأوحى الذى ذكرهم وسجل أشعارهم.

وترجع أهمية هذا الكتاب إلى العديد من الأسباب أهمها:

يعد كتاب لباب الأبواب أقدم كتب التراجم التى كتبت عن شعراء الفارسية وقد ذكر ذلك بلاند فى مقالة كتبها عن هذا الكتاب ونشرت فى الجزء التاسع من مجلة الجمعية الآسيوية عام ١٨١٨م^(٣).

(١) المرجع السابق ص ٤٥٦ - ٥٥٠. (٣) براون: تاريخ الأدب فى إيران ج ٢، ص: ٦٠٧.

(٢) لباب الأبواب، ص ٥٥١ - ٥٥٨.

وقد انتفع بهذا الكتاب الدكتور ايتة انتفاعاً بالغاً - كما يقول براون - فى تأليف مقالاته العديدة الفائقة التى كتبها عن شعراء الفارسية المبكرين^(١).

وزاد من قيمته ما جمعه خلال أسفاره من أخبار للشعراء المعاصرين له، فقد التقى بمعظمهم وسجل بعض أشعارهم، ونتيجة لاضطراب الأحوال أيام الغزو المغولى فلم تنشر أشعار هؤلاء، ولم تحفظ دواوينهم، فكانت الشواهد التى حفظها لنا عوفى فى كتابه لباب الألباب هى الأشعار الوحيدة الباقية عن بعضهم، وبها عرفت أسماؤهم كشعراء للفارسية^(٢).

ومن مميزات هذا الكتاب عناية محمد عوفى بذكر أوائل الشعراء الذين عاصروا الدولة الصفارية على عكس دولتشاه الذى لم يذكر منهم أحداً، وبهذا يكون لباب الألباب هو المرجع الوحيد للتعرف على هؤلاء الشعراء الأوائل^(٣)، بالإضافة إلى ذلك فقد حظى عوفى وكتابه بثقة القراء والنقاد على عكس دولتشاه المتهم بكثرة الأخبار المختلقة وعدم تحرى الحقيقة فيما كتب، ولهذا إذا قيس لباب الألباب بذاكرة الشعراء لدولتشاه، فإن لباب الألباب صادق فى أخباره موثوق فى أحاديثه، وهو مرجع لا غنى عنه لأى باحث، بعكس تذكرة الشعراء لدولتشاه المشكوك فى أخبارها، الفاقدة الثقة فى كثير فى رواياتها، والمتضاربة فى تواريخها.

ونتيجة لهذه السمات والمميزات فقد حظى كتاب لباب الألباب

(١) المرجع السابق؛ ونفس الصفحة.

(٢) منى فراج: رسالة الماجستير ص: ٧٢.

(٣) لباب الألباب، مقدمة القزوينى، ص: هفده.

بالاحترام والتقدير، فقد قال في حقه صاحب الخزانة العامرة غلام على خان آزاد:

إن جميع كتاب التذاكر المتأخرين عيال محمد عوفى في الكتابة عن أحوال الشعراء المبكرين، ولو لم يصل إلينا لباب الألباب لضاعت تراجم كثيرة، بل لضاع ذكر معظم الشعراء المبكرين جميعاً، ولما بقي الآن اسم منهم ولا أثر عنهم^(١).

وقال في حقه ادوارد براون:

إذا كان البعض يعيب على لباب الألباب الافتقار إلى حسن الترتيب والتنظيم والاهتمام بالملوك والأمراء الشعراء على الرغم من عدم جدوى شعرهم، وأنه أهمل ذكر جماعة من الشعراء المشهورين، أو أورد عن بعضهم شروحا مختصرة كما فعل مع ناصر خسرو وعمر الخيام والفردوسى ونظامى الكنجوى، بينما أفاض في الحديث عن جماعة من متوسطى الحال ونعتهم بمختلف الأوصاف، وذلك لأنهم كانوا من معاصريه والعاملين معه فى بلاط السلطان ناصر الدين قباچه.. إلا أن الكتاب — رغم كل هذه المآخذ — يعتبر من كتب الدرجة الأولى لأنه يشتمل على ما يقرب من ثلاثمائة ترجمة من تراجم شعراء الفارسية — الذين ظهروا قبل أن يشتهر السعدى — ومتى أحسنا الإنتفاع به فستزيد معلوماتنا كثيراً فيما يختص بهذه الفترة المبكرة من فترات الأدب الفارسى^(٢).

(١) المرجع السابق، ص: شانزده.

(٢) براون: تاريخ الأدب فى إيران ج٢ ص: ٦٠٧ - ٦٠٨.

وقال الأستاذ حامد عبدالقادر فى كتابه القطوف واللباب:

يعتبر لباب الألباب مرجعاً هاماً لدراسة الأدب الفارسى عبر أربعة قرون كاملة أى فى الفترة من ٢٠٥ إلى ٦١٧ هـ فقد ذكر عوفى شعراء هذه القرون طبقة بعد طبقة مرتباً أياهم حسب العصور والدول التى أظلتهم^(١).

هكذا قدم ابن بخارى محمد عوفى أعظم كتاب لتاريخ الأدب الفارسى عبر عصوره الأولى، ولولاه لضاع من الذاكرة العديد من هؤلاء الشعراء الذين أورد ذكرهم، وسجل العديد من أشعارهم.

* * *

هكذا كان لمدينة بخارى العامرة دائماً وأبداً - بفضل ابنيها الرودكى المبدع الأول والعوفى المحقق الأول - عظيم الفضل على حركة الشعر العالمى بإعتبار الشعر الفارسى أحد الروافد الهامة الذى أمد نهر الشعر العالمى بالعديد من كبار الشعراء أمثال الفردوسى والسعدى وحافظ الشيرازى والخيام وغيرهم كثيرون.

ونسأل الله العلى القدير أن تستعيد بخارى وجميع مدن أوزبكستان وغيرها من الجمهوريات الإسلامية المستقلة حديثاً عن الاتحاد السوفيتى سابق مجدها وعظيم عافيتها، حتى تعود نشطة ومؤثرة فى مسيرة الحضارة الإنسانية كما كانت عبر تاريخها القديم والحديث.

(١) حامد عبدالقادر: القطوف واللباب، جـ ١ ص ٢٧٠ - ٢٧١، القاهرة ١٩٥١.

البیرونی مؤرخا

البيرونى مؤرخا

ولد البيرونى ببلدة (كاث) بأوزبكستان ، وهذه البلدة أطلق عليها الآن مدينة البيرونى تخليدا لاسم هذا العلامة الإسلامى الكبير الذى عاش فى هذه البلدة فى الفترة ما بين عامى ٣٦٢ هـ (٩٧٣م) و ٤٤٠ هـ (١٠٥٠) م.

ولم يكتف أهل أوزبكستان بإطلاق اسمه على مسقط رأسه فقط، بل شيدوا جامعة بطشقند العاصمة أطلقوا عليها كذلك اسم (جامعة البيرونى) وأقاموا فى حرمها تمثالا له.

وإذا كان البيرونى قد اشتهر بأنة عالم فلك ورياضيات ، فإنه كان أكبر من ذلك بكثير ، لقد كان جامعة علمية بكل ماتحويه أى جامعة حديثة من فروع العلم والمعرفة ، فقد كان رياضيا وفلكيا وعالم نبات وطبيبا وعالما بالمعادن وجغرافيا وفيلسوبا وشاعرا ولغويا ومؤرخا من نوع خاص !

فقد قال أبو الفضل البيهقى صاحب كتاب تاريخ البيهقى :
وأذكر أنى رأيت منذ أمد بعيد كتابا بخط الأستاذ أبى ریحان ، وهو نسيج وحده فى الأدب والفضل والهندسة والفلسفة وغيرها ولم يكن يكتب جزافا ١٠٠٠ (١).

وقال فى حقه الكاتب الفرنسى «فنتس مونتييل» *

ولم يكن البيرونى موسوعيا فحسب بل كان عالم نبات وفلكيا ورياضيا وعالما بالمعادن والجغرافيا ، وفيلسوبا وشاعرا ذا نزعة إنسانية

(١) أبو الفضل البيهقى: الترجمة العربية دار النهضة العربية بيروت ١٩٨٢ ص: ٧٣٣.

خالصة، وأول من كتب تاريخ الهند بلغة عالمية ، ويعنى بها اللغة العربية^(١).

وقال ديودرانت فى قصة الحضارة : إنه فليسوف ومؤرخ ورحالة وجغرافى ولغوى ورياضى وشاعر وعالم طبيعة^(٢).

وورد فى القسم الثالث من تراث الإسلام تأليف شاخت وبوزورت مايلى :

إننا نلاحظ أن البيرونى قد عمل ثبتا بكتبه أحصى فيه مؤلفاته حتى عام ٤٢٨ هـ - ١٠٣٦ م عندما كان عمره - على حد قوله - خمسا وستين سنة هـ، وفى هذا الثبت لم يقتصر على إيراد عدد من المؤلفات الخاصة بالعلم الطبيعى والتاريخ والشعر القديم ، ولكنه أورد أيضا قوائم كاملة لترجمات قام بها لأعمال علمية وغير علمية نقلها عن الهندية وغيرها من اللغات ، وقد لا يظهر على الفور فى هذا الثبت تعمق البيرونى فى المسائل اللغوية ، غير أن ملاحظاته حول اللغة كلما عرض لموضوعها؛ تقدم دليلا كافيا على تضلعه فيها^(٣).

وقال عنة المستشرق الألمانى سخاوبعد تحقيقه لكتاب تحقيق ما للهند: «إن البيرونى يعتبر من وجهة نظر تاريخ العلوم أكبر ظاهرة فى تاريخ الحضارة الإسلامية ٠٠٠»

ويقول الدكتور عبد الحليم منتصر العالم المصرى الشهير :

(١) أحمد محمد عوف: صناعات الحضارة العلمية فى الإسلام؛ ج ٢ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٧، ص: ١٢.

(٢) نفس المرجع. ص ٢٥.

(٣) شاخت وبوزورت: تراث الإسلام (القسم الثالث) عالم المعرفة العدد ١٢ ص ١٠١.

« كان البيرونى متعدد الجوانب العلمية، متميزاً فيها جميعها، فهو فى التاريخ مؤرخ محقق مدقق، وكذلك كان فى الجغرافيا، وفى الفلك وفى الرياضيات والجيولوجيا، مما يسوغ لمستشرق مثل «سحاو» أن يقول: «إن البيرونى أكبر عقلية فى التاريخ» ولغيره أن يقول: «من المستحيل أن يكتمل أى بحث فى التاريخ أو الجغرافيا أو الفلك أو الرياضيات، دون الإشادة بأعمال هذا العالم المبدع»^(١).

وقال عنه السيد البرنى: البيرونى عالم فى اللغات، ومؤرخ وله إلمام واسع بعلم الآثار القديمة والتاريخ الطبيعى والأجناس البشرية، وعلم الأديان المقارن وعلم الأخلاق، وعلم السلوك والعوائد، ويمكن أن يعد من الفلاسفة ..^(٢).

وإذا كان العلماء والنقاد قد أشادوا به ورفعوا من مكانته العلمية قديماً وحديثاً فإن ملوك عصره قد أعلوا قدره كذلك، وأنزلوه منزلة عظيمة فى قصورهم وقلوبهم.

قال ياقوت الحموى:

قد بلغنى من حظوته لديهم - أى لدى الملوك - أن شمس المعالى قابوس بن وشكمير أراد أن يستخلصه لصحبته ويربطه فى داره على أن تكون له الإمرة المطاعة فى جميع ما يحتويه ملكه، وتشتمل عليه مملكته، فأبى عليه ولم يطاوعه، ولما سمحت قرونته بمثل ذلك أسكنه فى داره، وأنزله معه فى قصره.

(١) على أحمد الشحات: أبو الريحان البيرونى، دار المعارف بالقاهرة ١٩٦٨، التقديم ص ٩، ١٠.

(٢) على أحمد الشحات: أبو الريحان البيرونى، ص: ٢٣٠.

هذا ما كان من قابوس بن وشكمير ، ونفس الإعزاز للبيروني ظهر
عند المأمون خوارزمشاه، حيث قال ياقوت كذلك :

دخل خوارزمشاه يوما وهو يشرب على ظهر الدابة ، فأمر باستدعائه
- يقصد البيروني - من الحجرة ، فأبطأ قليلا ، فتصور الأمر على غير
صورته، وثنى العنان نحوه، ورام النزول ، فسبقه أبو الريحان إلى البروز ،
وناشده الله ألا يفعل ، فتمثل خوا رزمشاه قائلا :

العلم من أشرف الولايات يأتية كل الورى ولا يات

ثم قال : لولا الرسوم الدنياوية لما استدعيتك ، فالعلم يعلم ولا يعلم
عليه..^(١).

وإذا كان بعض المؤرخين قد ذكروا أن العلاقة بينه وبين محمود
الغزنوي لم تكن على وفاق كبير ، فإن علاقته بابنه مسعود الغزنوي
كانت أكثر من ممتازة ؛ لذا ألف باسمه كتابه الشهير «القانون
المسعودي» وعندما أنجزه بعث السلطان مسعود إليه حمل فيل من نقده
الفضي مكافأة له، وإذا بالبيروني يرد المكافأة إلى الخزانة بعذر الإستغناء
عنها، ولاقتناعه بأنه يخدم العلم للعلم ، لا من أجل المال^(٢).

وقد ساعد البيروني في تبحره هذا معرفته بل إجادته للعديد من
اللغات ، فقد قيل بأنه كان يجيد جميع لغات العلم التي كانت شائعة
في عصره، إلى جانب لغته المحلية وهي الخورازمية وقد ورد أنه أجاد
العربية والفارسية واليونانية والتركية والعبرية والسريانية والسنسكريتية ، وإن
شكك معجم لغت نامه في معرفته باليونانية ، حيث قال : ومن مطالعة

(١) معجم البلدان: ياقوت، ج-١٧، ص ١٨٢ - ١٨٣.

(٢) معجم البلدان ص: ١٨٥.

كتبه - أى البيرونى - يتضح لنا أنه كان يعرف السنسكريتية، لكنه لم يكن -فيما يبدو- عارفاً باليونانية، وما نقله من اليونانية قد تم عن طريق الكتب المترجمة إلى العربية والسريانية^(١).

ولا شك أن إقباله على تعلم هذه اللغات يرجع إلى شعوره أولاً:

بأن لغة أهل بلده وهى اللغة الخوارزمية لم تكن قادرة على أن توفر له سبل العلم الجيد ، وليست قادرة على أن يعبر بها عن الأفكار والمسائل العلمية والأدبية والتاريخية التى يريد أن يكتب فيها ويعالجها ، وقد قال فى كتابه الآثار الباقية :

«وأنا نفسى طبعت على لغة - يقصد الخوارزمية - لو خلد بها علم لاستغرب استغراب البعير على الميزاب ، والزرافة فى الأكواب ، ثم انتقلت إلى العربية والفارسية ، وأنا فى كل واحد دخيل ، ولها متكلف ، والهجو بالعربية أحب إلى من المدح بالفارسية ، وسيعرف مصداق قولى من تأمل كتاب علم نقل الى الفارسية، كيف ذهب رونقه وكسف باله وأسود وجهه، وزوال الانتفاع به، إذ لاتصلح هذه اللغة إلا للأخبار الكسروية والأسمار الليلية»^(٢).

ونتيجة لكون اللغة العربية لغة العلم الأولى فى جميع البلدان الإسلامية فى عصر البيرونى فإنه قد كتب باللغة العربية كل كتبه عدا كتاب واحد هو «التفهيم فى صناعة التنجيم» حيث كتب باللغة الفارسية وإن قيل أنه كتب منه نسختين إحداهما بالفارسية والأخرى بالعربية وبقيت الفارسية من بينهما .

(١) لغت نامه.

(٢) الصيدنة: البيرونى - نسخة خطية بدار الكتب المصرية، ص: ١٥.

أما عن عدد الكتب التى كتبها أو ترجمها البيرونى فقد اختلف الباحثون فى تحديده ، وقد أوصل البعض هذا العدد إلى مائة وثمانين كتابا أو رسالة، نشر البيرونى نفسه فهرسا بأسماء مائة وثلاثة عشر وذلك فى مؤلفه بعنوان: رسالة فى فهرس كتب محمد بن زكريا الرازى، والذى نشره ماكس كراوزه عام ١٩٣٦م. وقد ضمن البيرونى هذا المؤلف فهرسا بكتبه المائة والثلاثة عشر إلى جانب ذكره لأسماء مؤلفات محمد بن زكريا الرازى ولم يشمل هذا الفهرس كل ماكتبه وألفه وترجمه البيرونى ، حيث كان هذا الفهرس لما كتبه حتى الخامسة والستين من عمره، إلا أنه لم يتوقف عن الكتابة والتأليف حتى آخر يوم من حياته وقيل إنه لم يكن يتوقف عن القراءة والكتابة طوال العام إلا فى يومين فقط هما يوما النيروز والمهرجان ، وهما العידان الوطنيان لأهل خوارزم بلدته ووطنه، وكان يفارق القلم فى هذين اليومين كما قال ياقوت نفسه لإعداد ماتمس إليه الحاجة فى المعاش^(١).

وإذا كان الجميع فى عصره وحتى اليوم قد أشادوا بالبيرونى عالما ومفكرا وفيلسوبا وأديبا وشاعرا وجغرافيا وفلكيا ورياضيا ، فقد أشادوا به كذلك مؤرخا وباحثا ومدققا فى كل ماعرض له من أخبار وسير للأمم القديمة بعامة ولبلاد الهند بخاصة ، ومن الكتب التى تسند إليه واهتم فيها بالموضوعات التاريخية نذكر كتابه الأول «الآثار الباقية من القرون الخالية» وكتابته الشهير «ما للهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مرذولة» وكذلك المقالة الثانية من كتابه العظيم «القانون المسعودى» إلى جانب أنه كتب كتابا بعنوان «تاريخ خوارزم» ولكنه لم يصل إلينا وإن وردت

(١) معجم البلدان، ياقوت الحموى ج١٧ ص: ١٨١.

بعض نماذج منه فى كتب من جاءوا بعده وتحدثوا عن كتبه ومنهم صاحب تاريخ البيهقى الذى أورد حكاية خوارزمشاه أبى العباس نقلا عن كتاب البيرونى تاريخ خوارزم أو المسامرة فى أخبار خوارزم ، فقد كتب البيهقى مايلى :

«حكاية خوارزمشاه أبى العباس»

يقول أبو ريحان فى مسامرة خوارزم :كان خوارزمشاه أبو العباس المأمون بن المأمون رحمه الله آخر أمراء هذه الأسرة التى انقرضت ، وبوفاته انتهت دولة المأمونيين ، وقد كان رجلاً فاضلاً شهماً نشيطاً بعيد النظر فى التدبير يتحلى بالأخلاق الفاضلة ، إلا أنه لم يخل كذلك من مساوئ ، وأقرر هذا حتى يعرف أنى لا أحابى فقد قيل : «إنما الحكم فى أمثال هذه الأمور على الأغلب الأكثر ، فالأفضل منه إذا عدت فضائله استخفت من خلال مناقبه مساوئه ، وإذا عدت محامده تلاشت فيما بينها مثالبه ، وأكبر فضائل الأمير أبى العباس عفة لسانه وإمساكه عن الشتم والفحش والخرافات ، فإنى أنا أبو ريحان ، وقد خدمته سبع سنين ، لم أسمع لفظاً نابياً جرى على لسانه ، وكان أقصى ما يقول وهو فى شدة الغيظ : «يا كلب» (١) .

كما أورد البيهقى حكايات أخرى منقولة عن هذا الكتاب المفقود الذى حرص البيرونى أن يسجل فيه تاريخ وطنه خوارزم ، حكايها وشعبها وعاداتهم وتقاليدهم ، ومنها حديثه عن أسرة آل مأمون وكيف كان أبو الريحان البيرونى موضع ثقة وإعزاز لدى ملوك هذه الأسرة حتى هاجم محمود الغزنوى خوارزم وقوض دعائم ملكهم ، وكيف أجبر ملكهم

(١) تاريخ بيهقى : الترجمة العربية ص ٧٣٣ .

أبا العباس أن يرسل إليه كل العلماء والفضلاء والمفكرين الذين كانوا في بلاطه إلى بلاط محمود الغزنوي في مدينة غزنة، وكان من هؤلاء أبو الريحان البيروني نفسه.

ومن الكتب التاريخية المنسوبة إليه كتاب: تاريخ أيام السلطان محمود وأخبار أبيه^(١)، وللأسف فقد ضاع هذا الكتاب حتى الآن، ولو عُثر عليه فسيضيف الكثير إلى تاريخ هذه الفترة حيث كان البيروني معاصراً لها.

ومن الكتب التي عرج فيها إلى الموضوعات التاريخية على الرغم من كون الكتاب في الفلك أساساً، كتاب القانون المسعودي الذي ألفه باسم مسعود بن محمود الغزنوي، فقد عرض في المقالة الثانية لبعض التواريخ، وقد قال في مقدمة هذه المقالة:

«مزاولة التاريخ مما لا بد منه في تحديد الأوقات ومعرفة ما في الأزمنة من الحركات المستعملة في صناعة التنجيم، وأريد أن أذكر في هذه المقالة مشاهيرها، وأقدم منها الثلاثة - تواريخ - المستعملة في بلاد الإسلام، أعني الهجرة وتاريخي اليونانيين والفرس، والله تعالى يوفق لذلك ويسدد^(٢)».

وقد أورد البيروني في هذه المقالة الثانية من القانون المسعودي، جداول حدد فيها سني الملوك منذ آدم عليه السلام وحتى هجرة الرسول عليه السلام... (الصفحات من ١٤٨ وحتى ١٦٢).

وأورد بعد ذلك تواريخ الهنود واليهود وأعياد كل طائفة وتواريخهم

(١) لغتنامه ج٢، ص ٤٦٢.

(٢) البيروني: القانون المسعودي، الطبعة الأولى ١٩٥٤، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية.

المشهوره ولم يكن يقتصر فى ذلك على سرد هذه الأعياد وتلك المناسبات، بل كان يشير إلى أصلها والأسباب التى جعلت منها عيداً دينياً أو مناسبة مشهوره. ونضرب لذلك مثلاً بحديثه عن أحد أعياد الفرس، وهى المسمى بالتيركان أو عيد الاغتسال^(١) :

«وفى التيركان يغتسل الفرس، وتنكس المطايخ والكوانين، أما كسرهما فبسبب تخلص الناس من حصار (أفراسياب) ومضى كل واحد إلى عمله، ومثله يطبخون الحنطة مع الفواكه إذ كانوا غير قادرين على طحن الحنطة. أما الاغتسال فقالوا إن كيخسرو فى متصرفه من حرب أفراسياب نزل على عين ماء متفرداً عن عسكره، فأغمى عليه للتعب، ووصل إليه (ويجن بن كوذرد) فرش الماء عليه حتى أفاق وجرى رسم الاغتسال من وقتئذ تبريكاً».

وقال فى سبب الاحتفال بعيد المهرجان: وأما المهرجان ففيه زعموا ظفر أفريدون ببيوراسب المعروف بالضحاك وأسره وحيسه فى جبل دباوند، وقد قيل إن ذلك كان فى رام راز، وأمر زرادشت بتعظيم كليهما^(٢).

وقد كتب فى حديثه عن الإنجيل ما يلى:

والإنجيل تفسيره البشارة، معرب من انكليون، ويتضمن أخبار المسيح من ولادته إلى انقراضه، وقد كتبه أربعة نفر منهم متباينو الأمكنة واللغة، فهم متى كتب بفلسطين بالعبرانية، ومرقوس بالروم بالرومية، ولوقا بالإسكندرية باليونانية، ويوحنا بافسييس باليونانية، ثم جمعت الأربعة

(١) راجع المقالة الثانية القانون المسعودى، ص ٩٤. ٢٧. ومنها أخذنا هذه النماذج الواردة كلها.

(٢) نفس المرجع، ص: ٢٦٣.

الأناجيل وإن اختلفت لفظاً واتفقت معنى في دفتين، وسمى مجموعها بالإنجيل^(١).

وكتاب آخر من كتب البيروني ألفه في علم الجغرافيا واسمه «تحديد نهاية الأماكن لتصحيح المساكن» ويهمننا هذا الكتاب كى نشير إلى قضية تاريخية هامة أشار إليها البيروني تتعلق بقناة السويس، حيث كتب ما يلي:

«وحين كانت أرض مصر بحراً، حرص ملوك الفرس بعد استيلائهم على مصر أن يحفروا من القلزم (البحر الأحمر) إليها، ويرفعوا البرزخ عما بين البحرين، حتى يمكن للمركب أن يسير من البحر المحيط في المغرب (المحيط الهندي) إليه بالمشرق (الأطلنطي) كل ذلك ارتفاعاً وطلب تعميم المصلحة، وكان أولهم سطرانخس الملك (سنوسرت الثالث ١٨٨٧ - ١٨٤٩ ق.م) ثم داريوش (٥٢٢ - ٤٨٦ ق.م) وحفروا مسافة مديدة هي باقية الآن يدخلها ماء القلزم بالمند ويخرج بالجزر.

فلما قاسوا ارتفاع ماء القلزم أمسكوا عما راموه خوفاً من أن يفسد القلزم نهر مصر لإشرافه عليه، ثم تممه بطليموس الثالث (ملك مصر ٢٤٦ - ٢٤١ ق.م) على يد أرشميدس بحيث حصل الغرض بلاضرر، وطمه بعد ذلك أحد ملوك الروم منعاً للفرس عن ورود مصر منه^(٢).

وهكذا كان البيروني مؤرخاً لتاريخ قناة السويس، ذاكرةً للملوك الذين شاركوا في هذا الأمر، عارضاً للآراء التي سادت حول هذا

(١) المرجع السابق، ص: ٢٥٢.

(٢) نقلاً عن: تراث الإنسانية المجلد الثاني وزارة الثقافة المصرية بالقاهرة، مقال دكتور إمام إبراهيم أحمد عن القانون المسعودي ص: ٤١٦.

الموضوع حتى تم إنجازها، ولكن هذا الإنجاز تعرض للردم مرة أخرى على يد أحد ملوك الروم كما قال البيروني، وهكذا كان البيروني ملماً لا بتاريخ الهند وفارس فقط، بل بتاريخ كل الأمم المشهورة في التاريخ القديم والمعاصر لها ومنها مصر بطبيعة الحال!..

إذا كانت هذه الكتب السابقة مثلاً لما كان يحرص عليه البيروني من العناية بأحداث التاريخ خلال عرضه لبعض المسائل الرياضية أو الفلكية أو الجغرافية أو غيرها، فإن فهرس مؤلفاته قد حظى بكتابين معظم ما جاء فيهما متصل بعلم التاريخ، وهذان الكتابان هما:

الآثار الباقية من القرون الخالية، وتحقيق ما للهند من مقوله مقبولة في العقل أو مردولة. وهاك تعريف بهذين الكتابين:

الآثار الباقية:

ألفه البيروني برسم الأمير شمس المعالي قابوس بن وشمكير حاكم طبرستان والذي انضم إلى بلاطه فترة من الزمن، ويرجع تاريخ كتابته إلى الفترة من ٣٨٨ إلى ٤٠٣ هـ، وإن قال البعض تحديداً إنه ألف عندما كان عمر البيروني حوالي الثامنة والعشرين أى في حوالي عام ٣٩٠ هـ، وهذا الكتاب يبحث في التواريخ التي كانت تستعملها الأمم، والاختلاف في الشهور والسنين والتقويم عند الأمم وأسسها، إلى غير ذلك مما يسميه الفرنج الآن علم الكروتولوجيا^(١).

ويعد هذا الكتاب من أشهر كتبه وأغزرها مادة، فهو يبحث في الشهر واليوم والسنة عند مختلف الأمم القديمة، وكذلك في التقاويم،

(١) أحمد أمين: ظهر الإسلام، ص: ٢٨٩.

وما أصاب ذلك من التعديل والتغيير، وفيه جداول تفصيلية للأشهر الفارسية والعبرية والهندية والتركية، وأوضح فيه كيفية استخراج التواريخ بعضها من بعض، وفيه أيضاً جداول للملك آشور وبابل والكلدان والقبط واليونان قبل النصرانية وبعدها، وكذلك للملك فارس قبل الإسلام على اختلاف طبقاتهم، وغير ذلك من الموضوعات التي تتعلق بأعياد الطوائف المختلفة^(١).

ومما قاله البيروني في مقدمة الكتاب موضحاً لماذا ألفه، والغرض من تأليفه، ما يلي:

«قد سألتني أحد الأدباء عن التواريخ التي يستعملها الأمم، والاختلاف الواقع في الأصول التي هي مبادئها، والفروع التي هي شهورها وسنوها، والأسباب الداعية لأهلها إلى ذلك، وعن الأعياد المشهورة والأيام المذكورة للأوقات والأعمال مما يعمل عليه بعض دون بعض.

فعلمت أن ذلك أمر صعب المتناول بعيد المآخذ.. لكنني تزيدت بعلم دولة مولانا الأمير السيد الأجل المنصور ولي النعم شمس المعالي أدام الله قدرته في استفراغ الوسع واستنفاد الجهد في الإبانة عن ذلك على حسب ما بلغه علمي إن بسماع وإن بعيان وقياس.

وابتدئ فأقول: إن أقرب الأسباب المؤدية إلى ما سئلت عنه هو معرفة أخبار الأمم السالفة، وأبناء القرون الماضية لأن أكثرها أحوال عنهم ورسوم باقية من رسومهم ونواميسهم، ولا سبيل إلى التوصل إلى ذلك من جهة الاستدلال بالمعقولات والقياس بما يشاهد من المحسوسات سوى

(١) على أحمد الشحات: أبو الريحان البيروني، دار المعارف ١٩٦٨، ص: ٩٩.

التقليد لأهل الكتب والملل وأصحاب الآراء والنحل المستعملين لذلك وتصيير ما هم فيه أساساً يبنى عليه بعده»^(١).

ويشرح معنى التاريخ فيقول:

«.. التاريخ هو مدة معلومة تعد من لدن أول سنة ماضية كان فيها مبعث نبي بآيات وبرهان، أو قيام ملك عظيم الشأن، أو هلاك أمة بطوفان عام مخرب أو زلزلة وخسف مبين أو وباء مهلك أو قحط مستأصل، أو انتقال دولة أو تبدل ملة أو حادثة عظيمة من الآيات السماوية والعلامات المشهورة الأرضية التي لا تحدث إلا في دهور متطاولة وأزمنة متراخية تعرف بها الأوقات المحددة.

ولكل واحدة من الأمم المتفرقة في الأقاليم تاريخ على حدة، تعدها من أزمنة ملوكهم أو أنبيائهم أو دولهم أو سبب من الأسباب التي قدمت ذكرها وتستخرج بها ما يحتاج إليه من المعلومات ومعرفة الأوقات وتنفرد به دون غيره»^(٢).

والى جانب الأحداث التاريخية والأخبار التي ساقها، كان يورد بعض الأشعار مؤيداً بها أقواله وآراءه، ومن بين ما أورده مقالته أحد أبناء الأكاسرة بشأن تقسيم أفريدون لدولته بين أبنائه سلم وطوج وإيران:

فقسماً ملكنا في دهرنا	قسمة اللحم على ظهر وضم
فجعلنا الشام والروم إلى	مغرب الشمس لغطريف سلم
ولطوج جعل الترك عنوة	فبلاد الترك يحويها ابن عم
ولإيران العراق عنوة	فإزار بالملك وفزنا بالنعم ^(٣)

(١) البيروني: الآثار الباقية عن الأيام الخالية، نشر مكتبة المثنى ببغداد، ص: ٤.

(٢) الآثار الباقية. (٣) المرجع السابق، ص: ١٠٢.

وكذلك إشارته إلى أن العرب قبل الإسلام كانوا يأكلون أربابهم إذا
جاعوا، مما يدل على عدم احترامهم لهذه الأرباب:

أكلت ربها
لم يحذروا من ربهم
زمن التقحم والمجاعة
سوء العواقب والتباعة^(١)

وقد حرص البيروني على أن يذكر في كتابه جميع الألقاب التي
تطلقها كل أمة على ملوكها، وهذا جدول بأهم هذه البلدان وألقاب
الملوك فيها، علماً بأنه ذكر ثمانى وثلاثين بلداً، أكتفى بذكر أربع عشرة
منها على سبيل المثال:

لقب الملك أو الحاكم

إسم البلد أو القوم

شاهنشاه وكسرى

١ - الفرس الساسانية

باسلى وهو قيصر

٢ - الروم

بطليموس

٣ - الإسكندرية

تبع

٤ - اليمن

خاقان

٥ - الترك الخزر

نجاشي

٦ - الحبشة

مهراج .

٧ - جزائر البحر الشرقي (الهند)

اصفهيدي

٨ - تبيل طبرستان

اخشيدي

٩ - فرغانه

أنا هيدي

١٠ - جرجان

نمرود

١١ - السريان

العزير

١٢ - مصر

خوارزمشاه

١٣ - خوارزم

بخار خداه^(٢)

١٤ - بخارى

(١) المرجع السابق، ص: ١٢٠.

(٢) الآثار الباقية، ص: ١٠٠ - ١٠٢.

كما ذكر قائمة بملوك بعض الدول التي تعرض لذكر أيامهم وسنواتهم وتقاويمهم حيث سجل عدد ملوك كل دولة وعدد السنين التي حكمها هؤلاء الملوك جملة ومن الذين ذكرهم، أذكر ما يلي^(١):

١ - ملوك آشور «وهم أهل الموصل» وعددهم ٣٧ ومدة حكمهم ١٣٠٥ سنة.

٢ - ملوك بابل وعددهم ٤ ومدة حكمهم ١٧٢ سنة.

٣ - ملوك القبط بمصر وعددهم ٣٤ ومدة حكمهم مع الفرس ٨٩٤ سنة.

٤ - ملوك مقدونية (وهم اليونانيون والملقبون بالبطالسة) وعددهم ١٤ ومدة حكمهم مع الفرس ٢٩٤ سنة.

وعندما ذكر تاريخ الفرس قسمه إلى ثلاث مراحل، حيث قال:

وأما الفرس فإنهم يسمون الإنسان الأول كيومرث ولقب بكوه شاه أى ملك الجبل، وقيل كل شاه أى ملك الطين إذ لم يكن حيثذ أحد، وقيل إن تفسير اسمه حى ناطق ميت، وتاريخهم فيما بينهم ينقسم من لدنه أثلاثاً:

فالقسم الأول منه إلى أن قتل الإسكندر دارا وتسارطه على ممالك الفرس... والثانى من ذلك الوقت إلى ظهور أردشير بن بابك ورجوع الملك إلى قواره الأول، والثالث من حيثذ إلى مقتل يزدجرد بن شهریار وزوال ملك آل ساسان وظهور الإسلام^(٢).

ولم يكن البيرونى قاصراً تأريخه على الملوك، بل كائن أكثر همه التأريخ للشعوب وعاداتهم وتقاليدهم وأعيادهم، أما عن الملوك فيأتى ذكرهم عرضاً فى معظم الأوقات، ومن الموضوعات التى عنى بذكرها

(١) الآثار الباقية، ص: ١٤.

(٢) نفس المرجع، ص: ٩٩.

أخبار المتنبيين وأممهم المخدوعين^(١) وقد ذكر من بين هؤلاء المتنبيين مانى ومزدك وهاشم بن حكيم المعروف بالمقنع، كما أدخل فى زميرتهم الحسين بن منصور الحلاج، حيث قال فى وصفه:

«.. وكان رجلاً مشعبذاً ومتصنعاً مازجا نفسه بكل إنسان على حسب اعتقاده ومذهبه، ثم ادعى حلول روح القدس فيه وتسمى بالإله، وصارت له أصحابه، وكان أصحابه يفتتحون كتبهم إليه بسبحانك يا ذات الذات ومنتهى غاية اللذات يا عظيم يا كبير.. وصنف كتباً فى دعواه مثل كتاب نور الأصل وكتاب جم الأكبر وكتاب جم الأصغر فعثر عليه المقتدر بالله فى سنة إحدى وثلاثمائة للهجرة وضربه ألف سوط وقطع يديه وضرب عنقه ثم زرقه بالنفط حتى احترقت جثته، ورمى برماده إلى دجلة»^(٢).

وفى حديثه عن عيد النوروز لم يكتف بالإشارة إلى سبب اتخاذه عيداً ومتى كان ذلك، بل حرص على أن يسجل كيف يحتفى به، وما قاله فى ذلك:

«.. وقد قيل فى تعييده أيضاً: إن جمشيد لما اتخذ العجلة ركبها فى هذا اليوم، وحملته الجن والشياطين فى الهواء من دباوند إلى بابل فى يوم واحد، فاتخذته الناس عيداً لما رأوا فيه من الأعجوبة، وترجحوا بالأرجوحات تشبهاً بها.. وكان النوروز فيه جرى الرسم بتهادى الناس فيما بينهم بالسكر..»

(١) الآثار الباقية ص ٢٠٤ - ٢١٤.

(٢) نفس المرجع ص ٢١١.

واليوم السادس منه، وهو روز خرداد النوروز الكبير وعند الفرس عيد عظيم الشأن، قيل إن فيه فرغ الله من خلق الخلائق لأنه آخر أيام السنة المذكورة وفيه خلق المشتري.. وقال أصحاب النيرنجات: من ذاق صبيحة هذا اليوم قبل الكلام السكر وتدهن بالزيت دفع عنه في عامة سنته أنواع البلايا.. وزعم بعض الناس أن جم كان أمر بحفر أنهار وأن الماء أجرى فيها في هذا اليوم، فاستبشر الناس بالخصب، واغتسلوا بذلك الماء المرسل، فتبرك الخلف بمحاكاة السلف.. وقيل: بل السبب في الاغتسال هو أن هذا اليوم لهروذا وهو ملك الماء، والماء يناسبه، فلذلك صار الناس يقومون في ذلك اليوم عند طلوع الفجر فيعمدون إلى ماء القنى والحياض، وربما استقبلوا المياة الجارية فيفيضون على أنفسهم منها تبركاً ودفعاً للآفات. وفي ذلك اليوم يرش الناس الماء بعضهم على بعض^(١).

ونتيجة لما ضمه هذا الكتاب من معلومات قيمة عن الأمم السابقة، فقد اعتبره بعض المؤرخين والنقاد الكتاب الأول من نوعه في الفكر العالمى، كما أنه مورد لا يقدر للمعلومات المتعلقة بتاريخ الأديان، والمأثورات المشهورة عند أهل الأديان المختلفة التى ذكر تقويمها^(٢).

تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مردولة:

يقول البيرونى فى المقدمة: «يجب أن نتصور أمام مقصودنا الأحوال التى لها يتعذر استشفاف أمور الهند، فإما أن يسهل بمعرفتها الأمر وإما أن يتمهد له العذر، وهو أن القطيعة تخفى ما تبديه الوصلة، ولها فيما بيننا أسباب: منها أن القوم يباينوننا بجميع ما يشترك فيه الأمم، وأولها

(١) الآثار الباقية، ص: ٢١٥ وما بعدها.

(٢) تراث الإسلام: القسم الثالث، ص ١٠٣.

اللغة وإن تباينت الأم بمثلها ومتى رامها أحد لإزالة المباينة لم يسهل ذلك لأنها في ذاتها عريضة تشابه العربية يتسمى الشيء الواحد فيها بعدة أسماء مقتضبة ومشتقة، وبوقوع الاسم الواحد على عدة مسميات محوجة في المقاصد إلى زيادة صفات لا يفرق بينها إلا ذو فطنة لموضع الكلام وقياس المعنى إلى الراء والأمام.. ومنها أنهم يباينوننا بالديانة مباينة كلية لا يقع منا شيء من الإقرار بما عندهم ولا منهم شيء مما عندنا، وعلى قلة تنازعهم في أمر المذاهب بينهم بما سوى الجدل والكلام دون الإضرار بالنفس أو البدن أو الحال، ليسوا مع من عداهم بهذه الوتيرة، وإنما يسمونه «مليج» وهو القدر لا يستجيزون مخالطته في مناكحة أو مجالسة ومؤكلة ومشاربة من جهة النجاسة.

ومنها أنهم يباينوننا في الرسوم والعادات حتى كادوا أن يخوفوا ولدانهم بنا وبزينا وهيئاتنا إلى الشيطنة وإياها إلى عكس الواجب وإن كانت هذه النسبة لنا مطلقة وفيما بيننا بل وبين الأمم بأسرهم مشتركة^(١).

- وواصل البيروني الحديث عن أسباب التباين بين الهند وعامة المسلمين، وقد زاد شعورهم بالنفور من المسلمين هجوم محمود الغزنوي على بلاد الهند وتخطيم أصنامهم وتخريب معابدهم والقضاء على بعض دياناتهم. ولعل هذا التباين هو الذي شجع البيروني على دراسة الهند وسكانها حتى يقرب صورتهم إلى المسلمين فيفهمونهم ويعرفون كيف يتعاملون معهم، ولا شك أن البيروني عندما صجبه محمود الغزنوي معه في غزواته إلى الهند، كان البيروني يمثل في ذلك دور الجمعية العلمية

(١) البيروني: تحقيق ما للهند... طبع دائرة المعارف العثمانية بالهند ١٩٥٨ ص ١٣ - ١٥.

الفرنسية التي صحبت نابليون بونابرت أثناء حملته على مصر كي تدرس آثارها وتاريخها وعادات أهلها وإذا كانت هذه البعثة قد نجحت في فك رموز اللغة الهيروغلوفية بعد عثورها على حجر رشيد وفك رموزه، فقد استطاع البيروني بمفرده أن يفك رموز الحياة الهندية ويسجلها ويشرح غموضها، لا لمعاصريه فقط، بل للبشرية عبر عدة قرون تالية، ولم يستطع أى سائح أو زائر وفد إلى الهند قبله أو بعده لعدة قرون تالية أن يقدم مثل هذه المعلومات القيمة التي سجلها البيروني في كتابه تحقيق ما للهند، وفي هذا يقول أحمد أمين في كتابه ظهر الإسلام:

«وكان ذهاب البيروني إليه (إلى محمود الغزنوي) نعمة لا تقدر، فهو الذى استغل فتوح السلطان محمود فى الهند أحسن استغلال علمى، وجعل ثروة الهند فى الرياضة والفلسفة والإلهيات فى يد العرب والفرنج، ولا تزال كتبه التى ألفها العمدة الصادقة لكل من كتب عن الهند من شوقيين وغربيين، وكان البيروني هذا درة فى تاج الدولة الغزنوية. كابن سينا فى الدولة السامانية»^(١).

والبيروني بالنسبة للهند كهيرودت فى بابل ومصر، فقد أدرك نوعا من المدنية الغربية والتي وصلت فى زمانه إلى مرحلة مثيرة للدهشة، والحيرة، وكذلك إلى درجة من الرقى والكمال^(٢) فحرص على تسجيلها وتقديمها إلى البشرية ولتظل فى ذاكرة التاريخ، كما حفظت هذه

(١) ظهر الإسلام، ص ٢٨٧.

(٢) لغتنامه، ج ٢، ص: ٤٨٢.

الذاكرة أقوال هيرودوت بشأن مصر عبر القرون دون أن تندثر هذه الأقوال مهما توالى الأحداث وتعاقبت السنون.

وإذا كان محمود الغزنوي قد صحب البيروني معه إلى الهند في بعض غزواته، فإن البيروني لم يحمل السلاح ويحارب مع جنود محمود في غزو الهند، بل حرص على أن يدرس هذا العالم الجديد، ولكي يدرسه كان لابد أن يتعلم اللغة السنسكريتية حتى يستطيع أن يقرأ كتبهم وأن يناقش علماءهم، ويستمع إلى مفكريهم بل وعامة شعبهم، وأن يترجم بعض كتبهم، ومع أن البيروني كان يؤمن إيماناً جازماً بعظمة الإسلام، ورفيع مكانته، فإنه كان ينظر إلى الهنود وفكرهم بعين الاحترام والتبجيل، فقد أدرك أنه لا بد من الدخول معهم في جدل فكري وتمحيص عقلي والنظر إلى أفكارهم وعقائدهم بعين الإنصاف والعدل، حتى يكون الانتقاد والاعتراض مردهما الدراسة والفهم والتمحيص، ولهذا حرص على تعريف الحضارة الهندية تعريفاً كاملاً في كتابه تحقيق ما للهند، كما حرص - بروح العالم المنصف - أن يشرح كل ذلك بعين بعيدة عن التعصب والانحياز، وأن يقول بعد إحكام العقل فيما يعرض له، ما لهم وما عليهم.

وإذا كان المسلمون قد نظروا إلى هذا الكتاب نظرة إعجاب وتفاخر واعتبروه نجمة ساطعة في سماء أدبهم، فإن الهنود قد استحسوه وقدروه، حيث أن باحثاً عاشقاً للحقيقة قد تحدث عن حضارتهم وثقافتهم حديث الإنصاف قائلاً ما لها وما عليها على الرغم من عدم موافقتهم على بعض ما جاء في الكتاب من نقد لاذع لعقائدهم وأفكارهم، إلا أن هذا

النقد المبني على الأدلة والبراهين لم يقلل من شأن هذا الكتاب لديهم، بل حرصوا كل الحرص على نشره وتداوله^(١).

يقول في ذلك الأستاذ نفيس أحمد الأستاذ بجامعة كلكتا بالهند:

« كان عمله فريداً إذ كتبه باعتباره مستوطناً للهند، فمس جوانب متنوعة: الدين، الفلسفة، الأدب، العوائد، القوانين، التنجيم، الفلك، التاريخ، الجغرافيا، ولم يكن هذا بالتأكيد عملاً يسيراً بالنسبة لغريب على البلاد مهما كان تمكنه من العلم وحظه من المعلومات، والبيروني يدلي بإقرار أمين في هذا الصدد حيث يقول: ولقد أعيتني المداخل فيه، مع حرصى الذى تفردت به فى أيامى وبذلى الممكن غير شحيح عليه فى جمع كتبهم من المظان واستحضار من يهتدى لها من المكامن، ولمن غيرى مثل ذلك إلا أن يرزق من توفيق الله ما حرّمته»^(٢).

وهذه الموسوعة الكبيرة ظل البيروني يجمع مادتها طوال أربعين عاماً تقريباً - كما يقولون - كان دؤوباً صبوراً غير متعجل فى إنهاء الكتاب قبل أن يتيقن من كل خبر يكتبه ومن كل رواية يستمع إليها، متحققاً من صدق كل مقولة تذكر أمامه وقد انتهى من تأليفه فى المحرم عام ٤٢٣هـ = ١٠٣٠م أى بعد وفاة محمود الغزنوى بعام ونصف، وقد تعددت القنوات التى جمع عن طريقها معلوماته.

وكانت أول هذه القنوات - كما سبق القول - إقباله على تعلم اللغة السنسكريتية وإجادتها إجابة تامة تمكنه من قراءة الكتب الهندية الدينية

(١) لغتنامه، ص ٤٨١.

(٢) على أحمد الشحات: أبو الريحان البيروني، ص: ٨٤، ٨٥.

منها وغير الدينية، وقد وصل فى إجادة هذه اللغة إلى درجة ساعدته على مناقشة العلماء الهنود وقراءة كتبهم والإطلاع على تراثهم والأخذ منه بما يثرى سفره العظيم «تحقيق ما للهند»^(١).

والقناة الثانية تمثلت فى سفرياته العديدة إلى الهند، للإطلاع على عاداتهم وتقاليدهم ورؤيتها رأى العين عملاً بالمبدأ القائل ليس من رأى كمن سمع، وفى هذا يقول البيرونى فى مقدمة الكتاب:

«إنما صدق القائل: «ليس الخبر كالعيان» لأن العيان إدراك عين النظر عين المنظور إليه فى زمان وجوده وفى مكان حصوله ولولا لواحق آفات بالخبر لكانت فضيلته تبين على العيان والنظر لقصورهما على الوجود الذى لا يتعدى أنات الزمان وتناول الخبر إياها وما قبلها من ماضى الأزمنة وبعدها من مقبلها حتى يعم الخبر لذلك الموجود والمعدوم معاً. والكتابة نوع من أنواعه يكاد أن يكون أشرف من غيره، فمن أين لنا العلم بأخبار الأمم لولا خوالد آثار القلم؟»^(٢)

والقناة الثالثة التى جمع عن طريقها مادة كتابه، لقاءه بالهنود الذين حملوا إلى غزنة، إما فى صورة أسرى أحضرهم جند محمود الغزنوى معهم إلى العاصمة بعد كل غزوة، أو فى صورة عمال وحرفيين نقلهم السلطان الغزنوى إلى العاصمة للمشاركة فى تطويرها وتجميلها، أو فى صورة علماء ومفكرين هنود حرص السلطان على إبعادهم عن الهند

(١) أحمد الساداتى: مقال بعنوان: تحقيق ما للهند . جاء بالمجلد الثانى من تراث الإنسانية، إصدار

وزارة الثقافة المصرية، ص: ١٣١.

(٢) تحقيق ما للهند: ص: ١.

حتى لا يؤلبوا المواطنين هناك ضد الفاتح الجديد، فنقلهم إلى العاصمة
كى يكونوا تحت سمعه وبصره.

إلى غير ذلك من القنوات التى ساعدته فى جمع مادته العلمية،
ومهدت له الطريق لكى يقدم إلى البشرية أعظم كتاب كتب عن الهند
حتى عصر المؤلف بل ولعدة قرون تلت زمن تأليفه.

جاءت هذه الموسوعة الكبيرة فى ثمانين بابا أشرف على تحقيقها
وإخراجها لأول مرة المستشرق الألمانى زخاو، ثم أقدمت دائرة المعارف
العثمانية بحيدر آباد بالدكن - الهند على إعادة طبعها وذلك عام
١٩٥٨م. مما جعلها متوفرة فى المكتبات العربية، وتحت تصرف الباحثين
والقراء عامة. وقد غطى البيرونى فى هذه الأبواب الثمانين كل مايتعلق
بالحياة فى الهند من لغات وعقائد ورسوم وحياة اجتماعية وفكرية
وتحدث فيها عن شرائع الهنود وأحكام الفروض والعبادات عندهم
كالمواريث والصيام والقرايين والحج والصدقات والأعياد والعقوبات،
والمباح من المطاعم والمشارب والمحظور، وطرائق الكتابة، كما عرفنا
بتراثهم من النحو والشعر وسائر العلوم، كما وصف بلاد الهند ومعالمها
الجغرافية إلى جانب حديث مطول عن الفلك والتقويم هناك. إلى غير
ذلك من الأمور التى غطت الثمانين بابا التى شملها الكتاب. وهذه
بعض النماذج مما جاء بالكتاب:

من المعروف أن الشعب الهندى مقسم إلى طبقات، وقد أشار إلى
ذلك البيرونى، ومما كتبه فى ذلك مايلى:

«وقد كان الملوك القدماء المعنيون بصناعتهم يصرفون معظم

إهتمامهم إلى تصنيف الناس طبقات ومراتب يحفظونها عن التمازج والتهاجر ويحظرون الاختلاط عليهم بسببها، ويلزمون كل طبقة ما إليها من عمل أو صناعة وحرفة، ولا يرخصون لأحد في تجاوز رتبته، ويعاقبون من لم يكتف بطبقته، وسير أوائل الأكاسرة تفصح بذلك فلهم فيه آثار قوية لم يقدح فيه تقرب بخدمة ولا توسل برشوة حتى أن «أردشير بن بابك» عند بتجديده ملك فارس جدد الطبقات وجعل الأساورة وأبناء الملوك في أولاهها، والنسك وسدنة النيران وأرباب الدين في ثانيتهما، والأطباء والمنجمين وأصحاب العلوم في ثالثتها، والزراع والصناع في رابعتها على مراتب في كل واحدة منها تميز الأنواع في أجناسها على حدة بحيالها.. وللهند في أيامنا من ذلك أوفر الحظوظ حتى إن مخالفتنا إياهم وتسويتنا بين الكافة إلا بالتقوى أعظم الحوائل بينهم وبين الإسلام.

وهذه الطبقات في أول الأمر أربع عليها «البراهمة»، وقد ذكر في كتبهم أن خلقتهم من رأس «براهم» وأن هذا الاسم كناية عن القوة المسماة «طبيعة»، والرأس علاوة الحيوان فالبراهمة نقاوة الجنس ولذلك صاروا عندهم خيرة الإنس، والطبقة التي تتلوهم «كشتر» خلقوا بزعمهم من مناكب براهم ويديه ورتبتهم عن رتبة البراهم غير متباعدة جداً، ودونهم «بيش» خلقوا من رجلى براهم، وهاتان المرتبتان الأخيرتان متقاربتان، وعلى تمايزهم تجتمع المدن والقرى أربعتهم مختلطى المساكن والدور، ثم أصحاب المهن دون هؤلاء غير معدودين في طبقة غير الصناعة ويسمون «انتز» وهم ثمانية أصناف بالحروف ويتمازجون بما يشابهها من الحرف الآخر^(١).

(١) تحقيق ما للهند، ص: ٧٥ وما بعدها.

ونلاحظ أن البيروني لم يكتف بذكر الطبقات في الهند بل عرج على النظام الطبقي في إيران خلال حكم الدولة الساسانية، وأن هذا النظام الطبقي قد قضى عليه الإسلام حيث جعل المسلمين جميعا سواسية، واعتبر أن المساواة في الإسلام كانت الحائل لدى بعض الهنود للإقبال على الإسلام الذي قضى على الطبقة التي يؤمنون بها ويسلمون بحتميتها.

ومن الأشياء التي أشار إليها، علومهم وكتبهم في شتى الفنون والعلوم، ومنها كتاب « پنج تنتر » الذي يقال أنه أصل كليله ودمنة الذي ترجمه ابن المقفع إلى اللغة العربية نقلاً عن الترجمة البهلوية لهذا الكتاب الهندي، فقال:

ولهم فنون من العلم أخطر كثيرة وكتب لا تكاد تحصى ولكني لم أحط بها علما، وبودي إن كنت أتمكن من ترجمة كتاب « پنج تنتر » وهو المعروف عندنا بكتاب « كليله ودمنة » فإنه تردد بين الفارسية والهندية ثم العربية والفارسية على السنة قوم لا يؤمن تغييرهم إياه كعبد الله بن المقفع في زيادته باب « برزويه » فيه قاصدا تشكيك ضعفى العقائد فى الدين وكسرهم للدعوة إلى مذهب « المنانية » وإذا كان متهما فيما زاد لم يخل عن مثله فيما نقل^(١).

وتحدث البيروني كذلك عن المباح والمحظور من المطاعم والمشارب، فقال: وحرمت الميتة من المباحات إذا ماتت حنفت أنفها، فأما المباحات فهي الضأن والمعز والظباء والأرانب والجواميس والسماك والطير المائية

(١) تحقيق ما للهند، ص: ١٢٣.

والبرية منها كالعصافير والفواخت والدراريح والحمام والطواويس وما لا يعافه النفس مما لم يرد به حظر، والمنصوص على تحريمه البقر والخيول والبغال والأحمره.. وقد قال بعضهم إن البقر كان قبل (بهارث) مباحاً، ومن القرابين ما قيل قتل البقر إلا أنه حرم بعد بهارث لضعف طباع الناس عن القيام بالواجبات.. وهذا كلام قليل المحصول فإن تحريم البقر ليس بتخفيف ورخصة وإنما هو تشديد وتضييق.. وأنا أظن في ذلك أحد أمرين، إما السياسة فإن البقر هي الحيوان الذي يخدم في الأسفار بنقل الأحمال والأثقال وفي الفلاحة بالكرب والزراعة... وحكى لى أن في بعض كتبهم: إن الأشياء كلها شيء واحد وفي الحظر والإباحة سواسية، وإنما تختلف بسبب العجز والقدرة^(١).

وهذه بعض عاداتهم المتعلقة بالزواج:

ومن شأن الهند أن يكون التزويج فيهم على صغر السن ولذلك يعقده الأبنوان لأبنائهم، فيقيم البراهمة فيه رسوم القرابين ويث فيهم وفي غيرهم الصدقات، وتظهر آلات الأفراح، ولا يسمى بينهما مهر، وإنما يكون فيه للمرأة صلة بحسب الهمة ونحلة معجلة لا يجوز ارتجاعها إلا أن تهبها المرأة بطيبة من نفسها، ولا يفرق بين الزوجين إلا الموت إذ لا طلاق لهم، وللرجل أن يتزوج بأكثر من واحدة إلى أربع، وما فوق الأربع محرم^(٢).

هذه بعض النماذج مما احتواه هذا الكتاب القيم الذي أحاط بكل مناحي الحياة الهندية، وقد جاءت معلوماته دقيقة ومؤكدة ولم تكن

(١) المرجع السابق، ص: ٤٦٧ - ٤٦٩.

(٢) تحقيق ما للهند، ص: ٤٧٩.

مجرد معلومات سائح زار بلدا وأراد أن يسجل انطباعته، بل جاءت المعلومات بعد دراسة متأنية ومحققة، جاءت بعد سنوات من الدرس والتمحيص وجمع المادة العلمية الموثقة، ولهذا حظى الكتاب بالاهتمام والقبول من كل المهتمين بالهند خاصة وبالشرق عامة.

المنهج التاريخي عند البيروني:

حفل عصر البيروني بعدد كبير من المؤرخين وكان على رأسهم محمد بن جرير الطبري والمسعودي ومسكويه، ولكننا لا نجاوز الحقيقة إذا قلنا إن البيروني كان أيضاً من كبار مؤرخي هذا العصر، ولعل شهرته كعالم فلكي ورياضي وطبيعي وجغرافي قد صرفت النظر عنه بعض الشيء عن كونه مؤرخاً تاريخياً كبيراً أيضاً ولكنه كان مؤرخاً من نوع خاص ومميز، فقد اتسمت شخصيته كمؤرخ بسمات قلما وجدت عند غيره وبصفات ميزته عن جميع المؤرخين، وهذه أهم السمات التي أنصف بها البيروني المؤرخ:

١ - كان البيروني عاشقاً للحقيقة:

كان شعاره العلمي والأخلاقي في توضيح المسائل التي يتوخى لدراستها - كما جاء في كتابه تحقيق ما للهند -: «قولوا الحق ولو على أنفسكم» آخذاً هذا الشعار من الآية الكريمة: «يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم» (سورة النساء، آية: ١٣٥). فقد قال في مقدمة «تحقيق ما للهند..»:

«إن الخبر عن الشيء الممكن الوجود في العادة الجارية يقابل الصدق والكذب على صورة واحدة وكلاهما لاحقان به من جهة

المخبرين لتفاوت الهمم وغلبة الهراش والنزاع على الأمم، فمن مخبر عن أمر كذب يقصد فيه نفسه فيعظم به جنسه لأنها تحته أو يقصدها فيزرى بخلاف جنسه لفوزه فيه بإرادته، ومعلوم أن كلا هذين من دواعي الشهوة والغضب المذمومين، ومن مخبر عن كذب في طبقة يحبهم لشكر أو ييغضهم لنكر وهو مقارب للأول فإن الباعث على فعله من دواعي المحبة والغلبة، ومن مخبر عنه متقرباً إلى خير بدناءة الطبع أو متقياً لشر من فشل وفزع.. والمجانِب للكذب المتمسك بالصدق هو المحمود الممدوح عند الكاذب فضلاً عن غيره، فقد قيل «قولوا الحق ولو على أنفسكم» وقال المسيح عليه السلام في الإنجيل ما معناه: لا تبالوا بصولة الملوك في الإفصاح بالحق بين أيديهم، فليسوا يملكون منكم غير البدن، وأما النفس فليس لهم عليها يد، وهذا منه أمر بالتشجيع الحقيقي.. وكما أن العدل في الطباع مرضى محبوب لذاته مرغوب في حسنه، كذلك الصدق إلا عند من لم يذق حلاوته أو عرفه وتحماته^(١).

وقال أيضاً في كتابه تحديد نهاية الأماكن.. «إني لا أبى قبول الحق من أى معدن وجدته»^(٢).

٣ - البعد عن التعصب المقيت:

والتعامل مع أحداث التاريخ بالحيدة الكاملة والانتصاف للحقيقة مهما كانت توافق رأى المؤرخ أو تخالفه، ولهذا جاء حديثه عن أديان الهند وعن الدين الزرادشتى حديث المسجل للحقيقة دون هجوم أو تشنج ضد هذه الأديان التى قضى عليه السلام، وقد قال فى مقدمة الآثار الباقية عن الأيام الخالية:

(١) تحقيق ما للهند، ص: ٢، ٣.

(٢) نقلاً عن: بيرونى نامه، ص: ٢٠.

« .. تم قياس أقاويلهم وآرائهم - أصحاب الآراء والنحل - فى إثبات ذلك بعضها ببعض بعد تنزيه النفس - نفس المؤرخ - من العوارض المردية لأكثر الخلق، والأسباب المعمية لصاحبها عن الحق، وهى كالعادة المزلفة والتعصب والتظاهر واتباع الهوى والتغالب بالرياسة وأشباه ذلك..»^(١).

وحرصه على قولة الحق دون تعصب هو الذى دفعه لأن يسمى كتابه عن الهند باسم لافت للنظر والفكر فهو: «تحقيق ما للهند من مقوله مقبولة فى العقل أو مردولة» فالكلمة الأولى تحقيق أى بحث ونقص ودراسة، وأن كل كلمة ستقال فى هذا المجال ستأتى بعد طول تدبر وتفكر، ولذا استمر تأليف هذا الكتاب طوال أربعين عاما - كما يقولون - وقد جعل العقل حكما فى كل ما سيذكره عن الهند، والعقل هو الذى سيحدد مدى القبول والموافقة على ما سيذكر أو مدى نفوره مما نسيقال، فإن كان الأمر موافقا عليه من قبل العقل فهو أمر مقبول، وإذا كان غير ذلك فهو مردول، وهكذا كان الحكم للعقل لا للعاطفة، لأن العاطفة سرعان ما تنحاز حسب الهوى والمصلحة، وهكذا كانت أحكامه عن الهند وعاداتهم ورسومهم مقبولة حتى من الهند أنفسهم حتى ولو كانت هذه الأحكام على غير هواهم. ولاشك أن البيرونى كان سابق عصره فى هذا المضمار، إذ لم يكن الإسلام حتى هذا الوقت الذى كان يعيش فيه البيرونى قد وصل إلى تلك القوة التى تسمح لأحد أبنائه أن

(١) الآثار الباقية، ص: ٤.

يتحدث عن الأدیان الوثنية وغيرها حديثاً منصفاً بعيداً عن الحساسية والتعصب.

ومع اعتراف الجميع بأن البيرونى كان بعيداً عن التعصب فى أحكامه، إلا أن بعض الفرس والأوروبيين ممن كتبوا عنه فى العصر الحديث قد ادعوا بأنه كان يغض العرب محطى عرش الساسانيين وقد بقى طوال عمره معادياً للعرب، وقى المقابل كان يحب كل شىء وكل شخص يمت بصلة إلى أصله الفارسى، ومن بين من قالوا هذا جورج سارتن فى مقدمة تاريخ العلم^(١).

وكذلك جاء هذا الإتهام فى بيرونى نامه ولغت نامه وغيرهما من الكتب الفارسية ولاشك أن إتهام البيرونى بهذا الأمر يجافى الواقع والحقيقة، فهذا العالم الذى كان يدرس تاريخ الأمم السابقة ودياناتها بكل سماحة وبعد عن التعصب، من الصعب قبول وصفه بمعادة العرب وتعصبه ضدهم، وهو الذى أثر أن يكتب باللغة العربية جميع كتبه عدا كتاب واحد هو «التفهيم لصناعة التنجيم».

٣ - الإعتراف بفضل سابقه:

كان البيرونى إذا أقدم على عمل، فإنه يبحث عن كل الكتب التى كتبت قبله فى هذا الأمر، ويحسن قراءتها، ولكنه لم يكن ينقل منها إلا ما يقتنع بصحته، ولذا كانت نقوله تبدو وكأنها جزء لا يتجزأ من الموضوع الذى يعالجه^(٢) وكانت نقوله هذه دليلاً على اعترافه بفضل سابقه، وأن مهمته مواصلة المسيرة التى بدأها غيره، وتصحيح ما قد

(١) أبو القاسم قربانى: بيرونى نامه، ص: ١٠، ١٢ ولغتنامه ج ٢ ص ٤٦٨.

(٢) تراث الإسلام: القسم الثالث، ص: ١٠٢.

يكون بعضهم قد وقع فيه من خطأ فهو القائل: «ولأنما فعلت ما هو واجب على كل إنسان أن يعمل في صناعته من تقبل اجتهاد من تقدمه بالمنة وتصحيح خلل إن عثر عليه بلا حشمة.. وتخليد ما يلوح له فيها تذكرة لمن تأخر عنه بالزمان وأتى بعده..»^(١).

٤ - أخذ الخبر من مصادره الأصلية:

كان البيروني حريصاً كل الحرص على ذكر الحقيقة، ولهذا كان يسعى إليها في مظانها، فعندما أراد أن يكتب عن تاريخ الهند تعلم السنسكريتية حتى يستطيع قراءة كتب الهند واستخلاص المعلومات والأخبار من المصادر الهندية ذاتها كما أنه سافر عدة مرات إلى الهند واختلط بالناس وسمع منهم، وسجل ماسمع وما شاهد، دون الإكتفاء بالنقل عن كتب السابقين، ولهذا جاء كتابه أصدق كتاب عن تاريخ الهند وعادات أهلها لعدة قرون.

ونفس الشيء فعله عندما أخذ يكتب عن تقويم زرادشتي إيران وخوارزم وصغد وسمرقند، فكان يأخذ من أفواه الرجال حيث حرص على مخالطة ومعايشة رؤسائهم وعلمائهم وحكمائهم^(٢)، وهكذا جاء حديثه عنهم حديث المحقق المنقب، لا حديث الناقل والتابع لغيره من الكتاب أو المؤرخين.

٥ - عقد المقارنات توضيحاً للصورة:

كان البيروني حريصاً على عقد المقارنات فيما بين ما هو موجود

(١) قانون مسعودي، ص: ٥٠٤.

(٢) لغتنا، الجزء الثاني، ص: ٤٦٨.

لدى هولاء وأولئك، حتى تبدو الصورة واضحة، ففي حديثه عن بعض عادات الهنود ورسومهم كان يقابل بينها وبين ما هو موجود ببلاد الإغريق أو غيرهم ففي الباب الثالث من كتاب تحقيق ما للهند فصل قدم فيه آراء قدماء اليونانيين ومماثلتها بمقابلة الهند في وحدة الأشياء والموجودات^(١) وعندما تكلم عن تناسخ الأرواح في الهند عرج أيضاً على بلاد اليونان وكتب عن عقيدة اليونانيين في التناسخ وقول سقراط في ذلك^(٢) وحينما تحدث عن موقف الهنود من الأصنام وتقديسهم لها، انتقل أيضاً إلى موقف العرب قبل الإسلام من الأصنام وعبادتهم لها^(٣).

فعل هذا في كتابه: الآثار الباقية، حيث كان حريصاً على عقد مقارنات عديدة بين تقويم كل أمة يتحدث عنه وتقويم الأمم الأخرى وعند حديثه عن تحديد اليوم واللييلة عند العرب قال: «إن العرب فرضت أول مجموع اليوم واللييلة نقط المغارب على دائرة الأفق، فصار اليوم عندهم بليله من لدن غروب الشمس عن الأفق إلى غروبها من الغد، والذي دعاهم إلى ذلك هو أن شهورهم مبنية على مسير القمر مستخرجة من حركاته المختلفة وأوائلها مقيدة برؤية الأهلة لا الحساب، وهي ترى لدى غروب الشمس رؤيتها عندهم أول الشهر..^(٤)».

ثم انتقل ليقابل هذا بالحديث عن تحديد اليوم واللييلة لدى الأقوام الذين يتخذون من حركة الشمس ودورانها تحديداً لأيامهم وشهورهم وسنينهم، فقال:

(١) تحقيق ما للهند، ص: ٢٤.

(٢) نفس المرجع. الباب الخامس، ص: ٤٣.

(٣) نفس المرجع، الباب الحادى عشر، ص: ٩٤.

(٤) الآثار الباقية، ص: ٥.

.. فأما عند غيرهم من الروم والفرس ومن وافقهم فإن الإصطلاح واقع بينهم على أن اليوم بليله هو من لدن طلوع الشمس من أفق المشرق إلى طلوعها منه بالغد إذ كانت شهورهم مستخرجة بالحساب غير متعلقة بأحوال القمر ولا غيره من الكواكب وابتدائها من أول النهار فصار النهار عندهم قبل الليل^(١).

وهكذا كانت المقابلة عنده وسيلة إيضاح وتبسيط للصورة التي يريد إبرازها وتوضيحها، كما أن هذه المقارنة تدخل في باب طريقته الموسوعية التي تغلب على كل كتاباته حيث كان البيروني موسوعياً متعدد العلوم، واسع الإطلاع على تواريخ الأمم كلها مما يصعب عليه أن يتحدث عن بلد دون أن يعرج على غيرها من البلاد.

٦ - الوحدة الموضوعية:

كان مؤرخو عصر البيروني تتسم مؤلفاتهم بكتابة الأحداث حسب السنين لا حسب الموضوع، فإذا حدثت بعض الأحداث في أماكن متعددة كان الذي يجمع بينها سنة حدوثها لا موضوعها، ولكن التاريخ عند البيروني قد اتسم بالوحدة الموضوعية، فكان يتحدث عن الموضوع الذي يعرض له حديثاً كاملاً غير موزع على السنوات والأيام، وهذا منهج جديد في التاريخ ابتدعه البيروني مخالفاً به طريقة السواد الأعظم من المؤرخين في عصره مما يجعل الأمر سهلاً ميسوراً على القارئ للإلمام بالموضوع كوحدة عضوية واحدة، إلى جانب ذلك كان يعاب على التاريخ في هذه الفترة بجانب السير على حساب السنين، الاعتماد على الجزئيات لا على الكليات، كما كان التاريخ في رأيهم أن سير

(١) الآثار الباقية، ص: ٦.

الحروب والملوك والانتصارات أهم من سير الشعوب والحياة الاجتماعية، أما علم التاريخ عند البيروني فقد تمثل في مناقشته التقاويم والتواريخ لدى الأمم المختلفة، كما أنه تناول تاريخ الأمم الشرقية وأخبارها وأحداثها لاسيما تاريخ الأمة الهندية بوجه خاص، حيث تعد مؤلفاته عنها من المراجع الهامة القيمة النادرة التي لا يستغنى عنها باحث يعنيه هذا الموضوع، ومن أهم الموضوعات التي عنى البيروني بمعالجتها، تاريخ الأنبياء والرسل عليهم السلام والتقاويم المختلفة والأعياد والمناسبات التي تحتفل بها كل أمة من الأمم مقدما أسباب هذه المناسبات وكيفية الاحتفاء بها، أما حديث الملوك فجاء عنده هامشيا لأنه كان يعتقد أن التاريخ من عمل الشعوب لا الملوك!!.

٧ - البعد عن الخرافات والأساطير:

من يطالع الطبرى - وهو أشهر كتب التاريخ فى هذه الفترة - سيجد أن الطبرى قد أفرد العديد من الصفحات للحديث عن الأساطير القديمة وبخاصة أساطير الفرس، هذه الأساطير التي لا يتقبل العقل معظمها، وهكذا فعل غيره من المؤرخين، ولكن البيرونى لم يكن يولى هذه الأساطير أهمية بل كان ينفر من مناقشتها والحديث عنها، وإنما كان إعمال العقل هو الأساس لديه، فإذا كان الخبر الوارد إليه متفقاً مع العقل والمنطق عرضه، أما إذا كان من باب الخرافات والخيالات فإنه كان يؤثر التغاضى عنه، ولذا جاء حديثه عن الأمم السابقة بعيداً عن الخرافات والأباطيل، وقد قال فى ذلك:

«كل ما يتعلق معرفته ببدء الخلق وأحوال القرون السابقة فهو مختلط بتزويرات وأساطير لبعد العهد به وامتداد الزمان بيننا وبينه وعجز المعنى به

عن حفظه وضبطه، وقد قال تعالى ﴿ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم لا يعلمهم إلا الله﴾ فالأولى أن لا نقبل من قولهم فى مثله إلا ما يشهد به كتاب معتمد على صحته أو خبر مشفوع به بشرائط الثقة فى الظن الأغلب... (١).

إلى جانب هذه السمات التى ميزت علم التاريخ عند البيرونى عما كان لدى غيره من المؤرخين، يمكن أن نضيف سمة أخرى وهى أنه استثمر ملكاته الأخرى فى التاريخ، ومن هذه الملكات ملكة الشعر، فقد نظم قصيدة ذكر فيها تاريخه مع بعض الملوك والأفراد فى عصره، مشيراً إلى البلاطات التى عمل بها الملوك والأفراد الذين خدمهم، مع إبداء الرأى فى هؤلاء الملوك والأمراء، فقد نظم ما يلى: (نقلاً عن لغتنامه جـ ٢، ص: ٤٦٢).

مضى أكثر الأيام فى ظل نعمة على رتب فيها علوت كراسيا
فأل عراق قد غذونى بدرهم ومنصور منهم قد تولى غراسيا (٢)
وشمس المعالى كان يرتاد خدمتى على نفرة منى وقد كان قاسيا (٣)
وأولاد مأمون ومنهم عليهم تبدى بصنع صار للحال آسيا

(١) الآثار الباقية عن القرون الخالية، ص: ١٤.

(٢) آل عراق يقصد بهم آل مامون ولاية خوارزم والمعروفين باسم «خوارزمشاهيين» وكانوا مسئولين عن جمع الخراج للسامانيين ولكنهم استقلوا بالحكم تماماً فى فترة الانتقال من حكم السامانيين إلى الغزنويين أى فى الفترة من ٣٨٤ - ٣٩٠ هـ وقد حكموا خوارزم - بلد البيرونى - حتى استولى محمود الغزنوى على بلدهم واحتلها عام ٤٠٧ هـ وضمها إلى مملكته. وقد عمل لديهم البيرونى فى الفترة الأولى من حياته وكذلك عاد إليهم بعد تركه بلاط شمس المعالى قابوس بن وشمكير فى جرجان وذلك فى الفترة ما بين ٤٠٠ - ٤٠٧ هـ.

(٣) شمس المعالى قابوس بن وشمكير حكم جرجان خلال فترتين هما ٣٦٦ - ٣٧١ هـ و ٣٨٨ - ٤٠٣ هـ وقد التحق به البيرونى خلال الفترة الثانية من حكمه وألف باسمه كتاب الآثار الباقية عام ٣٩٠ هـ على الرغم من عدم ارتياح البيرونى له واتهامه بالقسوة.

وأخبرهم مأمون رفته حالتي ونوه باسمي ثم رأس راسيا
ولم ينقبض محمود عني بنعمة فأغنى وأقنى مغضيا عن نكاسيا (١)
عفى عن جهالاتي وأبدى تكريما وطرى بجاه رونقى ولباسيا
عفاء على دنياى بعد فراقهم وواحزنى إن لم أزر قبل آسيا (x)
ولما مضوا واعتضت منهم عصابة دعوا بالتناسى فاغتمت التناميا
وخلفت فى غزنين لحما كمضغة على وضم للطير، للعلم ناسيا
فأبدلت أقواما وليسوا كمثلهم معاذ إلهى أن يكونا سواسيا
بجهد شأوت الجالبين أئمة فما اقتبسوا فى العلم مثل اقتباسيا
فما بركوا للبحث عند معالم ولاحتسبوا فى عقدة كاحتباسيا
فسائل بمقدارى هنوداً بمشرق وبالغرب من قد قاس مثل عماسيا (xx)
فلم يثنهم عن شكر جهدى نفاسة بل اعتفروا طرا وعافوا انتكاسيا
أبو الفتح فى دنياى مالك ربقتى فهات بذاكرة الحميدة كاسيا (٢)
فلا زال للدنيا وللدنين عامراً ولا زال فيها للغواة (٣) مواسيا

(١) انضم البيرونى إلى بلاط محمود الغزنوى بعد استيلاء محمود على خوارزم وسافر معه إلى الهند عدة مرات، وكان مقره الدائم غزنة عاصمة الغزنويين، ولم يكن على وفاق جيد مع محمود بعكس صلته الطيبة بابنه مسعود الذى ألف بإسمة «القانون المسعودى» وكذلك صلته الجيدة مع حفيد محمود السلطان مردود بن مسعود.

(٢) أبو الفتح البستى: هو نظام الدين أبو الفتح على بن محمد من شعراء وكتاب العصر الغزنوى وأواخر القرن الرابع الهجرى والمتوفى ما بين ٤٠١، ٤٠٣ هـ وقد عمل كاتباً وصاحب ديوان الرسائل لناصر الدين سبكتكين وكذلك لابنه محمود الغزنوى، ولكنه اختلف مع محمود وترك بلاطه، وله ديوانان من الشعر أحدهما فارسى والثانى عربى، وقد وردت بعض أشعاره فى لباب الألباب ومجمع الفصحاء ولعله كان بمثابة المرشد والمعلم للبيرونى فى بداية حياته عندما كان يقيم فى مدينته يست و يشتغل بالتعليم والتدريس فارتفع شأنه وتولى إمارة مدينته. وهناك اتصال به البيرونى قبل أن يلحق البستى بالغزنويين (زهرى خانلرى: فرهنگ ادبيات فارسى).

(٣) هكذا جاءت بالنص

(x) آس: قبر

(xx) عماسيا: الأمر الصعب والمشقة.

هذا هو البيروني المؤرخ الكبير الذي لا يقل مكانة عن غيره من كبار المؤرخين إن لم يكن يتفوق على معظمهم، إنه مؤرخ الشعوب لا الملوك، إنه المؤرخ المنصف المحب للحق والحقيقة، إنه المؤرخ الذي خلف لنا العديد من الكتب في مجال التاريخ العام أو في تاريخ الرياضيات وغيرها من العلوم.

لقد كان البيروني متعدد المواهب واسع المعرفة، إنه جامعة بكل فروعها العلمية ولذا لم يكن بمستغرب أن تطلق أوزبكستان اسمه على جامعتها في طشقند.

رحم الله أبا الريحان البيروني، وأكثر من أمثاله بين أبناء العالم الإسلامي حتى يستعيد المسلمون مكانتهم العلمية الرائدة في العالم أجمع، كما كان عليه الحال أيام البيروني ومعاصريه من كبار العلماء والأدباء والمفكرين.

والله الموفق ، ، ،

كاف الكفر أفضل من فاء الفلسفة
ذم الفلسفة عند فريد الدين العطار وجلال الدين الرومي

كاف الكفر أفضل من فاء الفلسفة

ذم الفلسفة عند فريد الدين العطار وجلال الدين الرومي

كان بهاء ولد والد جلال الدين الرومي يعيش في مدينة بلخ، وكان عالما دينيا له مكانته حتى لقب بسلطان العلماء، وقد سائر العلماء في زمانه حيث هاجم الفلسفة والفلاسفة مثلما فعل حجة الإسلام أبو حامد الغزالي، وقد أدى هجومه هذا إلى فساد العلاقة بينه وبين المفكر الإسلامي فخر الدين الرازي الذي كان يقطن بلخ كذلك، ولعل هذا الخلاف فيما بينهما قد أدى إلى جفوة بين بهاء ولد وحاكم بلخ، مما جعله يفكر في الهجرة غربا، وقوى هذه الرغبة لديه الشعور بقرب هجوم المغول على بلخ. وغيرها من مدن إيران، وبدأت رحلة بهاء ولد ومعه أسرته ومن بينهم ابنه جلال الدين وذلك عام ٦٠٩ هـ، ومن بين المدن التي مروا بها مدينة نيسابور حيث كان يقيم الصوفي الكبير فريد الدين العطار، فحرص الوالد على أن يلتقى بهذا الشيخ الكبير ملتصقا بالبركة وقد صحب ابنه جلال الدين معه في هذه الزيارة، ويقال إن فريد الدين العطار قد أخذ الطفل جلال الدين وكان له من العمر خمس سنوات بين ذراعيه واحتضنه، ثم بشره بمستقبل عظيم وباركه، ثم أعطاه كما يقول البعض نسخة من كتابه «الهي نامه» ويقول آخرون بأنها نسخة من كتابه «أسرار نامه».

ثم واصلت أسرة بهاء ولد رحلتها حتى استقر بها المقام في مدينة قونية بآسيا الصغرى، ولاشك أن اللقاء بالعطار قد ترك أثرا كبيرا في نفس جلال الدين، وظل فريد الدين العطار بمثابة مثل أعلى ومرشد له،

حتى أن جلال الدين قد ذكر صراحة بأنه جاء بعد كل من السنائي
والعطار.

عطار روح بود وسنائي دو چشم او
ما از پی سنائي وعطار آمد يم

وترجمته:

كان العطار روحا، والسنائي عينا، ثم أتينا بعد السنائي والعطار.
كما ورد في الأخبار أن من أسباب نظم جلال الدين الرومي لكتابه
القيم المثنوي المعنوي، أن حسام الدين چلبی تلميذ جلال الدين قد
طلب من أستاذه جلال الدين أن ينظم عملا على غرار حقيقه الحقيقة
لسنائي أو منطق الطير للعطار، لكي يكون مرجعا لأتباع الطريقة،
فيسلكون الطريق على هدى تعاليمه وأيا كان هذا الخبر صحيحا أولا،
فمن المؤكد أن جلال الدين قد قرأ كل ما كتب العطار، وتأثر ببعض
آرائه، بل وأخذ بعض حكاياته الواردة في منظوماته العديدة وأهمها منطق
الطير والهي نامه وشرار نامه، أو بعض الحكايات النثرية الواردة في تذكرة
الأولياء وأعاد نظمها وصياغاتها في كتابه المثنوي ومن بين هذه
الحكايات أذكر بعضا منها على سبيل المثال لا الحصر:

وردت في أسرار نامه للعطار حكاية عن أستاذ لديه تلميذ أحول،
كان يرى الشيء شيئين، فقد أرسله أستاذه لإحضار زجاجة من مكان
ماء، وعندما ذهب رأى الزجاجة زجاجتين، فاحترأ أيهما يحضر، وعاد إلى
أستاذه يسأله التدبير، فما كان من الأستاذ إلا أن أمره بكسر إحداهما

وإحضار الثانية، وعندما نفذ ما أمره به أستاذه لم يجد الزجاجاة الثانية، وهكذا أدرك التلميذ أنه بحوله هذا غير قادر على رؤية الحقيقة، وهكذا من لديه حول عقلى سيرى الجوهر الواحد جوهرين، مما يبعدة عن إدراك الحقيقة الأبدية حيث لا وجود إلا لوجود الواحد فقط وقد أخذها جلال الدين الرومى ونظمها فى حكاية وردت بالكتاب الأول من المثنوى تحت عنوان حكاية ملك اليهود الذى كان يقتل النصارى بسبب تعصبه [ص ١٠٣ - ١٠٤ من ترجمة الدكتور محمد كفافى]، فقد كان هذا الملك أحول لذا لم يستطع رؤية أن عيسى ليس الا روح موسى، وموسى ليس إلا روح عيسى، ثم أورد بعد ذلك قصة الأستاذ مع تلميذه الأحول، معلقا عليها بأن المرء يصير أحول مما به من الهوى والغضب.

وحكاية أخرى وردت فى منظومة الهى نامه للعطار ملخصها أن أبله رافق عيسى عليه السلام وطلب منه أن يعلمه اسم الله الأعظم، ولكن عيسى رفض أول الأمر، ولكنه أمام إلحاح الأبله علمه كيف ينطق باسم الله عز وجل. وإذا بهذا الأبله يخرج إلى الصحراء ويرى عظاما نخرة، فأراد أن يجرب أثر اسم الجلاله على هذه العظام فإذا بالحياة تدب فيها وتحول إلى أسد مفترس سرعان ما قضى على هذا الأبله، فسئل عيسى عليه السلام ما السر فى ذلك، فقال: إن هذا الرجل طلب من الحق ما لم تكن نفسه جديرة به!!.

وقد أورد جلال الدين الرومى هذه الحكاية فى الكتاب الثانى من المثنوى تحت عنوان:

كيف التمس رفيق عيسى منه إحياء العظام [ص ٣٢، ٣٣ من

ترجمة الدكتور محمد كفافى] حيث طلب ذلك الأبله من عيسى عندما رأى هيكلا عظيما فى جب عميق، أن يعلمه عيسى كيف يجعل هذه العظام ذات روح مرة ثانية، ولكن عيسى رفض حيث أن من يحظى بهذا الشرف يحتاج إلى نفس أنقى من المطر، وإلى سلوك أكثر إدراكا من سلوك الملائكة، وليس كل من يمسك يمينه عصا يصبح موسى!

وحكاية ثالثة وردت فى منطق الطير لفريد الدين العطار [الأبيات ٢٣٩٢ - ٢٥٠٥ من الترجمة العربية لكاتب المقال] مؤداها: أن ملكا حسن الطوية قد أنعم ذات يوم على أحد غلمانه بحبة فاكهة، فكان الغلام يأكلها بنهم شديد، ويقول: لم أكل ما هو أفضل منها وأطعم، ولحسن ما كان يأكل الغلام، تولدت لدى الملك الرغبة فى الاقتسام فقال: أيها الغلام، أعطني نصفها، فما أطيب ما تأكله من طعام! وعندما تذوقها الملك وجدها مرة، فقطب الجبين، ثم قال: كيف يصبح هذا الشيء المر حلوًا يؤكل؟ فقال الغلام: ياملك الملوك، لقد أخففتى بالآف التحف من يديك، فإذا كانت الفاكهة جاءتني من يدك مرة، فكيف أستسيغ إعادتها ثانية؟ وإن كنت تنعم على بالكنوز فى كل لحظة، فكيف يصيبني شيء واحد بأى غصة؟!..

ولما تحمله هذه الحكاية من حكمة وعظة، فقد أخذها جلال الدين الرومى ونسبها للحكيم لقمان، وأوردها فى الكتاب الثانى من المثنوى تحت عنوان:

(كيف ظهر فضل لقمان وحكمته أمام ممتحنه (ص ١٥٨ - ١٦٠ من ترجمة الدكتور محمد كفافى) وقد أفرد لها جلال الدين الرومى

واحدا وخمسين بيتا فى حين جاءت عندا العطار فى أربعة عشر بيتا فقط، وبعد أن حكى أن أحد الناس أهدى إلى السيد بطيخة فأقطع منها قطعة وأعطاهما للقمان فأخذ يأكلها وكأنما يأكل السكر أو الشهد، ونتيجة لهذا منحه السيد بعد ذلك قطعة تلو القطعة حتى وصل مجموع ما أكل إلى سبع عشرة قطعة، ولم تبق من البطيخة إلا قطعة واحدة، فقال السيد: سوف أكل أنا هذه القطعة لأرى كم هى حلوة ولكن حين تذوقها وجد لحموضتها مذاق النار، فألهبت لسانه واحترق بها حلقه فقال للقمان: كيف جعلت هذا السم ترياقا؟ أى صبر هذا؟ لماذا لم تتعلل بحيلة تحتج بها حتى لاتواصل الأكل؟ فقال لقمان: إننى من يدريك المنعمتين كم أكلت حتى انحنيت خجلا، وقد استنحيت ألا أستسيغ المر من كفك مرة واحدة.. لقد كان لهذا البطيخ حلاوة يدك السكرية العطاء، وكيف كانت هذه تدع أية مرارة فى البطيخ؟ إن المحبة تجعل المر حلو المذاق، والمحبة يغدو النحاس ذهبى الصفات.

هذه بعض الحكايات التى أخذها جلال الدين الرومى فى كتابه العظيم المثنوى المعنوى من فريد الدين العطار، ومن يبيغ المزيد من الأمثلة يمكنه الرجوع إلى كتاب مأخذ قصص وتمثيلات مثنوى لبديع الزمان فروزانفر والمطبوع فى طهران عام ١٩٥٤ وإلى جانب هذه الحكايات نجد أن الصوفيين الكبارين كانت لهما آراء مشتركة فى بعض المسائل الفكرية المطروحة فى ذلك الوقت، ومن هذه المسائل مسألة ذم الفلسفة والفلاسفة، كان هذان الشيخان يقفان إلى جانب التصوف الذى يعتمد على القلب والروح، ويرفضان الفلسفة لاعتمادها على العقل، ومادام

العقل قاصرا فلا جدوى من الفلسفة، ولن تصل بصاحبها إلى إدراك الحقيقة!

وقد أورد فريد الدين العطار في نهاية منطق الطير حكاية [بيت ٤٤٩٣ — ٤٥١٥ من الترجمة العربية لكاتب المقال] ذم فيها الفلسفة، ومن بين ما قاله في هذا الصدد ما يلي:

— أنى لك أن تدرك عالم الروحانيين، وأنت تتردى في حكمة اليونانيين.

— إن لم تستطع التخلي عن هذه الحكمة، فكيف تستطيع أن تكون جديرا بما في الدين من حكمة.

— كل من يتمثلها في طريق العشق، فهو في مجال الدين ليس خبيرا بالعشق.

— بحق المعرفة إننى أفضل في هذا المجال كاف الكفر على فاء الفلسفة.

— وذلك إن تتكشف الحجب عن الكفر، فإنك تستطيع الاحتراز من الكفر.

— ولكن إن قطع علم الجدل عليك الطريق، فما أكثر ما يقطع على العارفين الطريق.

— وإذا قدر وأضاء قلب من تلك الحكمة، فلم أحرقها الفاروق عمر كلها؟

– منذ أن أحرق شمع الدين حكمة اليونان، ما استطاع شمع الدين
الإشتعال من هذا العلم.

– يا رجل الدين حسبك حكمة يثرب، ثم انثر التراب على اليونان
من طريق الدين.

ويعلل العلامة فروزانفر أسباب هذا الهجوم بقوله: ربما كان السبب
الأصلى الكامن وراء ذم فريد الدين العطار للحكمة والفلسفة يرجع إلى
أن أكثر المعلمين والمتعلمين لهذا الفن فى تلك الأيام أصابهم الجمود
والتوقف عند أقوال أبى نصر الفارابى وأبى على بن سينا، وجمدوا على
الآراء المنقولة عن حكماء اليونان، فقد كانت تعوزهم النظرة الحرة
الطليقة، بعكس الأدب والفقه، فقد كان الأدباء والفقهاء يستندون فى
أقوالهم إلى القرآن الكريم والحديث وإلى كل مايتعلق بالدين.

وكما فعل فريد الدين العطار، فعل جلال الدين الرومى، فقد حفل
كتابه القيم المثنوى بالعديد من الحكايات التى يلم فيها الفلسفة
والفلاسفة، ويقلل من شأنهم ويستهن بعلمهم، ولن نستطيع ذكر كل
هذه الحكايات، لذا سنكتفى بذكر مثلين وردا فى الكتاب الثانى من
المثنوى كشاهد على موقف جلال الدين من هذه القضية.

الحكاية الأولى عنوانها «إنكار المتفلسف قراءة» [إن أصبح مأؤكم
غورا] [ص ١٧٠ - ١٧٨ - من ترجمة الدكتور محمد كفاى]
وملخصها أن أحد القراء كان يقرأ من القرآن الكريم قوله تعالى: «قل
أرأيتم إن أصبح مأؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين (سورة الملك آية
٣٠)، وتعى: لو أن الله عز وجل حبس الماء عن العين، وحجب المياه

فى الأغوار، فجفت العيون وأصبحت الأرض قاحلة، فمن ذا الذى يعيد الماء ثانية إلى العيون سوى الله عز وجل؟ وكان يمر بجوار الكتب حينذاك متفلسف منطقى مستهان القدر، وحينما استمع إلى الآية قال ساخرا: سوف نحصل على الماء بالمعول! أننا بضربة الفأس وحدة المعول نخرج الماء من جوف الأرض إلى سطحها.

نام ذلك المتفلسف تلك الليلة، فإذا به يرى فى المنام أن رجلا شجاعا ضربه ضربة أعمت كلتا عينيه، وقال له: «أيها الشقى!! إن كنت صادقا فاستنبط بالفأس بعض النور من نبع عينيك، ونهض الرجل فى الصباح فوجد عينيه قد عميتا، ووجد أن النور الفياض قد اختفى منهما، ولو أنه انتحب واستغفر ربه لرد إليه - يكرم الله - ما فارقه من نور البصر، لكنه لم يكن فى وسعه الاستغفار، فمذاق التوبة ليس نقلا لكل نشوان، إن قبح أعماله وشؤم جحوده قد أغلقا أمام قلبه سبيل التوبة!!

وهكذا سخر جلال الدين من ذلك المتفلسف الذى لم يدرك معنى الآية القرآنية، بل وسخر من قارئها. فإذا بالله عز وجل يسخر منه ويحرمه نعمة الإبصار حتى يدرك ذلك المتفلسف أن كل علمه وفلسفته غير كافية لأدراك معانى القرآن الكريم، وكل مايقوله مجرد سفسطائية جدلية جوفاء.

والحكاية الثانية من الكتاب الثانى أيضا [ص ٣١٧ - ٣٢٠ من ترجمة الدكتور محمد كفافى] عنوانها: قصة الأعرابى الذى وضع رمالا فى كيس، وكيف لامه الفيلسوف «وملخصها أن أحد الأعراب وضع على ظهر جملة كيسين كبيرين ممتلئين، ثم ركب فوق هذين

الكيسيين، ثم قابله رجل لبق الكلام وسأله عن وطنه وعن أحواله. ثم سأله عما فى هذين الكيسين، فقال الأعرابى: إن فى أحدهما قمحا وفى الآخر رملا! فقال المتفلسف، ولماذا حملت الجمل هذه الرمال؟ فقال الأعرابى: حتى لا يبقى هذا الكيس وحيدا. فقال المتفلسف: فلتصب نصف ذلك الكيس المتخم فى الآخر تمشيا مع الحكمة والمنطق، فقال الأعرابى أمثل هذا الفكر الدقيق والرأى الصائب لديك، وأنت هكذا عريان تمضى على قدميك فى عناء؟ ثم شعر الأعرابى بالشفقة عليه واعتزم أن يركبه الجمل بدلا منه، ثم أخذ يستفسر عن أحواله، وأنه لا بد - ولديه كل هذا العقل - أن يكون ملكا أو وزيرا أو تاجرا كبيرا، فإذا بالمتفلسف يقول له:

- والله يا وجيه العرب ليس كل ما أملك بكاف للإنفاق على قوت ليلة واحدة.

- وأنتى لأعدو عارى الجسد حافى القدمين، وأسعى نحو كل من يقدم لى الخبز.

- ولم يتحقق لى من هذه الحكمة والفضل والذكاء سوى الخيال والصداع.

فأنفطس الأعرابى وقال له: لتبتعد حتى لا يمطر شؤم طالعك فوق رأسى.

- واحمل حكمتك المشعومة هذه بعيدا عنى، ومنطقك شؤم على أهل الزمان.

- إن كيسا من القمح وكيسا من الرمل هما خير لى من هذه الحيل الجوفاء.

- إننى أحمق، لكن هذا الحمق كثير البركة، فقلبى صاحب رزق، وروحي ذات تقوى!

- فإذا أردت أن يقل شقاؤك، فابذل جهدك لى تقل حكمت.

- فالحكمة التى تتولد من الطبع ومن الخيال هى حكمة مجردة من نور رب الجلال.

- إن حكمة الدنيا تزيد من الظن والشك، أما حكمة الدين فتحلق فوق الفلك.

- إن حكماء آخر الزمان الأخساء قد رفعوا أنفسهم فوق السلف.

- لقد أحرقوا أكبادهم وهم يتعلمون الحيل، وحذقوا أفعالا وألوانا من المكر.

- وأسلموا إلى الريح الصبر والإيثار وسخاء النفس والجود، وتلك كلها أكسير كل ربح.

- إن الفكر هو ذلك الذى يفتح طريقا، والطريق هو الذى يسير فيه أحد الملوك.

- أما الملك فهو من يكون ملكا بذاته، وليس ملكا بخزائنه وجيوشه.

- وذلك يبقى ملكه سرمديا، كما بقيت عزة الملك للدين الأحمدي!

هكذا شارك كل من فريد الدين العطار وجلال الدين الرومي قطبي
 التصوف الفارسي في الهجوم على الفلسفة والفلاسفة، واعتبار علمهم
 ومنطقهم مجرد سفسطائية وكلام أجوف، وأن العلم الحقيقي هو العلوم
 الدينية والأفكار العرفانية، ولعلمهم في هذه الحجة قد تأسوا بحجة الإسلام
 أبي حامد الغزالي في ازدرائه وذمه لتهافت الفلاسفة وبعدهم عن إدراك
 الحقيقة، هذا الازدراء الذي وصل إلى حد أن اعتبر العطار كاف الكفر
 أفضل من فاء الفلسفة، لأن الكفر يستطيع الإنسان أن يتوب عنه ويرأ
 منه، أما داء الفلسفة والمجادلة فلا دواء له ولا شفاء منه!!.

المراجع

أهم المراجع

- ١ - أبو الفضل البيهقي: تاريخ البيهقي ترجمة يحيى الخشاب وصادق نشأت، دار النهضة العربية - بيروت ١٩٨٢.
- ٢ - أبو القاسم قرباني: بيروني نامه (فارسي) انجمن آثار ملي، طهران ١٣٥٣ ش.
- ٣ - أحمد أمين: ظهر الإسلام ج ١.
- ٤ - أحمد الساداتي: مقال: تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مردولة: المجلد الثالث من تراث الإنسانية، وزارة الثقافة المصرية.
- ٥ - أحمد محمد عوف: صناعات الحضارة العلمية في الإسلام ج ٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- ٦ - إمام إبراهيم أحمد: مقال: القانون المسعودي، المجلد الثاني من تراث الإنسانية، وزارة الثقافة المصرية.
- ٧ - البيروني: الآثار الباقية عن الأيام الخالية مكتبة المثنى ببغداد.
- ٨ - البيروني: تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مردولة، دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد - الهند ١٩٥٨.
- ٩ - البيروني: التفهيم لأوائل صناعة التنجيم (فارسي)، تقديم جلال الدين همائي طهران ١٣٥٣ ش.
- ١٠ - البيروني: القانون المسعودي: دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد - الهند الطبعة الأولى ١٩٥٤.
- ١١ - دهخدا لغتنامه (فارسي).

- ١٢ - زهراى خانلرى: فرهنگ ادبيات فارسى، طهران ١٣٤٨ ش (فارسى).
- ١٣ - شاخت يوزورت: تراث الإسلام - القسم الثالث ترجمة د. حسين مؤنس وإحسان صدقى العمدة - عالم المعرفة - الكويت عدد ١٢ ديسمبر ١٩٧٨.
- ١٤ - عبدالرحمن حميدة: أعلام الجغرافيين العرب الطبعة الثالثة: دمشق ١٩٨٣.
- ١٥ - عبدالعزيز بقوش: مقال: أبو الريحان البيرونى، أضواء على حياته ضمن أبحاث المؤتمر الدولى: المسلمون فى آسيا الوسطى والقوقاز - جامعة الأزهر ١٩٩٥.
- ١٦ - عبدالمتعم النمر: تاريخ الإسلام فى الهند، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٥٩.
- ١٧ - على أحمد الشحات: أبو الريحان البيرونى، دار المعارف بالقاهرة ١٩٦٨.
- ١٨ - ياقوت الحموى: معجم الأدباء.

صورة الغلاف
ميناتور " حلقة الدراوش"
للأستاذ : "أبو طالب مقيمي تبريزي"
مستوحاة من شعر سعدى الشيرازي



المكتب المصري لتوزيع المطبوعات
هـ شارع مصطفى طه - أول المنيل القاهرة
تليفون : ٣٦٥٥٤٨٧